بحوث ومطالعات

في التراث الجغرافي العربي



الأستاذ الدكتور

عبدالله يوسف الغنيم

الطبعة الأولى

الكويت 1427 هـ / 2006 م

هذا الكتاب

يشكل التراث الجغرافي العربي ركناً أساسياً من المكتبة العربية. وعلى الرغم من صدور العديد من الكتب المحققة والبحوث المتعلقة بذلك التراث، فإن مجال العمل مازال مفتوحاً أمام الباحثين والدارسين لتناول هذا التراث، فهناك العديد من قضايا الفكر الجغرافي العربي القديم تحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء وتسليط الضوء عليها، وتحليلها علمياً، ومنهجياً، وبيان ما تقدمه من إضافات إلى الفكر الجغرافي الحديث.

ويشتمل هذا الكتاب على مجموعة من تلك البحوث التي تناولت جوانب جديدة يمكن أن تؤخذ في الاعتبار عند التقويم السليم لذلك التراث القديم نذكر منها:

- تبادل اليابس والماء - الأصول اليونانية والإضافات العربية.
- أطام النيران أو «البراكين» في التراث العربي.
- الدَّحْل والدُّحْلان في المصادر العربية القديمة.
- المصادر العربية لمصطلحات الأشكال الأرضية.
- استنباط المصطلحات العربية للأشكال الأرضية.

بالإضافة إلى مجموعة من القراءات التحليلية لبعض كتب التراث الجغرافي العربي التي من شأنها تقديم رؤية خاصة في منهج النظر إلى ذلك التراث وأسلوب تناوله.

بحوث ومطالعات

في التراث الجغرافي العربي

ردمك: ٤-٢٣-٨٧-٦-٩٩٩٠٦
رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٨٥



طبع بدعم من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
وبإشراف مركز البحوث والدراسات الكويتية

دولة الكويت- ص ب ٦٥٠٠٤ (35651) المنصورية

بحوث ومطالعات

في التراث الجغرافي العربي

الأستاذ الدكتور

عبدالله يوسف الغنيم

جزء

معين التاريخ لأهل التاريخ

الطبعة الأولى

الكويت ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م



مُقَدِّمَة

يسرني أن أقدم في هذا الكتاب مجموعة من البحوث والدراسات التي نشرتُها متفرقة في عدد من المجلات العلمية خلال العقود الثلاثة الماضية . وقد قمت بتحديث تلك الدراسات وتنقيحها وإضافة ما وجدته مناسبا إليها . ثم رأيت جمعها على هذا النحو لارتباطها جميعا بمجال التراث الجغرافي العربي ، ولكونها تكشف عن جوانب مهمة في ذلك التراث يمكن أن تلفت نظر الباحث المعاصر ليقوم بمزيد من البحوث والدراسات في هذا المجال ، رغبة في تأصيل الفكر الجغرافي العربي ، وتوثيق صلة طلبة البحث بمصادره ومعطياته العلمية .

وكان لابد في بداية هذه البحوث من مدخل يتضمن تقويما عاما للدراسات المتعلقة بالتراث الجغرافي العربي ، وتقدير مدى الحاجة إلى إعادة نشر الكتب التي سبق تحقيقها ونشرها في القرنين الماضيين ، وإبداء الرأي في بعض الكتب التي تم تحقيقها في العقدين الأخيرين ، وبيان دور الجغرافي المختص في تحقيق النصوص وتحليلها والإفادة من مصطلحاتها ومصوراتها الجغرافية القديمة .

ويلي المدخل المذكور خمسة بحوث يجمع بينها الإطار العام للبحث

الجغرافي والجيمورفولوجي ، فهي تتضمن دراسة لتبادل اليابس والماء ، وآطام النيران أو البراكين في التراث العربي ، والدحل والدحلان في الجزيرة العربية كما وردت في المصادر العربية القديمة ، ويتبع ذلك دراستان أولاهما عن المصادر العربية للأشكال الأرضية ، والأخرى عن استنباط المصطلحات الجغرافية للأشكال الأرضية . وجميع تلك البحوث والدراسات تستهدف وضع منهج لدراسة التراث الجغرافي العربي من حيث الأفكار والنظريات أو الأشكال الأرضية التي عالجها ذلك التراث ، مع التركيز في كل ذلك على أهمية دراسة المصطلح الجغرافي ووسائل استنباطه ، سواء ما جاء في كتب التراث العربي بعامة ، أو من خلال الدراسة الميدانية ، أو من خلال التعريب الذي ينبغي أن يبنى على دراسة متأنية تأخذ في اعتبارها جميع العوامل المؤثرة في وضع المصطلح ، والتي شرحناها بشيء من التفصيل في الدراسات المذكورة .

وقد ذيلت كل ذلك بعدد من المطالعات أو القراءات التي تضمنت عرضا وتحليلا لبعض الكتب المتعلقة بالتراث الجغرافي العربي واستعراض بعض الأحداث المعاصرة ومحاولة التعرف على جذورها التاريخية والجغرافية .

وختاما أرجو أن يكون في هذه البحوث والدراسات والمطالعات ما يفيد الباحثين ، ويحفزهم على المضي قدما في خدمة التراث الجغرافي العربي الذي أعطى للفكر الإنساني الكثير من المعلومات والأفكار ، وما أحوجنا اليوم أن نبين للأجيال القادمة جوانب من إبداعاته وإضافاته العلمية .

ونسأل الله السداد والتوفيق

أ. د. عبدالله يوسف الغنيم

نظرات في التراث الجغرافي العربي

يشكل التراث الجغرافي العربي ركنا أساسيا من مكتبتنا العربية ، ومن تراث الإسلام الحضاري ، ومازال وسيظل مجال العمل في دراسة ذلك التراث مفتوحا أمام الباحثين والدارسين ، فعلى الرغم مما نشر من كتب الجغرافيا العربية قديما وحديثا ، هناك العديد من الملحوظات التي ينبغي لها أن تؤخذ في الاعتبار عند التقويم السليم لذلك التراث الغزير الذي أسهم إسهاما كبيرا في إثراء الفكر الجغرافي ، وفي تقديم مناهج وأفكار جديدة مازالت محل تقدير الأوساط العلمية .

وهذا البحث محاولة من مختص عايش ذلك التراث نحو ثلاثين عاما قضاها في التحقيق والدراسة والبحث ، لتعرُّف أوجه القصور التي يعانيها المشتغل بذلك التراث ، وبيان أسلوب التعامل مع النصوص الجغرافية والخرائط والمصطلحات ، بما يحقق الفائدة المأمولة من تحقيق تلك النصوص ونشرها ، وسنقتصر على أمثلة ونماذج محدودة نقدر أنها ستكون وافية بالغرض الذي نهدف إليه من هذا البحث .

وفي تقديري أن تغطية الموضوع على النحو المنشود تتحقق من خلال جوانب خمسة ، هي : تقويم عام للدراسات المتعلقة بالتراث الجغرافي العربي ، وتقدير مدى الحاجة إلى إعادة نشر الكتب التي سبق تحقيقها في

القرنين الماضيين ، وإعادة النظر في بعض الكتب التي تم تحقيقها في العقدين الأخيرين ، وبيان ضرورة مشاركة الجغرافي المختص في تحقيق النصوص وتحليلها والإفادة من مصطلحاتها ، ثم العمل على دراسة الخرائط والمصورات الجغرافية القديمة دراسة نقدية ، وفيما يلي عرض لهذه الجوانب الخمسة راجين أن يكون عرضنا وافيا مبينا القضايا الرئيسة في مجال الفكر الجغرافي العربي .

أولا- تقويم عام للدراسات المتعلقة بالتراث الجغرافي العربي :

نستعرض في هذه النقطة أبرز الدراسات التحليلية التي قدمت ذلك التراث وبينت خصائصه وأبرز الأعمال المنسوبة إليه ، وليس المقصود بذلك ما بذل في تحقيق النصوص الجغرافية ونشرها ، وهو ما سنأتي إليه بعد قليل .

ولعل من أهم تلك الأعمال وأقدمها تلك المقدمة الوافية التي وضعها المستشرق الفرنسي رينو (J.T.Reinaud) لكتاب تقويم البلدان لأبي الفدا الذي نشره عام ١٨٤٨م ، وقد أعطت تلك المقدمة صورة كلية وعرضا عاما لتطور العلم والأدب الجغرافي في اللغات الثلاث الرئيسة للشرق الإسلامي ، وقد استغرقت هذه المقدمة نحوا من أربعمائة وخمسين صفحة ، استندت إلى معرفة جيدة للمؤلف بالجغرافيا الوصفية والفلكية[١] .

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م، الجزء الأول، ص ٢٧. دار الغرب، بيروت ١٩٨٧م، ص ٣١. وقبل رينو بست سنوات (١٨٤٢م) وضع المستشرق الألماني وستنفلد (F. Wüstenfeld) موجزا ببليوغرافيا للأدب الجغرافي العربي، مع دراسة مختصرة.

ويأتي بعد هذا العمل الكبير ما قام به المستعرب الروسي الشهير أغناطيوس كراتشكوفسكي الذي اهتم بموضوع الأدب الجغرافي العربي منذ بداية نشاطه العلمي ؛ فقد تأثر كثيرا بالمحاضرات التي ألقاها عن الفلك عند العرب في العصور الوسطى المستشرق الإيطالي كارلو نالينو C. Nallino وذلك في الجامعة المصرية عام ١٩٠٩م في أثناء رحلته (أي كراتشكوفسكي) العلمية إلى الشرق ، ثم عاد فدرَّس بجامعة بطرسبيرغ موضوع الأدب الجغرافي العربي عام ١٩١٠م ، ثم بدأ في تدوين كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» في الفترة بين عامي ١٩٣٨م و١٩٤٥م . ولم يظهر الكتاب إلا بعد وفاة كراتشكوفسكي بنحو ستة أعوام أي في عام ١٩٥٧م ، ويمثل الكتاب الجزء الرابع من «منتخبات آثار الأكاديمي كراتشكوفسكي» التي طبعتها أكاديمية العلوم السوفيتية تقديرا لجهوده العلمي . ويُعد هذا الكتاب أشمل كتاب صدر في النصف الثاني من هذا القرن في موضوع الجغرافيا العربية . وكانت ترجمته إلى العربية في أوائل الستينيات عاملا رئيسا في زيادة الاهتمام بدراسة هذا الموضوع في أقسام الجغرافيا بالجامعات العربية ، بل إن كثيرا من الدراسات التي ظهرت فيما بعد كانت مبنية على ما أثاره كراتشكوفسكي من آراء في ذلك الكتاب القيم .

ويلي كتاب كراتشكوفسكي في الأهمية كتاب أندريه ميكيل : «جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر» الذي بدأ نشره بالفرنسية في باريس في عدة أجزاء عام ١٩٦٧م ، وقد ترجمه إلى اللغة العربية إبراهيم خوري ونشرته وزارة الثقافة بدمشق بين عامي ١٩٨٣م و١٩٨٥م .

وقد أثار ميكيل في مقدمته ببراعة مسألة النهج الذي ينبغي له تناوله في دراسة النصوص الجغرافية العربية ، وبين أن هدفه هو محاولة إحياء عالم من خلال شهود أحسوا به وأدركوه وتفاعلوا معه . . «ماذا كان يعني البحر والنهر والمدينة والضريبة والحدود ، في مفهوم مسلم عاش منذ ألف عام» . ولهذا جاء كتابه مختلفا عن الكتب الأخرى ، فيه عرض شائق ينبض بالحياة لجغرافية العالم الإسلامي .

وإذا ما انتقلنا من فرنسا إلى الهند ، فإننا نجد أن الجغرافيا قد لقيت اهتماما خاصا على أيدي العلماء الهنود ، حيث نشطت جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، فقامت بنشر عدد من الكتب المهمة في مجال التراث الجغرافي العربي .

ففي عام ١٣٥٥هـ نشرت تلك الجمعية كتاب «الجماهر في معرفة الجواهر» لأبي الريحان البيروني ، وهو من الكتب اللصيقة بمجال الجغرافيا الاقتصادية ، ونشرت أيضا كتاب البيروني الشهير «في تحقيق ما للهند من مقولة ؛ مقبولة في العقل أو مرذولة» (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م) ؛ وقد لقي كتاب البيروني اهتماما كبيرا بين الدارسين الهنود حيث نشر حوله العديد من الأبحاث .

وصلة بأعمال البيروني نشرت «رسائل أبي نصر منصور بن عراق إلى البيروني» (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م) ، وتشتمل تلك الرسائل على خمس عشرة رسالة في أبواب الفلك ، منها أربعة بحوث عن الأسطرلاب ، وبحث عن دوائر الطول والعرض ، وآخر حول كريّة السماء .

ومن الكتب المهمة التي تولت نشرها دائرة المعارف العثمانية كتاب «إنباط المياه الخفية» لأبي بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخي من علماء القرن الخامس الهجري ، ويعدّ هذا الكتاب رغم صغر حجمه من الكتب جليلة القدر ؛ لما فيه من فوائد جمة حول تصنيف الموارد المائية ووسائل الاستدلال على وجود المياه واستخراجها من باطن الأرض ، هذا بالإضافة إلى ذلك النص المهم الذي اشتملت عليه مقدمة الكتاب (ص ٩) والذي يشرح فيه المؤلف بكل وضوح فكرة التوازن الأرضي ، وقد طبع هذا الكتاب عام ١٣٥٩هـ .

وكانت هذه الكتب وغيرها أساسا لعدد من الدراسات التي قام بها العلماء الهنود أمثال سليمان الندوي ، ونفيس أحمد ، ومقبول أحمد وغيرهم . وقد لقيت تلك الدراسات قبولا في مجلتي «الضياء» و«الثقافة الإسلامية» بحيدر آباد ، ومجلة «كلكتا الجغرافية» .

كما يعد كتاب «الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين» (الثالث والرابع الهجريين) للدكتور ضياء الدين علوي تتويجا للنشاط العلمي الهندي في هذا المجال ، فقد نال به صاحبه عام ١٩٤٨م درجة الدكتوراه من جامعة عليكرة الإسلامية ، وتم طبع الكتاب عام ١٩٦٥م بعد تعديله في ضوء ما استجد من بحوث في هذا الميدان ، وقد مهد للكتاب وأثنى عليه الدكتور مقبول أحمد ، وهو من المختصين في هذا المجال ، وتشهد على ذلك رسالته التي حقق فيها الجزء المتعلق بوصف الهند وما يجاورها من البلاد من كتاب «نزهة المشتاق» للشريف الإدريسي التي نال بها درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد (وقد طبعت في جامعة عليكرة عام ١٩٥٤م) .

وكتاب «الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين» في مجمله كتاب جيد ، وفيه دراسة تحليلية للإضافات العربية في فروع الجغرافية المختلفة . ويسد هذا الكتاب فراغا في مجال الدراسات المتعلقة بالفكر الجغرافي العربي ، ولكنه كأي عمل علمي يعتمد فيه صاحبه على مصادر مكتوبة بلغة غير لغته ، يكون من الصعب عليه أن يلم بجميع المصادر المكتوبة بتلك اللغة ، ومن ثم تبدو بعض أحكامه قاصرة ، نتيجة نقص مصادره .

وقد وقع المؤلف في نقله لبعض النصوص العربية إلى الإنجليزية في بعض الهنات ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في الفصل التاسع حينما أورد نص مسعر بن المهلهل عن قبائل الخرخيز ، فقد ذكر مسعر أن هذه القبائل تتطير بالمريخ ، فترجم المؤلف ذلك بأنهم يتنبأون بالمستقبل بواسطة المريخ ، آخذا بأصل الكلمة عند العرب وهو الطائر بمعنى الحظ أو البخت ، بينما المقصود بالتطير هنا التشاؤم (راجع لسان العرب ، مادة طير) .

وقد ترجم هذا الكتاب ، ونشرته الجمعية الجغرافية الكويتية عام ١٩٨٠م ، وحاول المترجمان من خلال الهوامش والتعليقات تلافي بعض ما يمكن أن يشوب هذه الدراسة القيمة .

وقد انتظرنا طويلا في بلادنا العربية حتى صدر كتاب على مستوى الأعمال السابقة أهمية وإحاطة بالموضوع وهو كتاب «تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس» لأستاذنا المرحوم الدكتور حسين مؤنس ، والكتاب

من منشورات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد الذي كان يديره الدكتور مؤنس ، وقد صدر عام ١٩٦٧م ، وهو يعتمد على تجميع مجهد لما نقل عن المؤلفات الأولى في المراجع التي توصل إليها ، ويعدّ استكمالا للجهد الذي قام به كراتشكوفسكي وتفصيلا قيما لأعمال الجغرافيين الأندلسيين أو المواد الجغرافية المتصلة بجزيرة الأندلس . وتأتي دراسة مؤنس هذه على قمة ما قدمه في أثناء حياته العلمية .

يقول مؤنس في مقدمته للكتاب : «وقد اخترت الجغرافية إذ هي توأم التاريخ في طبيعتها وتاريخها ، ثم لي إليها مداخل ، وبها اتصال بحكم العمل في التاريخ . .»[١] . ويأتي إبداعه لهذا الكتاب نتيجة حبه لأعمال الجغرافيين الذين قدموا مادة مهمة للمؤرخين ، وكان مغرما برحلات ابن بطوطة وما تحويه من أحداث ومعلومات ، ومازلت أعجب من التفاتاته لبعض الجوانب الجغرافية والتاريخية التي قد تفوت الكثير من الباحثين ، وقد سمعت منه – رحمه الله– أحاديث ممتعة حول هذا الموضوع[٢] .

وإذا كان من أمر يجعلنا لا نعتمد على كل من كراتشكوفسكي والدكتور حسين مؤنس اعتمادا كاملا في حصر المؤلفات الجغرافية التي نحن بصددها فهو ميلهما إلى عدم وجود حد فاصل واضح بين المؤرخ

(١) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين، مدريد ١٩٦٧م، ص (ب).
(٢) كنت على صلة وثيقة بالدكتور حسين مؤنس حينما كان يدرِّس بقسم التاريخ بجامعة الكويت واستمرت تلك الصلة بعد عودته إلى القاهرة، ومن حسن الحظ أنه نشر دراسته عن ابن بطوطة وتضمنت معظم أفكاره التي استمعت إليها منه، وكان ذلك تحت عنوان: «ابن بطوطة ورحلاته، تحقيق ودراسة وتحليل». دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

والجغرافي[1] . بل ذهب مؤنس إلى أبعد من ذلك حينما قال : «إن من العسير أن نفصل بين المؤرخ والجغرافي والأديب في تاريخ الفكر الجغرافي ، ولو تناولنا كتابا أدبيا صرفا (مثل البيان والتبيين للجاحظ) ودرسناه دراسة تدقيق ، لاستخرجنا منه من المعلومات التاريخية الصرفة والملاحظات الجغرافية الخالصة ما يضع أبا عثمان بن بحر في صفوف المؤرخين والجغرافيين»[2] .

وهذا الأمر يحتاج منا إلى التوقف والتأني قبل إصدار مثل هذا الحكم ، فنحن لا نستطيع أن نقيم أية علاقة بين الجغرافيا وأي علم آخر عند الاصطخري وابن حوقل والمقدسي والإدريسي وابن سعيد المغربي وأبي الفداء صاحب حماة وغيرهم كثير ؛ فميدان علم البلدان واضح ومميز منذ القرن الثالث الهجري . وإذا ما وجدنا كتابا يحتوي معلومات جغرافية وتاريخية مثل كتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري فينبغي لنا أن يكون حكمنا في هذا هو بناء الكتاب وهيكله العام ؛ فالمعلومات التاريخية رغم استفاضتها في كتاب البكري تأتي عرضا ، وإذا ما انتزعنا تلك المعلومات يظل بناء الكتاب متكاملا غير مختل . وهناك أمثلة كثيرة تبين أن هناك فاصلا واضحا بين علمي الجغرافية والتاريخ رغم وجود ذلك التداخل الذي نجده في الكتب العربية القديمة ، ومن ثم فإن وجود معلومات جغرافية مهمة في كتب الأدب أو اللغة أو التاريخ لا يعني أن نضع تلك الكتب في عداد كتب الجغرافية ، كما بينا في بداية هذا التمهيد .

---

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣٦. (ط. دار الغرب: ص ٤١).
(٢) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص ٢.

ولابد من الإشارة إلى أن أندريه ميكيل في مقدمة كتابه «جغرافية دار الإسلام البشرية» قد انشغل بهذا الأمر ، وطرح سؤالين مهمين أولهما : من هم الذين يجوز أن نطلق عليهم اسم الجغرافيين؟ وأين يمكن العثور على المادة الجغرافية في مجمل الإنتاج الثقافي العربي؟ والسؤال الثاني : ما تعريف الجغرافية ، وما أقسامها الأساسية؟(١) .

ورغم هذه الالتفاتة من ميكيل فإنه لم يلتزم بالمصادر الجغرافية الخالصة ولعل طبيعة الموضوع هي التي فرضت ذلك عليه .

ولا يعني ما قدمته من ملحوظات حول صلة الجغرافيا بعلم التاريخ أو غيره من العلوم في الحضارة العربية الإسلامية أن نغض الطرف عن تلك الفوائد الجغرافية المهمة التي قد نجدها في كتب غير جغرافية .

فلا يخفى على المرء المشتغل بالتراث العربي تداخل المعارف العربية واتصال بعضها ببعض نتيجة التكوين الموسوعي الذي كان عليه علماء العرب قديما ، فعلى سبيل المثال قد نجد من النصوص الجغرافية المهمة في كتاب يختص باللغة والتصريف ، ما لا نجده أحيانا في كتب المعجمات الجغرافية العربية ، ففي كتاب الإمام الصغاني : «ما بنته العرب على فعال» ، نجد نصا عن (ظفار) القريبة من صنعاء يوازي في القيمة ما جاء في المعجمات الجغرافية القديمة عن هذا الموضع(٢) . كما أننا نجد في كتب النبات والحيوان

---

(١) أندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية، ترجمة إبراهيم خوري، دمشق ١٩٨٣م، الجزء الأول، القسم الأول ص ٨، ٩.

(٢) الصغاني، الحسن بن محمد: ما بنته العرب على فعال، تحقيق الدكتور عزة حسن، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٤م، ص ٤٠، ٤١.

مادة جغرافية لها قيمتها الكبيرة ، غير أننا لا نستطع تصنيف كتب النبات التي وضعها الأصمعي أو الدينوري أو ابن خالويه ضمن كتب الجغرافيا ، ومثل ذلك يمكن أن يقال أيضا عن كتاب الحيوان للجاحظ الذي يضم بين دفتيه معارف جغرافية متعددة هي مصدر مهم للجغرافي الذي يريد الإلمام بالأفكار الجغرافية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري . ولو أننا وضعنا الكتب المذكورة ضمن الحقل الجغرافي لكان علينا أيضا أن نعد معظم شعراء الجاهلية من الجغرافيين لأنهم ضمنوا قصائدهم الحديث عن الأطلال والمعالم الجغرافية المختلفة إضافة إلى وصفهم الدقيق لظاهرات طبيعية متعددة ترتبط ارتباطا وثيقا بالجغرافيا .

ثانيا- الحاجة إلى إعادة نشر الكتب التي تم تحقيقها في القرنين الماضيين :

مضى نحو قرن من الزمان أو أكثر على تحقيق جانب مهم من تراثنا الجغرافي ونشره على أيدي رينو ودي سلان ووستنفلد ودي خويه وغيرهم ، ومع ذلك فإن أكثر الدراسات والكتب الجغرافية العربية التي تم نشرها حديثا تعتمد بشكل أساسي على تلك الأعمال التي قام بها أولئك المستعربون الكبار ، فالمكتبة الجغرافية العربية التي نشرها دي خويه بين عامي ١٨٧٠م و١٨٩٤م ، والتي تضم تسعة من كتب البلدان العربية الأساسية تم تصويرها ونشرها في البلاد العربية بعد نحو قرن من نشرها في أوربا ، ولم يتم النظر في إعادة تحقيقها سوى أربعة كتب من الكتب التسعة المذكورة ، ويصدق ذلك أيضا على عديد من كتب الجغرافيا الإقليمية والمعجمات الجغرافية وكتب الرحلات والعجائب ، ومثال على ذلك كتاب تقويم البلدان لأبي

الفداء ، الذي نال حظا كبيرا من النشر والتحقيق والترجمة في أوربا ، ومع ذلك لا نجد له حتى الآن طبعة اضطلع بها محقق عربي ، ومازالت الطبعة التي نشرها رينو ودي سلان عام ١٨٤٠م في باريس هي المعتمد الأساسي لذلك الكتاب رغم اكتشاف عشرات النسخ من مخطوطات ذلك الكتاب القيم ، هذه التي يمكن أن يضيف الاطلاع عليها واستخدامها في التحقيق فوائد كبيرة ، فضلا عن الدراسات والبحوث النقدية المهمة التي كتبت عن ذلك الكتاب ، والتي تضيف بعدا آخر ييسر عمل التحقيق والبحث في مضمون الكتاب ونصوصه المختلفة . والأمر نفسه يمكن أن يقال عن كتابي «معجم ما استعجم» للبكري و«معجم البلدان» لياقوت الحموي ؛ فالكتاب الأول -على سبيل المثال- أصدره وستنفلد بجوتنجن بألمانيا بين عامي ١٨٧٠م و١٨٧٧م معتمدا على عدة نسخ مخطوطة محفوظة في مكتبات كامبردج ولندن وليدن وميلانو ، ثم نشره الأستاذ مصطفى السقا في أربعة مجلدات بالقاهرة بين عامي ١٩٤٥م و١٩٥١م معتمدا على طبعة وستنفلد إضافة إلى النسخ التي عثر عليها في مكتبات مصر .

ولا تزال هناك نسخ كثيرة من مخطوطات هذا المعجم في مكتبات العالم لم يرجع إليها وستنفلد والسقا ، ومنها النسخ الموجودة في مكتبات المغرب ، كما أن من أقدم النسخ التي وصلتنا من كتاب البكري النسخة المخطوطة في المكتبة الأزهرية بالقاهرة (مخطوطة رقم ٢٦٢) وهي نسخة غير كاملة ، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ٥٩٦هـ ، وتقع في جزأين : الجزء الأول مبتور من أوله ويبتدئ مع بداية صفحة ١٣٢ من طبعة السقا ، وينتهي بآخر الجزء

الأول ، أما الجزء الثاني فهو موافق للجزء الثاني المطبوع ، والنسخة بخط أندلسي جميل .

وقد أشار مصطفى السقا إلى هذه النسخة وذكر أنها : «في الغاية من الصحة والضبط والوضوح ، ولو كانت كاملة لفاقت جميع الأصول الموجودة من هذا الكتاب ، وأن على هامشها ما يفيد أنها قوبلت على أصل بخط المؤلف» .

وتكلم السقا عن التعليقات التي تحفل بها هوامش هذه النسخة ، ولكنه -مع الأسف- لم يستفد من هذه التعليقات والهوامش فأغفلها تماما في نشرته ، مع أنها تحتوي زيادات وتصويبات كثيرة أهمها تلك التعليقات المنقولة عن كتاب «النوادر» لأبي علي الهجري ، وهناك تعليقات أخرى أقل أهمية عن أبي حاتم وابن دريد وابن هشام وأبي الفرج الأصفهاني وغيرهم .

وبدراسة الحواشي المنقولة عن أبي علي الهجري ، وهي أكثر من ثمانين تعليقا وجدت أن معظم تلك التعليقات عبارة عن مواضع جديدة مضافة إلى الكتاب .

أما «معجم البلدان» لياقوت الحموي ، فقد تيسر في الوقت الراهن أمر الحصول على عشرات النسخ القديمة الموثقة التي لم يكن في مقدور وستنفلد الاطلاع عليها وقت نشره للمعجم في القرن الماضي . ولابد أن بعضها يتضمن إضافات وتصحيحات لطبعاته المتعددة المتمثلة في نشرة وستنفلد في ليبزج ١٨٦٦م ، ونشرة أمين الخانجي في القاهرة ١٣٢٣هـ ونشرة دار صادر

في بيروت ، وبجانب النسخ المخطوطة صدرت خلال العقود الأخيرة عشرات من كتب التراث العربي في مجالات الأدب والشعر والتاريخ والتراجم والجغرافيا ، وكثير منها يعد من المصادر التي اعتمد عليها ياقوت ، وهي سند مهم للمشتغل بتحقيق الكتاب .

ويدرك الحاجة إلى طبعة جديدة لكل من معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت الحموي كل مطلع -عن قرب- على الحواشي والتعليقات القيمة التي سجلت على نسخة أستاذنا محمود محمد شاكر -رحمه الله- من المعجمين المذكورين . وكذلك الاستدراكات التاريخية والجغرافية المهمة التي كتبها أستاذنا الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- على مدى ما يزيد على نصف قرن من الزمان ، سواء فيما كتبه من بحوث وتعليقات في المجلات العلمية المختلفة وعلى رأسها مجلته القيمة «العرب» ، أو فيما حققه من كتب تتصل بجغرافية الجزيرة العربية وتاريخها وآدابها . وقد عزز كل ذلك بدراسات ميدانية واسعة لغرض تحديد الأماكن المذكورة في المعجمين والتحقق من مواضعها .

ثالثا- إعادة النظر في الكتب التي تم تحقيقها خلال العقدين الأخيرين :

راجت في العقدين الأخيرين سوق التراث العربي رواجا كبيرا ، وكثر المحققون الذين لا يمتلكون من أدوات التحقيق وفنونه شيئا ، فعبثوا بالتراث العربي ، وأساؤوا إلى نصوصه إساءة بالغة . وساعدهم على ذلك تساهل بعض أساتذة الجامعات الذين لم يقدروا المسؤولية في إشرافهم على الرسائل

التي تتضمن تحقيق النصوص القديمة ، وسطا البعض على أعمال الآخرين فانتحلوها ونسبوها إلى أنفسهم دون وجه حق .

ولم يكن ذلك مقصورا على البلاد العربية ، بل تعداه إلى عديد من الرسائل العلمية التي نوقشت في بعض الجامعات الأوربية . ونال الجغرافيا جانب من ذلك العبث ، فكانت النصوص المنشورة لا يراعى فيها الاهتمام بتصحيح أسماء المواضع وبيان أماكنها ، مع الإبقاء على النص كما هو دون تعليق أو تصحيح أو تحليل أو ربط مع النصوص السابقة أو اللاحقة عليه لاستجلاء قيمته وبيان مكانة الكاتب ودرجته . وسنضرب مثالا واحدا على ذلك وهو رسالة نال عنها صاحبها درجة الدكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة باريس - الثالثة (السربون الجديدة) في عام ١٩٧٥م تحت إشراف الدكتور أندريه ميكيل وهو أستاذ معروف ومشهود له بالخبرة في مجال تحقيق التراث الجغرافي العربي ونشره وترجمته إلى اللغة الفرنسية . وصاحب العمل هو أدريان فان ليوفن(A.P. Van Leewen) الذي أعد لرسالته المذكورة نص كتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري ، وأنجزه في ثلاثة مجلدات تتضمن النص باللغة العربية وفهارس تفصيلية مع مقدمة باللغة الفرنسية عن حياة الرجل وعصره ومصادره ، ثم طبعت هذه الرسالة بحذافيرها بتوصية من وزارة الثقافة التونسية في عام ١٩٩٢م ، ونشرتها المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات «بيت الحكمة» بالتعاون مع الدار العربية للكتاب . والغريب أن ليوفن قد أدخل معه شخصا آخر أشركه في أعمال التحقيق والفهرسة رغم أن ما نشر

لا يختلف عن أصل الرسالة التي قدمها -بطبيعة الحال منفردا- ولم أجد تفسيرا لذلك .

وقد ارتكب ليوفن أخطاء فاحشة في تحقيق نص كتاب البكري ، أولها- أنه لم يرجع إلى ثلاث نسخ مخطوطة مهمة من الكتاب ، هي نسخة مكتبة محمد المنوني بالرباط التي يرجع تاريخ نسخها إلى القرن السادس الهجري ، فهي من أقدم النسخ وأوثقها ، ولم يرجع أيضا إلى نسخة الخزانة العامة بالرباط رقم (٧٨٧د) ، ولا إلى نسخة المكتبة الناصرية بلكهنو بالهند رقم ٥٩ . وثانيها- أن أسماء المواضع جاءت مصحفة دون تنبيه أو إشارة أو تعليق لبيان وجه الصواب في النص ، وهذه أقل خدمة يمكن أن يقوم بها ، وقد اكتفى ليوفن بالإشارة إلى فروق النسخ دون استقصاء .

ونضرب فيما يلي مثالا للتصحيفات الشنيعة التي وقع فيها ليوفن عند ذكره لنص البكري المتعلق بمنازل الطريق من البصرة إلى مكة ، الوارد في ص ٣٨١ من الجزء الأول من كتاب المسالك والممالك المطبوع في تونس :

السحابية = الصواب المنجشانية	الحفيرة = الصواب الحفير
السنجك = الصواب الشجي	الروحاء = الصواب الخرجاء
السرعة = الصواب الينسوعة	السمية = الصواب السمينة
الساج = الصواب النباج	حويلة = الصواب جديلة
ملحة = الصواب فلجة	السكة = الصواب الشبيكة
مدان = الصواب مران	

إن من بين ٢٤ منزلا من منازل طريق البصرة إلى مكة لم يقم المحقق بالإشارة إلى أي تصحيف من التصحيفات الواردة في أسماء نحو أحد عشر منزلا منها ، ولم يتنبه أيضا إلى أسماء أربعة منازل سقطت من نصه وهي موجودة في أحد أصول الكتاب فضلا عن المصادر الأخرى ، ولو كلف المحقق نفسه عناء النظر في أي كتاب من كتب المسالك والممالك ، وهي متاحة ومبذولة ، لاستطاع أن يتحقق من سلامة النص .

وإذا كان هذا حالنا مع نحو عشرة أسطر من كتاب واحد فكيف يمكن أن نثق في بقيته؟ وأين لنا بالوقت الذي نتتبع فيه أعمال المحققين ونستدرك عليهم أخطاءهم وما ارتكبوه من جرم بحق نصوص التراث العربي؟

ومع الأسف الشديد فقد حدثت مثل هذه الأخطاء في الطبعة الجديدة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي التي أعدها المعهد الإيطالي للشرق الأدنى والأقصى بروما ، والتي قام بإعدادها نفر من العلماء من مختلف أنحاء العالم ، وصدرت بين عامي ١٩٧٠م ، ١٩٨٤م ، ثم أعيد طبعها في بيروت عام ١٩٨٩م .

ففي (ص ١٦٠) من طبعة روما ذكر للطريق من اليمامة إلى مكة ، وهو طريق يتصل بطريق البصرة إلى مكة الذي ذكرناه قبل قليل عند منزل القريتين قبل أن يتجه إلى مكة ، وقد وردت في أسماء منازل هذا الجزء من الطريق التصحيفات التالية :

«طقجة» والصواب (طخفة) ، و«صربه» والصواب (ضرية) ، و«قلجة» والصواب (فلجة) ، و«الرقيبة» والصواب (الدثينة) .

رابعا- مشاركة الجغرافي المختص في تحقيق النصوص الجغرافية وتحليلها :

إن معظم الكتب الجغرافية العربية التي نشرت حتى الآن ، سواء في أوربا أو في البلاد العربية ، قام بتحقيقها ونشرها علماء غير جغرافيين من لغويين ومؤرخين وغيرهم ، وهؤلاء قد يسروا السبيل أمام الجغرافي ، ووفروا عليه بعض الجهود التي كان عليه أن يبذلها في جمع ذلك التراث وتحقيقه ، ولكن أعمالهم تفتقر إلى ثقافة الجغرافي ومنهجه في البحث والتحليل ، ولهذا وقع عدد من المحققين في بعض الهفوات سواء في قراءة النصوص أو في التعليق عليها ، وسنعرض لمثالين على ذلك :

١- جاء في الطبعة التي أصدرها كل من إبراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمر من كتاب «فضائل مصر» لعمر بن محمد بن يوسف الكندي (القاهرة ١٩٧١م ، ص ٦٠) : « . . . وسد الترع ، وقطع القضب ، والخَلْفاء ، وكل نبت مضر بالأرض» وجاء في حواشي التحقيق : «القضب كل شجرة طالت وبسطت أغصانها» . ومع أن ما ذكر هو صفة القضب في كتب النبات ، فإن الصواب القصب بالصاد المهملة والحلفاء بالحاء المهملة أيضا ، وهما من النباتات المضرة التي تسد الترع والمصارف .

٢- وفي رحلة أحمد بن فضلان جاء ذكر شجر في بلاد الصقالبة «مفرط الطول وساقه أجرد من الورق ، ورؤوسه كرؤوس النخل له خوص دقاق ، إلا أنه مجتمع ، يجيئون إلى موضع يعرفونه من ساقه ، فيثقبونه ويجعلون تحته إناء فيجري إليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل إن أكثر الإنسان منه أسكره كما يسكر الخمر» .

وفي حواشي التحقيق يقول المحقق الدكتور سامي الدهان ، وهو عالم فاضل : «لعله -أي ابن فضلان- يعني بهذا الشجر قصب السكر» . وهذا وَهْمٌ من المحقق ؛ فقصب السكر -كما هو معروف- لا ينمو في المناطق الباردة التي وصلها ابن فضلان ، كما أن صفة الشجر المذكور تختلف عن صفة قصب السكر الذي لا يفرز ماءه عند ثقبه بل يحتاج إلى عصر شديد ليَخرُج ماؤه (رسالة ابن فضلان تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٩م ، ص ١٢٩) .

وبجانب الثقافة العامة التي يقدمها الجغرافي المختص ، فإن له منهجه في فحص النصوص وتحليلها والتأكد منها ، ومن وسائله في ذلك الدراسة الميدانية التي تتيح له التعرف عن قرب على الإقليم أو المنطقة التي يتحدث عنها المؤلف ، والتوصل إلى مواضع العمران القديم عن طريق البحث في معطيات المكان الجغرافية ، والربط بين الطرق وطبوغرافية المنطقة محل البحث ، والخروج من كل ذلك بخرائط تفصيلية تثري النص المحقق وتضفي عليه مزيدا من الوضوح .

وفي اعتقادي أن النجاح الذي حققه بعض المحققين الذين لم يكونوا مؤهلين بدرجة علمية جغرافية ، يعود إلى استخدامهم هذه الوسائل في الكتب التي حققوها أو في البحوث المعتمدة على النصوص الجغرافية القديمة . ولنا في ذلك أمثلة واضحة ؛ فأستاذنا الشيخ حمد الجاسر أمدته دراساته الميدانية بفيض من المعلومات التي أعانته -بجانب ثقافته الموسوعية- على تحقيق النصوص ؛ واقترن عمله باستخدام الخرائط كوسيلة لا غنى عنها

من وسائل البحث أو التوضيح ، وقد أصبح الشيخ حمد بذلك رائدا في توظيف المعرفة الجغرافية في أعمال التحقيق .

ومن ناحية أخرى لم يكن في مقدور الإنجليزي لي سترنج (G. Le Strange) أن يصل إلى النتيجة الرائعة التي توافرت في كتابه «بلدان الخلافة الشرقية» لولا اتباعه المنهج الجغرافي في البحث ، ويقال ذلك أيضا عن العمل الكبير الذي بذله المؤرخ الروسي بارتولد (V. V. Bartold) في كتابه «تاريخ تركستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو المغولي» ، والكتابان المذكوران يعتمدان بشكل أساسي على المصادر العربية القديمة ، ويقدمان صورة رائعة للجغرافيا التاريخية لمشرق العالم الإسلامي بالاعتماد على البحث الميداني وتحليل المصورات والخرائط الجغرافية .

وأمر آخر يستفاد من مشاركة الجغرافي المختص ، في تحقيق النصوص الجغرافية وتحليلها ، وهو القدرة على اقتناص المصطلح الجغرافي المستعمل في الكتابات القديمة ، والعمل على استخدامه في الدراسات المعاصرة . فالمشكلة التي يواجهها كل من يقدم على البحث أو التعريب في العلوم الحديثة ، والمتمثلة في صعوبة العثور على المقابل العربي للمصطلح الأجنبي ، ليست دائما مشكلة اللغة ، بل هي أيضا مشكلة الباحث العربي الذي انبتَّتْ صلته بتراثه القديم الثري بالمصطلحات ، فأصبح يكتب اللفظ الأجنبي حرفيا ، أو يقوم بتعريب المعنى بأكثر من كلمة ، غافلا عن ذلك الفيض من المصطلحات التي تحفل بها المصادر الجغرافية القديمة ، في ميدان الجغرافية المناخية وأشكال سطح الأرض والجغرافية البشرية وغيرها .

خامسا- تحقيق الخرائط العربية :

يبخس كثير من الباحثين الخرائط العربية حقها باعتبارها فنا لم يحرز فيه العرب نجاحا كبيرا . ورغم الجهود الطيبة التي بذلها نفر من الباحثين مثل كونراد ميللر ويوسف كمال ، حتى يجعلوا في إمكاننا الوصول إلى تقدير سليم لفن الخرائط عند العرب ، فإن عددا قليلا فقط من الأصول التي خلّفها صناع الخرائط العربية ومن الصور المنقولة عن تلك الأصول قد وصل إلى متناول أيدينا .

وقد كان تقدم الخرائط العربية متوافقا مع تطور الجغرافيا الإقليمية عند العرب . وقد كان هناك منهجان واضحان في هذا الميدان ، أولهما المنهج الإقليمي الفلكي المتأثر باليونان ، وثانيهما المنهج الإقليمي الوصفي وهو منهج عربي خالص ، وفي كل منهج من هذين المنهجين ساد صنف من الخرائط له ميزاته وسماته الخاصة .

(١) المنهج الإقليمي الفلكي (المدرسة اليونانية) :

وجدت أفكار الجغرافيين الإغريق والرومان السبيل إلى الكتابات العربية بعد أن وضعت أكثر من ترجمة لكتابي بطلميوس «الجغرافيا» و«المجسطي» . وكان اليونان والرومان يقسمون المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم في صورة نطاقات تمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب بدءا من خط عرض ١٦° جنوبا وهو بداية الإقليم الأول إلى حوالي خط عرض ٦٣° شمالا وهو ما وراء الإقليم السابع .

ويعد محمد بن موسى الخوارزمي أول من تأثر بهذا المنهج ، وكان عنوان كتابه (صورة الأرض) هو الترجمة الشائعة لكلمة «الجغرافيا» ، ومع ذلك فلم يكن كتابه ترجمة لكتاب بطلميوس ، ولكنه ترتيب لمادة بطلميوس مع إضافات واسعة في ميدان الجغرافية العربية .

وقد كان كتاب الخوارزمي هذا جزءا من عمل كبير تم في عهد المأمون الذي جند العديد من العلماء والحكماء الذين نظروا في كتب اليونان وبحوثهم وامتحنوا تقديرهم لدرجات العرض ، ثم وضعوا الجداول المعروفة بالزيج المأموني الممتحن ، الذي وضعت في ضوئه الصورة المأمونية أو «الخريطةالمأمونية» ، وهي أول خريطة عربية صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه ، وبره وبحره ، وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك . وفضَّل المسعودي هذه الخريطة على الخرائط السابقة بقوله «وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية بطلميوس وجغرافيا مارينوس وغيرهما» .

وقد اختفت خريطة المأمون منذ عدة قرون ، وآخر إشارة إليها هي إشارة أبي عبدالله الزهري المتوفى في منتصف القرن السادس الهجري في كتابه الجعرافيا -بالعين المهملة . ويبدو من نصوص كتاب الزهري أن الخريطة التي تكلم عنها هي خريطة مستديرة ملونة ، يحيط بها طوقان ، طوق أزرق يمثل البحر الموصوف ببحر الظلمات ، يتصل به من داخل الدائرة طوق آخر أخضر اللون ، وهو صفة البحر المحيط بالأرض وأجزائها المباشرة للتراب في جميع دورانها ، وهو الذي يتشعب منه جميع الأبحر .

ومع أن الصورة المذكورة لم تعد موجودة ، فقد استمر ذلك الأساس

العلمي وتطور في صورة مجموعة من الجداول الفلكية تبين المواقع الجغرافية المختلفة ، منها الزيج الصابي للبتاني الذي أمضى حياته يرصد الأجرام السماوية بالرقة ، وزيج ابن يونس في مصر ، والزرقالي في الأندلس وغيرهم . وهذه الجداول ، وإن لم تصاحبها خرائط تبين المواقع المذكورة فيها ، فإنه يمكن تحويلها إلى خرائط ، إذا ما تم الاعتماد على نسخ موثوقة .

وأهم جهد عربي ضمن المنهج الإقليمي الفلكي الذي يتبع المدرسة اليونانية هو كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للشريف الإدريسي الذي وضعه بناء على طلب الملك روجار ، وهو يقسم الأرض إلى سبعة أقاليم عرضية ، ويقسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء ، كل جزء له خريطة مستقلة ، يلحقها ثلاث خرائط : واحدة تضم صورة العالم ، وواحدة تشتمل على ما وراء الإقليم الأول ، وأخرى تشتمل على ما وراء الإقليم السابع ؛ فالمجموع ثلاث وسبعون خريطة .

وقد كرر الإدريسي هذا العمل في كتابه الصغير «أنس المهج وروض الفرج» الذي ألفه للملك غليوم الثاني .

ويبدو من ملاحظة هذه الخرائط أن الإدريسي قد التزم -إلى حد ما- بمقياس رسم محدد التزمه في الأجزاء المختلفة التي تتألف منها الأقاليم ، ولولا ذلك لما استطاع كونراد ميللر أن يجمع هذه الأجزاء ويؤلف منها خريطة واحدة ، كما أن الإدريسي قام باستخدام الألوان للدلالة على ظاهرات بعينها ، فاستخدم اللون البني للجبال ، واللون الأزرق للبحار ، وجعل الأنهار باللون الأخضر وهكذا ، يضاف إلى ذلك أنه قام بتتبع

تعاريج الساحل وتقديم صورة طبق الأصل لكل جزء من أجزاء الأقاليم التي أوردها .

٢- المنهج الإقليمي الوصفي (المدرسة العربية) :

ويتمثل هذا المنهج في أعمال مجموعة من أعمال الجغرافيين العرب بدءا من القرن الثالث الهجري أبرزهم الإصطخري وابن حوقل والمقدسي ، واختلف تقسيم هؤلاء للمعمور عن أتباع المنهج اليوناني ، فالإقليم عندهم منطقة متجانسة لها خصائصها الطبيعية والبشرية . وقد احتوت كتب هذه المدرسة على إحدى وعشرين خارطة تمثل الأقاليم المذكورة ، تتوالى على النحو التالي : أولها خارطة العالم المستديرة ، تليها خارطات جزيرة العرب وبحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم ، ثم أربع عشرة خارطة تمثل الأجزاء الوسطى والشرقية للعالم الإسلامي (الجزيرة والعراق وخوزستان وفارس وكرمان والسند وأرمينيا ومعها الران وأذربيجان أيضا ، والجبال وجيلان ومعها طبرستان ، وبحر الخزر وصحراء فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر) .

ومن الواضح أن نظام توزيع الخارطات وأشكالها لا يشير إلى أية علاقة بينها وبين المنهج اليوناني في الدراسة الإقليمية ؛ فلفظ الإقليم هنا مرتبط بالمنطقة الجغرافية التي تصورها الخارطة . والخارطات هنا مستقلة كل واحدة عن الأخرى ولا يمكن وصلها بعضها ببعض لتكوين خارطة شاملة للعالم ، وهي خرائط توضيحية (كروكية) استخدمت الخطوط المستقيمة والهندسية في رسم سواحل البحار والأنهار . فنحن هنا أمام منهج مختلف تماما عن المنهج

السابق . وهذا الأسلوب لا يعد قصورا في فن رسم الخرائط بل هو وسيلة توضيحية متبعة إلى وقتنا الحاضر تتبع أحيانا في التدريس ، وأحيانا أخرى للتركيز على ظاهرات بعينها دون النظر إلى التفصيلات غير المرغوب فيها .

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره هناك خرائط أخرى وردت في عدد من كتب الجغرافية العربية التي لا تنتمي إلى المدرستين المذكورتين ، مثل خريطة العالم الواردة في كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردي ، وخارطتي تنيس وقزوين في كتاب آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ، وخارطة النيل في كتابي نيل الرائد في النيل الزائد لأحمد بن محمد الحجازي ومبدأ النيل لجلال الدين السيوطي ، وغير ذلك مما تحفل به كتب الجغرافيا العربية .

وإذا ما أردنا أن نقيم تلك الجهود فلابد من التأكيد على أن معظم أصول تلك الخرائط لم تصل إلينا ، فلم نعثر على أثر لأصول خرائط الخوارزمي الذي شارك في وضع خريطة المأمون ، ولا توجد الأصول الأولى لكتب الإصطخري وابن حوقل والمقدسي ، كما أن خرائط الإدريسي الموجودة بين أيدينا لا يسبق تاريخها القرن الثامن الهجري ، أي أنها رسمت بعد ما يزيد على قرنين من وضع الإدريسي لكتابه .

وكان موقف النساخ من المادة المرسومة يتراوح بين إغفال رسم الخرائط في المتون الجغرافية أو ترك مكانها خاليا أو النقل غير الدقيق للخرائط ، والذي يأخذ في الابتعاد عن الأصل الصحيح مع كل نسخة جديدة ، ولهذا وجدنا ذلك التفاوت الواضح في الخرائط بين نسخ الكتاب الواحد ، كما هو الأمر بالنسبة إلى خرائط كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، أو أنس المهج

وروض الفرج للشريف الإدريسي . كما أن النساخ مسؤولون أيضا عن اختلاف خرائط الإصطخري ، من حيث الشكل ، في نسخ الكتاب التي بين أيدينا في الوقت الحاضر ، فالبحر المتوسط أو بحر الروم يظهر تارة في شكل كروي ، وفي أخرى بيضاوي ، وثالثة في شكل مستدير ، وهكذا .

ولم يكن موقف النساخ أشد سوءا من موقف المحققين المعاصرين ، فأغلبهم أغفل قيمة الخرائط ، باعتبارها جزءا مكملا للنص الجغرافي ، فلم يكلف نفسه عناء قراءة الخريطة ، والربط بينها وبين النصوص المرتبطة بها ، والتحقق من أسماء المواضع والأنهار والجبال والبحار التي تضمها ، والعمل على وضع صور الخرائط الموجودة في النسخ الأخرى من الكتاب ، لأن إيرادها يحقق بيان فروق النسخ التي يفترض في المحقق أن يثبتها كجزء من عملية التحقيق . كما أن معظم كتب الجغرافيا العربية المحققة قد أوردت الخرائط باللونين الأبيض والأسود ، نجد هذا في تحقيق كتاب المسالك والممالك للإصطخري (القاهرة ١٩٦١م) وكتاب صورة الأرض لابن حوقل (طبعتا أوربا وبيروت) . وكتاب أنس المهج وروض الفرج في نسختيه اللتين نشرهما بالتصوير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت (١٩٨٤م) . ولا حاجة بنا إلى القول إن الألوان لها معانيها في الخرائط المذكورة وإغفالها يعد إغفالا لجزء من مادة تلك الخرائط .

وأخيرا فإن المحققين لا ينشرون الخرائط بحجمها الذي وردت عليه في المخطوط ، فيتركون أمر وضعها في الكتاب المحقق وفقا لأهواء المخرج ، فيكبر الصغير منها ، ويصغر الكبير ، وفقا لحجم الصفحة ومتطلبات الطباعة ، وهو أمر ينبغي لنا الاحتراس فيه ، لأن الحجم له دلالته ومقاصده .

وهذه الهفوات في نشر الخرائط في نصوص التراث الجغرافي من الممكن **أن تقل كثيرا إذا ما شارك الجغرافي في عملية نشر ذلك التراث ، وأسهم في تحليل تلك المادة التي تدخل في صلب اختصاصه .**

وبعد ، فإن البحث في مجال التراث الجغرافي العربي لا يزال قاصرا عن الإحاطة بكثير من خصائصه ومعطياته ، إذ لابد من دراسات متعمقة تتناول بعض الأفكار التي تمثل إضافات حقيقية إلى الفكر العلمي العالمي في هذا المجال ، وتصل به إلى الغايات المأمولة .

وأملي أن يكون في هذا البحث ما يفتح الطريق واسعا أمام الأجيال المعاصرة واللاحقة من الباحثين الجغرافيين المختصين في التراث الجغرافي العربي والإسلامي ، بما يكشف عن مزيد من عيون هذا التراث ، ويسدد مسار البحث والتحقيق في هذا المحيط الغني من تراثنا المجيد .

والله من وراء القصد يهدي السبيل



المصادر والمراجع

- **الإدريسي (محمد بن محمد)** : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، روما ١٩٧٧م ، عالم الكتب بيروت ١٩٨٩م .

- **الأزهري (محمد بن أحمد)** : تهذيب اللغة ، القاهرة ١٩٩٤م .

- **الإصطخري (إبراهيم بن محمد)** : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحيني ، القاهرة ١٩٦١م .

- **بارتولد** : تاريخ تركستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو المغولي ، الكويت ١٩٨١م .

- **البكري (أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز)** :

  - جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبدالله الغنيم ، الكويت ١٩٧٧م .

  - المسالك والممالك ، تحقيق أدريان ليوفن وأندري فيري ، تونس ١٩٩٢م .

  - معجم ما استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة (١٩٤٥م ـ ١٩٥١م) ومخطوطة المعجم بالمكتبة الأزهرية رقم ٢٦٢ .

- **ابن خرداذبة (عبيدالله بن عبدالله)** : المسالك والممالك ، تحقيق دي خويه ، المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ١٨٨٩م .

- **ابن رستة (أحمد بن عمر)** : الأعلاق النفيسة ، تحقيق دي خويه ، المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ١٨٩٢م .

- **الزهري (محمد بن أبي بكر)** : كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد الحاج صادق ، بيروت ١٩٦٥م .

- **الصياد (محمد محمود)** : المعجم الجغرافي ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ١٩٧٤م .

- **الغنيم (عبدالله يوسف)** :

  - مصادر البكري ومنهجه الجغرافي ، الطبعة الثالثة ، الكويت ١٩٩٨م .

- المخطوطات الجغرافية العربية في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج ، الكويت ١٩٩٩م .
- «استنباط المصطلحات العربية للأشكال الأرضية» المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة الكويت . المجلد ٣ ، العدد ١٢ ، ١٩٨٣م ، ص ص ١٣ ـ ٣٦ .

- **أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل)** : تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودي سلان ، باريس ١٩٤٨م .
- **ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس)** : رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٩م .
- **كراتشكوفسكي (أغناطيوس)** : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٧م .
- **الكندي (عمر بن محمد بن يوسف)** : فضائل مصر ، تحقيق إبراهيم أحمد العدوي ، وعلي محمد عمر ، القاهرة ١٩٧١م .
- **لي سترنج** : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٥٤م .
- **المقدسي (محمد بن أحمد)** : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي خويه ، المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ١٩٠٦م .
- **الهمداني (الحسن بن أحمد)** : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، بيروت ١٩٧٤م .
- **ياقوت الحموي** : معجم البلدان ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ١٨٦٦م .
- **يوسف توني** : معجم المصطلحات الجغرافية ، القاهرة ١٩٦٤م .

تبــادل اليــابــس والمــاء

الأصول اليونانية والإضافات العربية(*)

لم يظهر علم الجيمورفولوجيا كعلم متميز إلا في بدايات القرن التاسع عشر ، لكن الكثير من أفكاره الأساسية ذات أصل مبكر ، فقد بدأ التفكير في أصل أشكال سطح الأرض ونشأتها منذ أيام الفلاسفة القدماء . وتميز هذا العلم يكمن في اعتماده الأساسي على الملاحظة الحقلية أو الميدانية قبل أي شيء آخر ، بحيث لا يمكن تصنيف العاملين في هذا الفرع في باب الباحثين المكتبيين .

وأي دراسة في أسس البحث الجيمورفولوجي لابد أن يسبقها تعريف بجهود القدماء لنتعرف على إنجازاتهم في هذا الميدان ، وبخاصة أعمال العرب والمسلمين الذين لم تنل كتاباتهم التقدير الكافي عند الجغرافيين المحدثين ، وعلى هذا سيكون من أهداف هذا البحث إبراز الدور العربي في هذا المجال دون تحيز ، أما الإنجازات الحديثة في الجيمورفولوجية فقد كتب فيها العديد من الكتب والأبحاث الأجنبية والعربية ولهذا لم نتعرض لدور الباحثين في هذا المضمار على نحو مفصل .

(*) نشر أصل هذا البحث تحت عنوان «أسس البحث الجيمورفولوجي» ضمن سلسلة رسائل جغرافية التي تصدر عن قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، العدد ٢، الكويت يناير ١٩٧٩م.

ولقد تضمنت المعلومات التي وردتنا عن القدماء العديد من الأفكار عن أشكال سطح الأرض وتبادل اليابس والماء وأسباب حدوث الزلازل والبراكين والعيون وتكوين الجبال وغير ذلك من الظاهرات الجيمورفولوجية . ولو أننا تكلمنا في كل نقطة من هذه النقاط لاحتجنا إلى مجال أرحب من هذا البحث المتواضع ، ولهذا اقتصرنا على موضوع واحد منها ، يلقي مضمونه الضوء على عدد من موضوعات الدراسة ، هذا الموضوع هو فكرة تبادل اليابس والماء ، وقد تتبعنا هذه الفكرة عند الإغريق والعرب ثم بينا أثرها في الفكر الجغرافي الحديث من خلال النظريات التي أسهمت تلك الفكرة في ظهورها .

فكرة تبادل اليابس والماء

كانت فكرة طغيان الماء على اليابس وانحساره عنه ، خلال الأزمنة الجيولوجية المختلفة ، من الأفكار التي راودت علماء الإغريق منذ بدايات العصر الذهبي لليونان . ومن أوائل من قالوا بذلك «زينوفان القولوفوني» الذي عاش بين عامي ٥٧٠ و٤٧٠ ق .م وكانت مدينة قولوفون ، إحدى المدن الإيونية ، مسقط رأس زينوفان غير أنه هجرها بعد فتح قورش لها ، وأنفق بقية حياته متجولا مما أكسبه معرفة واسعة ببلاد حوض البحر المتوسط .

وأروع النصوص المنسوبة إليه في هذا الصدد قوله إنه كان يوجد امتزاج بين الأرض والبحر ، وأن ذلك الامتزاج أخذ في التحلل عن الرطوبة على مر الزمن . وأدلته على ذلك اكتشاف الأصداف البحرية وسط الأرض وفي الجبال ، ويضيف إلى ذلك أنه وجدت في محاجر سراقوسة آثار سمكة وعجول البحر ، وفي باروس وجد أثر سردينة في قاع حجر ، وفي مالطة أجزاء من جميع أنواع

الحيوانات البحرية . . ثم يقول «إن هذه الأشياء تولدت حين كانت جميع الأشياء في الأصل مطمورة في الطين ، وأن جميع البشر هلكوا حين اندفعت الأرض نحو البحر وتحولت إلى طين ثم ولد الكون مرة أخرى وحدث هذا التغيير لجميع العوالم» .

ويرى سارتون أننا على أساس هذا النص يمكن أن نسمي زينوفان أول جيولوجي وأول عالم بالحفريات(١) .

وذكر أرسطو أن سواحل البحر وأطراف اليابس القاري تحدث بها تغيرات هائلة على امتداد فترات زمنية طويلة ، وأحيانا تحدث التغييرات على إثر هطول أمطار غزيرة بالغة التطرف في مقدارها ، وهو يفترض على هذا الأساس أن التغيرات في سواحل اليونان نشأت عن ظاهرة الطوفان(٢) .

وقد ظن الدكتور شريف محمد شريف أن الإشارة إلى الطوفان في نص زينوفان ، الذي كرره أرسطو فيما بعد ، هي تلميح إلى الطوفان العظيم المنسوب في الأديان السماوية إلى سيدنا نوح (Noah's Flood) . ويبدو أن الأمر خلاف ذلك إذ يذهب القدماء إلى أن هناك طوفانات متعددة ناتجة عن دورات فلكية سيأتي تفصيلها بعد قليل .

ويرتبط بفكرة تبادل اليابس والماء بعض الآراء التي قيلت في ظاهرة الإطماء Silting . وأبرز من تكلم في هذا الموضوع هو المؤرخ اليوناني هيردوت الذي

---

(١) جورج سارتون: تاريخ العلم، ترجمة لفيف من العلماء، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣م، ص ٣٣٧.

(٢) شريف محمد شريف: تطور الفكر الجغرافي، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٢١٧.

عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، والذي قام برحلات واسعة في بلاد العراق ومصر والشام . وكانت أهم ملاحظة له في مصر تتضمنها عبارته الشهيرة «مصر هبة النيل» ، واستطاع أن يبرهن على هذا الرأي لكنه لم يستطع أن يعلل أسباب الفيضان السنوي تعليلا صحيحا . وقد أشار في ملاحظاته إلى رواسب الطمي السنوية والأصداف المتحجرة على التلال ، واستنتج منها أن هذه الأجزاء كانت فيما مضى مغمورة بمياه البحر ، وأن مصر السفلى (الدلتا) كانت في يوم من الأيام تحت الماء ، لكن النهر أخذ يجرف معه بعض الرواسب ، وهكذا نتأت الدلتا نحو البحر[١] . ودليل آخر قدمه هيردوت ليثبت أن أرض مصر أرض مكتسبة هو رواسب الطمي الموجودة في قاع الشواطئ الشمالية لمصر فيقول : «وهذه طبيعة أرض مصر ، عندما تبحر إليها لأول مرة ومازلت على مسيرة يوم من اليابسة فإنك ستخرج طميا إذا ألقيت بالمسبار على عمق أحد عشر باعا . وهذا يشير بجلاء إلى أن الطبقة الطمية تمتد إلى هذا الحد»[٢] .

وذهب هيردوت إلى أبعد من ذلك في بيان أثر الطمي النهري على ازدياد مساحة اليابسة حينما قدَّر أن النيل لو فرض وغير مجراه ليصب في البحر الأحمر لاستطاع أن يملأ ذلك البحر برواسبه . يقول هيردوت : «إذا ما قُدِّر للنهر أن يغير مجراه نحو الخليج العربي (البحر الأحمر) فماذا يمنعه -وهو يصب في الخليج- من أن ييبسه في عشرين ألف عام؟ إني شخصيا أظن أنه يستطيع ردم الخليج في عشرة آلاف عام . فكيف إذن في العصور التي مضت قبل ميلادي لم

(١) محمد صقر خفاجه: هيردوت يتحدث عن مصر، دار القلم بالقاهرة ١٩٦٦م، ص ٨٣، وأيضا جورج سارتون (مرجع سابق)، ص ١٩٧.
(٢) محمد صقر خفاجة. المرجع نفسه، ص ٧٥.

يقدر لنهر هائل ومخصب مثل هذا أن يُبس خليجا ولو كان أكبر من هذا الخليج؟»[1] .

ويتبين من النص السابق دراية القدماء بالبعد الزمني أو الوقت الطويل اللازم للعمليات الجيمورفولوجية ، ويتضح أيضا أن هيردوت قد اعتقد أن النيل كان ينتهي إلى خليج في شمال مصر ، وقام النهر بردم هذا الخليج بطميه ، وهو قوله «فكيف إذن في العصور التي مضت قبل ميلادي لم يقدر لنهر هائل ومخصب مثل هذا أن ييُبس خليجا ولو كان أكبر من هذا الخليج؟» .

وإذا ما انتقلنا إلى الفترة العربية نجد أن العرب قد استوعبوا كل ما جاء في التراث القديم وأضافوا إليه ، وقدموا بعض التطبيقات والأمثلة العملية على ذلك .

فقد نقل المسعودي (توفي ٣٤٦هـ)[2] عن صاحب كتاب المنطق «أن البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر حتى تصير في مواضع مختلفة ، وأن جملة البحار متحركة ، إلا أن تلك الحركة إذا أضيفت إلى جملة مياهها وسعة سطوحها وبعد قعورها صارت كأنها ساكنة ، وليست مواضع الأرض الرطبة أبدا رطبة ، ولا مواضع الأرض اليابسة أبدا يابسة ، لكنها تتغير وتستحيل ، لصب الأنهار إليها وانقطاعها عنها ، ولهذه العلة يستحيل موضع البحر وموضع البر ،

---

(١) المرجع السابق ص ٨٣، وقد أشار الدكتور شريف محمد شريف إلى قول هيردوت هذا فذكر «أن النيل لو فرض وتحول عن مجراه بحيث ينتهي إلى البحر الأحمر لاستطاع أن يملأ ذلك البحر برواسبه في أقل من مائتي ألف عام» وقد اعتمدنا على النص المترجم.

(٢) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي مؤرخ ورحالة جغرافي، ولد في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، ثم غادرها عام ٣٠١هـ في رحلة استغرقت عدة أعوام حيث زار بلاد فارس والهند والصين وسيلان (سريلانكا) ومدغشقر عند الساحل الشرقي لإفريقية، ثم زار عمان وأجزاء من الجزيرة العربية فبلاد الشام وفلسطين، ثم استقر بفسطاط مصر، حيث أتم كتابه «مروج الذهب» عام ٣٣٦هـ.

فليس موضع البر أبدا برا ولا موضع البحر أبدا بحرا بل قد يكون برا حيث كان مرة بحرا ، وعلة ذلك الأنهار وبدؤها ، فإن لمواضع الأنهار شبابا وهرما وحياة وموتا ، ونشئا ونشورا ، كما يكون ذلك في الحيوان والنبات ، غير أن الشباب والكبر في الحيوان لا يكون جزءا بعد جزء لكنها تشب وتكبر أجزاؤها كلها معا ، وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد فأما الأرض فإنها تهرم وتكبر جزءا بعد جزء ، وذلك بدوران الشمس»[1] .

وقد طبق المسعودي هذه الفكرة على بلاد العراق وبين أثر الأنهار في تراجع الساحل الشمالي للخليج العربي إلى الجنوب ، وكذلك تغير مواضع المجاري النهرية وأثرها في اختلاف مواقع العمران .

يقول المسعودي : «وكانت سفن الهند والصين تصل إلى الحيرة ، فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر برا فصار بين الحيرة والبحر في هذا الوقت أيام كثيرة ، وأن من رأى النجف وأشرف عليها يتبين له ما وصفنا»[2] .

وعن تغير مواضع المجاري النهرية وأثرها في اختلاف مواقع العمران أشار المسعودي إلى انتقال مجرى نهر دجلة شرقي بغداد في الموضع المعروف برقة الشماسية من الجانب الغربي من الضياع التي كانت بين قطربل ومدينة السلام إلى الجانب الشرقي من تلك الضياع ، وذكر أن لأهل المواضع التي انتقل عنها الماء مطالبات مع أهل الجانب الشرقي الذين تملكوا في ذلك الجانب[3] .

(١) المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٦٤م، ج١ ص ٩٧.
(٢) أبو الحسن المسعودي، المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٣) أبو الحسن المسعودي، المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٤.

ويخلص المسعودي بعد هذا البيان التطبيقي لأقوال أرسطو (صاحب كتاب المنطق) بمحاولة لقياس تلك التغيرات زمنيا ومن ثم التأكيد على العبارة الواردة في النص الأول عن تبادل مواضع اليابس والماء وحياة الأنهار وموتها ؛ يقول المسعودي : «فإذا كان الماء (في شرقي بغداد) في نحو ثلاثين سنة قد ذهب بنحو من سبع ميل (٢٨٢ مترا تقريبا) فإنه يسير ميلا (١٩٧٣ مترا) في قدر مائتي سنة . فإذا تباعد النهر أربعة آلاف ذراع (وهي مقدار الميل) من موضعه الأول خربت بذلك السبب مواضع وعمرت مواضع ، وإذا وجد الماء سبيلا منخفضا وانصبابا وسَّع بالحركة وشدة الجرية لنفسه ، فاقتلع المواضع من الأرض من أبعد غاياتها ، وكلما وجد موضعا متسعا من الوهاد ملأه في طريقه من شدة جريته حتى يعمل بحيرات ومستنقعات ، وتخرب بذلك بلاد وتعمر بذلك بلاد ، ولا يغيب فهم ما وصفنا على من له أدنى فكر»(١) .

وفي القرن الرابع الهجري أيضا كتب إخوان الصفا(٢) رسائلهم المشهورة في أبواب المعرفة المختلفة ، وحملت تلك الرسائل في طياتها الكثير من آراء الإغريق والرومان . وأكد إخوان الصفا على فكرة تبادل اليابس والماء وما يترتب على ذلك من صيرورة مواضع البراري بحارا وغدرانا وأنهارا ومواضع البحار جبالا وسباخا وآجاما ورمالا ، ومواضع العمران خرابا ومواضع الخراب عمرانا ، وأرجعوا كل ذلك إلى سببين فلكي وجيمورفولوجي :

(١) أبو الحسن المسعودي، المصدر والصفحة نفسها.
(٢) إخوان الصفا جماعة سرية من المفكرين اتخذت من البصرة مقرا لها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. وقد وضعت هذه الجماعة سلسلة من الرسائل في معارف متنوعة شكلت في مجموعها موسوعة متكاملة لها نظرة خاصة إلى الكون والنفس، وقد استمدت هذه الرسائل مصادرها من فلاسفة اليونان والفرس والهنود.

أ- الفلكي :

وينشأ عن تغيرات في مواضع الكواكب تؤدي إلى اختلاف في مناخ بعض المناطق على الكرة الأرضية تكون نتيجته تغير أحوال اليابس والماء .

يقول إخوان الصفا : «واعلم بأن في كل ثلاثة آلاف سنة تنتقل الكواكب الثابتة وأوجات الكواكب السيارة وجوزهراتها[1] في البروج ودرجاتها ، وفي كل تسعة آلاف سنة تنتقل إلى ربع من أرباع الفلك . وفي كل ستة وثلاثين ألف سنة تدور في البروج الاثني عشر دورة واحدة . فبهذا السبب تختلف مسامتات الكواكب ومطارح شعاعاتها على بقاع الأرض وأهوية البلاد ، ويختلف تعاقب الليل والنهار والشتاء والصيف عليها ، إما بالاعتدال والاستواء ، أو بزيادة ونقص وإفراط من الحرارات والبرودات ، واعتدال منهما . وتكون هذه أسبابا وعللا لاختلاف أحوال الأرباع من الأرض ، وتغييرات أهوية البلاد والبقاع وتبديلها بالصفات من حال إلى حال .

ويعرف حقيقة ما قلنا الناظرون في علم المجسطي وعلوم الطبيعيات ، فتصير بهذه العلل والأسباب مواضع العمران خرابا ومواضع الخراب عمرانا ، ومواضع البراري بحارا ومواضع البحار براري وجبالا»[2] .

---

(١) «الجوزهر» تدل في علم الفلك عند العرب والفرس على فلك القمر أو بمعنى أدق على الدائرة المتحدة المركز بفلك البروج التي يتحرك فيها مركز الجاذبية لفلك تدوير القمر. هذا إذا استعملت من غير إضافة. أما إذا أضيفت فتدل على العقد القمرية، أي النقط التي يقطع فيها فلك القمر مدار الشمس (فلك البروج).

(٢) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، دار صادر، بيروت ١٩٥٧م، ص ٩٣.

ب- الجيمورفولوجي :

ويكون نتيجة عمليات التعرية المختلفة التي تودي إلى اكتمال الدورة الصخرية ، ويتضح ذلك في قول إخوان الصفا : «واعلم يا أخي أن الأودية والأنهار كلها تبتدئ من الجبال والتلال ، وتمر في مسيلها وجريانها نحو البحار والآجام والغدران ، وأن الجبال من شدة إشراق الشمس والقمر والكواكب عليها بطول الزمان والدهور تنشف رطوباتها وتزداد جفافا ويبسا وتنقطع وتنكسر ، وخاصة عند انقضاض الصواعق ، وتصير أحجارا وصخورا أو حصى ورمالا . ثم إن الأمطار والسيول تحط تلك الصخور والرمال إلى بطون الأودية والأنهار ، ويحمل كذلك شدة جريانها إلى البحار والغدران والآجام . وأن البحار لشدة أمواجها وشدة اضطرابها وفورانها ، تبسط تلك الرمال والطين والحصى في قعرها سافا (طبقة) على ساف بطول الزمان والدهور ، ويتلبد بعضها فوق بعض وينعقد وينبت في قعور البحار جبالا وتلالا ، كما تتلبد من هبوب الرياح أدعاص (كثبان) الرمال في البراري والقفار .

واعلم يا أخي أنه كلما انطمت قعور البحار من هذه الجبال والتلال التي ذكرنا أنها تنبت ، فإن الماء يرتفع ويطلب الاتساع ، وينبسط على سواحلها نحو البراري والقفار ويغطيها الماء فلا يزال ذلك دأبه بطول الزمان ، حتى تصير مواضع البراري بحارا ومواضع البحار يبسا وقفارا . .»(١) .

ويلاحظ أن إخوان الصفا لم يحاولوا ضرب أمثلة ميدانية ، بل اكتفوا بترديد آراء السابقين ، ويرجع ذلك إلى نهجهم المكتبي في الدراسة ، فلم يكونوا

---

(١) المصدر السابق: ص ٩٣ ـ ٩٤.

من الرحالين الذين مزجوا بين الدراسة العلمية والعملية مثل هيردوت أو المسعودي أو من جاء بعدهما .

* * *

وظهر في القرن الخامس الهجري ثلاثة من أفذاذ العلماء العرب الذين أثروا هذه الفكرة بما قدموه من توضيحات أو تطبيقات كانت الأساس لعدد من النظريات الحديثة ، مثل نظرية زحزحة القارات والتوازن الأرضي . وهؤلاء العلماء هم محمد ابن الحاسب الكرخي وأبو الريحان البيروني وأبو علي الحسين ابن سينا(١) .

١- محمد بن الحسن بن الحاسب الكرخي(٢) :

معلوماتنا عن هذا العالم قليلة فقد عاش في القرن الخامس الهجري ويهمنا من أعماله هنا كتابه «إنباط المياه الخفية» الذي نشرت طبعته الأولى في الهند سنة

(١) هناك عدد آخر من العلماء الذين كتبوا في هذا الموضوع، غير أننا قد ركزنا على أولئك الذين قدموا إضافة جديدة في مجال البحث. ومن أمثلة ذلك النصوص التي أوردها الوليد بن رشد وهي لا تتضمن مادة جديدة، انظر «الوليد بن رشد: كتاب الآثار العلوية» تحقيق سهير فضل الله أبو عافية وسعاد علي عبدالرازق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٣١ وما بعدها.

(٢) أثبتنا هنا التسمية التي وردت في مطبوعة «إنباط المياه الخفية» الصادرة في الهند عام ١٣٥٩هـ وقد ثار جدل حول اسم «الكرخي» وأنه «الكرجي» بالجيم، فرجح عدد من الباحثين أنه الكَرَجي، نسبة إلى بلدة بين أصبهان وهمذان، وقد نشر كتاب إنباط المياه الخفية مرة أخرى بتحقيق بغداد عبدالمنعم، من مطبوعات معهد المخطوطات العربية (القاهرة ١٩٩٧م)، وأثبتت المحققة اسم «الكرجي» بالجيم. وقد عاش الكرخي أو الكرجي في فترة السيطرة البويهية التي امتدت بين سنتي ٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥م. ولا تذكر المصادر سنة ميلاد الكرجي أو الكرخي أو سنة وفاته، وإن كانت بعض المصادر ترجح سنة وفاته بعد عام ٤٠٦هـ. وقد أنتج الكرخي أعماله الرياضية في بغداد. أما كتاب «إنباط المياه الخفية» فقد وضعه وهو في إقليم الجبل. ومن كتبه المهمة في الرياضيات كتاب «الكافي في الحساب» الذي صدر عن معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب (١٩٨٦م) بتحقيق الدكتور سامي شلهوب. وفي مقدمة المحقق تفصيل جيد عن مسألة الاسم «الكرخي» أو «الكرجي» وقد رجح الأخيرة، كما ذكر المحقق أهم الكتب المنسوبة إليه.

١٣٥٩هـ والذي تكلم فيه عن كيفية استخراج المياه الجوفية والعلامات الدالة على وجود الماء والأجهزة الهندسية المستخدمة في بناء القنوات وما إلى ذلك . وقد قدم لكتابه بمقدمة قيمة عن صفة الأرض ، هي التي تهمنا في هذا المجال ؛ يقول :

«إن في الأرض حركات دائمة ، منها طلب الأبنية للوقوع والانهدام والميل عن سمت الاستقامة ، وكذلك الجبال والتلاع تنهار قليلا قليلا ، وتتفتت طلبا للمركز . والأرض الرخوة في تربتها حركة دائمة ، وهي طلب أجزائها الصلابة باعتماد بعضها على بعض .

وأعظم هذه الحركات المذكورة انتقال المياه العظيمة وجريان الأودية القوية من أرض إلى أرض في الأزمنة الطويلة ، فإذا اجتمعت موادها في ناحية من نواحيها ، وارتفعت حتى بعد سطحها من المركز ، وساوى ذلك بعد الموضع المحاذي له الذي يقابله ، ثم بعد المساواة زاد عليه ، تحركت الأرض طلبا للمعادلة المذكورة ، فتتغير لذلك عروض البلاد ومطالعها وأنصاف نهارها ، ويعتبر ذلك سبب انتقال البحار ، وظهور عيون وغيض عيون . ولا يكون ذلك دفعة واحدة في ساعة واحدة بل يكون على التدريج كانتقال العمارات من أرض لأرض .

ويجوز على مذهب من جعل سبب الخراب في الجنوب مسامتة حضيض الشمس له ، وأن انتقال العمارة الشمالية إلى ناحية الجنوب يكون بانتقال الأوج إلى مسامتتها ، وذلك يكون في ثمانية عشر ألف سنة ، وهو الزمان الذي ينتقل فيه الأوج إلى موضع الحضيض على مذهب بطلميوس لأن مسيره في كل مائة سنة درجة واحدة والله أعلم بذلك»[١] .

(١) الكرخي، أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب: إنباط المياه الخفية، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند ١٣٥٩هـ، ص ٩.

ويلاحظ أن الكرخي قد بين في نصه السابق بوضوح تام فكرة التوازن الأرضي Isostasy التي لم تعد مجرد نظرية قد يشك في صحتها ، بل أصبحت ظاهرة حقيقية استطاع العلماء أن يسجلوها في كثير من جهات العالم . فقد أشار الكرخي إلى الدورة التضاريسية التي تنتهي عند اكتمالها بما يعرف بشبه السهل Penpeplane ثم تتلوها عملية إعادة التوازن الأرضي Isostatic) (readjustrment فتبعث التضاريس من جديد لتبدأ دورة تضاريسية أخرى[١] .

٢- أبو الريحان البيروني[٢] :

جمع البيروني بين أطراف الفكر الجغرافي نتيجة سعة إطلاعه وإتقانه لعدد من اللغات كاليونانية والسريانية والفارسية والعربية والسنسكريتية ، وتتفوق آراؤه في الجغرافية الطبيعية على آراء كثير من الجغرافيين العرب الذين كتبوا في هذا المجال . وقد درس البيروني آراء السابقين حول فكرة تبادل اليابس والماء وحاول أن يربط بين المعرفة النظرية والعملية ، ويتجلى ذلك فيما كتبه في مقدمة كتابه «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» الذي وضح فيه فلسفته للفكرة المذكورة ، مع ضرب بعض الأمثلة التطبيقية ، كما يتجلى ذلك

(1) Holmes, A. (1959): Principles of Physical Geogaphy. London. p. 32.

(٢) ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م في مدينة كاث التابعة لجمهورية أوزبكستان، وقد ابتدأ حياته العلمية في خوارزم وأتقن عدة لغات. وقد انتقل في عام ٣٨٥هـ إلى جرجان حيث عاش فيها ١٥ سنة وكتب فيها أول مؤلفاته الكبيرة وهو كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» ثم عاد إلى وطنه خوارزم حيث مكث بها إلى عام ٤٠٨هـ حين غزت جيوش محمود الغزنوي خوارزم، فاضطر البيروني إلى الانتقال إلى غزنة عاصمة الدولة الغزنوية الجديدة التي أصبحت مقره الأخير، وفيها كتب كتابه الكبير «في تحقيق ما للهند من مقولة» وقد توفي البيروني بغزنة عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م

في كتابه «في تحقيق ما للهند من مقولة» الذي قدم فيه تفسيرا علميا لأصل سهول الهند الممتدة جنوب جبال الهيملايا ، ونستعرض فيما يلي أهم ما في تلك النصوص :

أولا- جاء في مقدمة كتاب «تحديد نهايات الأماكن» حديثا تفصيليا عن الزمان وخلق العالم وعمارة الأرض واختلاف أحوال الأرض وطبيعتها ختمها بقوله : «ولا نعلم من أحوالها إلا ما يشاهد من الآثار التي تحتاج في حصولها إلى مدد طويلة وإن تناهت في الطرفين ، كالجبال الشامخة المتركبة من الرضراض الملس ، المختلفة الألوان المؤتلفة بالطين والرمل المتحجرين عليها . فإن من تأمل الأمر من وجهه وأتاه من بابه علم أن الرضراض والحصى هي حجارة تتكسر من الجبال بالانصداع والانصدام ، ثم يكثر عليها جري الماء وهبوب الرياح ويدوم احتكاكها فتبلى ، ويأخذ البلى فيها من جهة زواياها وحروفها ، حتى يذهب بها فيدملكها (أي يجعلها كالكرة) ، وإن الفتات التي تتميز عنها هي الرمال ثم التراب .

وإن ذلك الرضراض لما اجتمع في مسايل الأودية حتى انكبست بها ، وتخللها الرمال والتراب فانعجنت بها واندفنت فيها ، وعلتها السيول ، فصارت في القرار والعمق بعد أن كانت من وجه الأرض فوق ، تحجرت بالبرد ؛ لأن تحجر أكثر الجبال في الأعماق بالبرد ، ولذلك تذوب الأحجار بتسليط النار ؛ فإن ما انعقد بالبرد انحل بالحر ، وما انعقد بالحر انحل بالبرد . وإذا وجدنا جبلا متجبِّلا من هذه الحجارات الملس -وما أكثره فيما بينها- علمنا أن تكوّنه على ما وصفناه ، وأنه تردد سافلا مرة وعاليا أخرى .

وكل تلك الأحوال بالضرورة ذوات أزمان مديدة غير مضبوطة الكمية ، وتحت تغايير غير معلومة الكيفية ، ولها تتناوب العمارة على بقاع الأرض . فإن أجزاءها إذا انتقلت من موضع إلى آخر انتقل معها (ثقلها ، فاختلف على جوانبها ، ولم تكن الأرض لتستقر إلا بكون مركز)[1] ثقلها مختلفا على اختلاف وضع الأجزاء المنتقلة منها . فلم تكن لتثبت أبعاد البقاع عن المركز على مرور الزمان عليها على مقدار واحد ، فإذا علت أو أفرط تكابس ما حولها ، نقصت المياه وغارت العيون وعمقت الأودية وتعذرت العمارة ، فانتقل أهلها إلى غيرها ، ونسب ذلك الخراب إلى الهرَم ، وعمارة الخراب إلى النشوء والشباب ، ولأجله تصرد جروم وتجرم صرود[2] . .»

«وعلى مثله ينتقل البحر إلى البر والبر إلى البحر ، في أزمنة : إن كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة ، وإن كانت بعده فغير محفوظة . لأن الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمد ، وخاصة في الأشياء الكائنة جزءا بعد جزء ، وبحيث لا يفطن لها إلا الخواص .

فهذه بادية العرب وقد كانت بحرا فانكبس ، حتى إن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها ، فإنها تُبدي أطباقا من تراب ورمال ورضراض ، ثم يوجد فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يُحمل على دفن قاصد إياها هناك ، بل يخرج منها أحجارا إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما يسمى آذان السمك ، إما باقية فيها على حالها ، وإما بالية قد تلاشت وبقي

---

(١) هذه العبارة مكتوبة في الأصل بين السطور بالخط نفسه.

(٢) الجروم المناطق الحارة والصرود والمناطق الباردة.

مكانها خلاء متشكلا بشكلها ، كما يوجد مثله بباب الأبواب[1] على ساحل بحر الخزر[2] . ثم لا يذكر لذلك وقت معلوم ولا تأريخ البتة .

فإن العرب قاطنوه منذ أولهم يقطان[3] ، على أنه يمكن أن يكون سكناهم جبال اليمن وقت كون البادية بحرا . فهم العرب العاربة الأقدمون ، ولهم كانت العمارة بها من شاذروان[4] بين جبلين يرتفع عليه الماء إلى قلتيهما ، ويعمر جنتين عن يمين وشمال إلى أن غال به سيل العرم ، فسفل الماء وبلت العمارة ، وأبدلت بالجنتين أخريين ﴿ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾ (سبأ : ١٦) .

ونحن نجد مثل هذه الحجارة التي يتوسطها آذان السمك في المفازة الرملية التي بين جرجان[5] وخوارزم[6] . فقد كانت كالبحيرة فيما مضى ، لأن مجرى جيحون أعني نهر بلخ ، كان عليها إلى بحر الخزر . .»

ويستطرد البيروني في ذكر عدد من الأمثلة في بلاد خوارزم وجرجان ، ثم انتقل بعدها إلى الحديث عن مصر ناقلا عن أرسطو أن مصر العليا كانت مغمورة بمياه النيل : «وهذه أرض مصر ، قد كان النيل ينبسط عليها- كما ذكر أرسطوطاليس في كتاب الآثار العلوية- فيطبقها كأنها بحر ، فلم يزل ينضب عنها وييبس ما علا منها أولا فأولا ويُسكن ، إلى أن امتلأت بالمدن والناس ، وإن جهلوا الآن مبدأ العمارة . وقد كانت أرض مصر تسمى في القديم ثيبا (طيبة)

---

(١) هذه المدينة على الشاطئ الغربي لبحر قزوين وهي مدينة دربنت حاليا.
(٢) أي بحر قزوين.
(٣) هو ابن قحطان، وقد اعتبره المؤرخون من العرب القدماء أبا قبائل اليمن.
(٤) كلمة فارسية معناها هنا «سد».
(٥) كانت هذه المنطقة في القرون الوسطى على الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحر قزوين.
(٦) كانت تقع هذه المنطقة في دلتا نهر جيحون (آموداريا حاليا).

باسم مدينة من مدائنها العليا التي سكنت أولا ، وهي غير مدينتها العظمى الآن المسماة ممفياس وهي منف[1] . .»

ثانيا- كتب البيروني كتابه «في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة »بعد إقامته في (غزنة) من بلاد الهند ، وذلك لبيان آراء فلاسفة الهند وحكمائها في مختلف المعارف والعلوم . وقد اختص العلوم الجغرافية والفلكية بنصيب وافر في هذا الكتاب . وكان من أبرز النصوص التي وردت فيه ، فيما يتعلق بموضوعنا هو تفسيره لأصل سهول الهند ، حيث يقول :

«وأرض الهند من تلك البراري يحيط بها من جنوبها بحرهم المذكور (المحيط الهندي) ومن سائر الجهات تلك الجبال الشوامخ ، وإليها مصاب مياهها بل لو تفكرت عند المشاهدة فيها وفي أحجارها المدملكة الموجودة إلى حيث يبلغ الحفر ، عظيمة بالقرب من الجبال وشدة جريان مياه الأنهار ، وأصغر عند التباعد وفتور الجري ، ورمالا عند الركود والاقتراب من المغايض والبحر ، لم تكَد تَصوّر أرضهم إلا بحرا في القديم وقد انكبس بحمولات السيول»[2] .

ويبدو من النصين السابقين اعتماد البيروني على الدراسة الميدانية بصورة لا تقبل الجدل ، فقد اتخذ أدلته في النص الأول من المستحجرات البحرية أو نماذجها الداخلية التي توجد عند حفر الآبار في شمال الجزيرة العربية ، ومعلوم

(١) أثبتنا بعض النصوص الدالة على فكرة تبادل اليابس والماء من كتاب «تحديد نهايات الأماكن» اعتمادا على الطبعة التي نشرها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ١٩٦٢/ ١٩٩٥م بتحقيق الدكتور پ بولجاكوف (ص ص ٤١ ـ ٤٩).

(٢) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد: في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، حيدر أباد، الهند ١٩٥٨م، ص ١٥٧.

أن المنطقة المذكورة كانت مغمورة بمياه بحر قديم أطلق عليه الجيولوجيون اسم بحر تشس أما النص الثاني فقد اتخذ أدلته من الإرسابات النهرية ، من حيث سمكها وشكلها وتدرج أحجامها بين أعالي الأودية ومصباتها ، كما أن البيروني يؤكد في كل الأحوال على أن كل ذلك يحتاج إلى «**أزمان مديدة غير مضبوطة الكمية ، وتحت تغايير غير معلومة الكيفية**» ، ويبين بشكل دقيق أثر عمليات التعرية وعواملها في بناء التضاريس في مكان وهدمها في مكان آخر بما يحقق الفكرة التي روّج لها وهي انتقال العمارة من مكان إلى آخر .

٣- الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا[١] :

اشتهر ابن سينا بأبحاثه الفلسفية والطبية ، غير أن شهرته في الأبحاث الطبيعية لا تقل شأنا عن حذقه في الفلسفة والطب ، ويدل على ذلك إشارات الجيمورفولوجيين المحدثين إليه في معظم كتاباتهم عن تاريخ ذلك العلم ، ويعود ذلك إلى آرائه المتقدمة في الجيمورفولوجية ، تلك الآراء التي كانت من الأسس التي اعتمدت عليها إحدى النظريات المهمة في عصرنا الحاضر وهي نظرية زحزحة القارات .

يقول ابن سينا : «ونحن نعلم بأقوى حدس أن ناحية الشمال كانت مغمورة بالماء حتى تولدت الجبال ، والآن فإن البحار جنوبية ، فالبحار منتقلة ، وليس

(١) ولد أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا عام ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م في إحدى قرى بخارى القريبة من بلخ، ونشأ وتعلم في بخارى، وقام برحلات واسعة واكتسب فيها الكثير من العلوم، وذاعت شهرته، وقد تقلد الوزارة في همذان، ثم ثار عليها العسكر ونهبوا بيته فغادرها إلى أصفهان وبها صنف أكثر كتبه، وعاد في أواخر أيامه إلى همذان، ومات بها عام ٤٢٧هـ/ ١٠٣٧م.

يجب أن يكون سبب انتقالها محدودا ، بل يجوز فيه وجوه كثيرة ، بعضها يؤذن بانقطاع العمارة فيشبه أن تكون في العالم قيامات تتوالى في سنين لا تضبط تواريخها»[1] .

ومن الواضح أن فجنر Wegner في نظريته الخاصة عن «زحزحة القارات» يتفق مع ابن سينا في فرضه الأول القائل إن الكتلة القارية القديمة (بنجايا Pan-gaea) كانت موجودة في نصف الكرة الجنوبي ، وأن النصف الشمالي كان مغمورا بالماء ، واختلف الاثنان في طبيعة الحركة التي أدت بتلك الكتلة إلى ما هي عليه الآن في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، فرأى فجنر أن ذلك يرجع إلى انتقال اليابس نفسه أو زحزحته إلى الشمال ، وخصوصا المعمور القديم المعروف في زمن ابن سينا . وكانت هناك زحزحة نحو الغرب يمثلها انفصال الأمريكتين عن جسم الكتلة وحركتها نحو الغرب .

ويرى فجنر أن القوى التي سببت الحركة هي قوى الجذب التفاضلية (Differential Gravitation Forces)[2] أما ابن سينا فيعتقد أن ذلك يرجع إلى انتقال الماء أو البحار من جهة إلى أخرى ، ويعزو ذلك إلى حدوث ما أسماه «الطوفان» وهو غلبة أحد العناصر الأربعة على الربع المعمور كله أو بعضه أو كون أحد العناصر غالبا بهذه الصفة ، على حسب ما يرى أهل اللغة استعماله عليه ، والأعرف عند الجمهور من أمر الطوفانات هو ما كان من الماء ، وكأن هذا الاسم إنما وضع لهذا المعنى .

---

(١) ابن سينا ، الحسين بن عبدالله: كتاب الشفاء، المعادن والآثار العلوية، القاهرة ١٩٦٥م، ص ٧٦.

(2) Wooldridge. S. W. and Morgan, R. S. (1962): An Outline Geomorphology, London, p. 39.

ويرى ابن سينا «أن الطوفانات ترجع إلى أسباب فلكية وهو اجتماعات من الكواكب على هيئة من الهيئات توجب تغليب أحد العناصر في المعمورة ، قد عاونتها أسباب أرضية واستعدادات عنصرية . فالمائية منها قد تقع من انتقالات البخار على صقع كبير دفعة لأسباب عظيمة مفرطة تقع للهواء إلى المائية . والنارية تعرض من انتقالات الرياح العاصفة ، وهذه أشد انتشارا ، والأرضية تعرض لسيلان مفرط يقع من الرمال على براري عامرة أو لكيفية تسيل أرضية باردة مجمدة مما حدثنا عنه . والهوائية تقع من حركات ريحية شديدة جدا مفسدة .

ومما يقنع في وجود هذه وحدوثها كثرة الأخبار المتواترة في حدوث طوفان الماء ، ومما يقنع في إثبات ذلك أن الأشياء القابلة للزيادة والنقصان والقلة والكثرة ، وإن كان أكثر الوجود فيها الوجود المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وما يقرب منه ، فإن طرفهما لا يخرج عن حدٍّ الإمكان ، وكما يتفق كثيرا أن تأتي على بقاع عظيمة من المعمورة فلا يكون فيها مطر البتة ، وذلك في جانب النقصان ، وكذلك قد يفرط المطر دفعة واحدة ، ويستحيل الهواء دفعة إذا كان ما بين هذه الأوساط مختلفا بالزيادة والنقصان وكذلك في سائر الطوفانات»[١] .

ونجد في كتابات ابن سينا مجموعة من النصوص التي تضيف الكثير إلى ما ذكره بشأن انتقال اليابس والماء ، وكل نص من تلك النصوص يزيد تلك الفكرة إيضاحا وتفسيرا . ويؤكد في جميعها عنصر الزمن ، وأن ذلك يتم ببطء وعلى مدى فترات طويلة ، ومن تلك النصوص :

(١) ابن سينا : كتاب الشفاء، المعادن والآثار العلوية، ص ٧٥ - ٧٦.

* «يجوز أن يعرض للبحر أيضا أن يفيض قليلا قليلا على بر مختلط سهل وجبل ثم ينضب عنه ، فيعرض للسهل منه أن يستحيل طينا ولا يعرض ذلك للجبل ، وإذا استحال طينا كان مستعدا لأن يتحجر عند الانكشاف ، ويكون تحجره تحجرا سافيا قويا ، وإذا وقع الانكشاف على ما تحجر ، فربما كان المتحجر القديم -في حد ما- استعد للتفتت ، ويجوز أن يكون ذلك يعرض له عكس ما عرض للتربة من أن هذا يرطب ويلين عودا ويعود ترابا وذلك يستعد للحجرية ، كما إذا نقعت آجرة وترابا وطينا في الماء ثم عرضت الآجرة والطين والتراب على النار ، عرض للآجرة أن زادها الاستنقاع استعدادا للتفتت بالنار ثانيا ، وللتراب والطين استعدادا لاستحجار قوي» .

* «يجوز أن ينكشف البر عن البحر ، وكل بعد طبقة (كذا) ، وقد يرى بعض الجبال كأنه منضود سافا فسافا ، فيشبه أن يكون ذلك بأن طينتها في وقت ما كذلك سافا فسافا بأن كان ساف ارتكم أولا ، ثم حدث بعده في مدة أخرى ساف آخر فارتكم ، وكان قد سال على كل ساف جسم من خلاف جوهره ، فصار حالا بينه وبين الساف الآخر»[١] .

* فالجبال تكونها من أحد أسباب تكون الحجارة ، والغالب أن تكونها من طين لزج جَفَّ على طول الزمان ، تحجَّر في مُدد لا تضبط ، فيشبه أن تكون هذه المعمورة قد كانت في سالف الأيام غير معمورة بل مغمورة في البحار ، فتحجرت ، إما بعد الانكشاف قليلا قليلا في مدد لا تفي

(١) ابن سينا، المصدر نفسه، ص ٨ ـ ٩.

التأريخات بحفظ أطرافها ، وإما تحت المياه لشدة الحرارة المحتقنة تحت البحر ، والأولى أن يكون بعد الانكشاف وأن تكون طينتها تعينها على التحجر ، إذ تكون طينتها لزجة ، ولهذا ما يوجد في كثير من الأحجار إذا كسرت أجزاء الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها[1] .

ومما تقدم يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية :

١- اعتقاد اليونان والعرب بوجود دورة فلكية تؤدي إلى تغيرات مناخية يتبادل بموجبها اليابس والماء ، ولا يمكن بأي حال أن نأخذ بجميع آرائهم في هذا المجال دون تمحيص ، فلا يعقل أن يحصل ذلك التغيير في الزمن القصير الذي لا يمكن أن يقاس بالأزمنة الجيولوجية الطويلة ، على أن ذلك الزمن يعتبر طويلا بالنسبة لمعرفتهم المحدودة بعمر الأرض .

لكن آراء بعض أولئك العلماء في تبادل اليابس والماء تطابق بعض ما قيل في نظريات أسباب تكون الجليد في الزمن الرابع ، وبخاصة القول باحتمال حدوث تغييرات طارئة في حركة كوكب الأرض أو في محورها ، وكذلك التغير في تركيب عناصر الجو ، وهو ما عبَّر عنه ابن سينا بغلبة «أحد العناصر الأربعة على الربع المعمور كله أو بعضه» . ومعلوم أن فترات تقدم الجليد التي حدثت خلال البلايستوسين قد أحدثت بعض التغيير في توزيع اليابس والماء ، يدل عليه مجموعة من البحيرات التي اكتشفت آثارها في الصحاري العربية .

٢- بيَّن العرب أثر الدورة الصخرية في تبادل اليابس والماء ، ومن خلال

---

(١) ابن سينا، المصدر نفسه، ص ٧.

كلامهم عن تلك الدورة يتبين مدى فهمهم لها ، ويتمثل ذلك في نص المسعودي «فإن لمواضع الأنهار شبابا وهرما وحياة وموتا . . إلخ» ومن الواضح أنه يقصد بمواضع الأنهار الأودية النهرية . وجاء إخوان الصفا والكرخي فزادوا نص المسعودي إيضاحا فقد بيَّن الكرخي بإيجاز ووضوح العلاقة بين مجموعتي العمليات الداخلية والخارجية من حيث تضافرها في حفظ الصلة بين التضاريس الموجبة والتضاريس السالبة ، وهو ما يطلق عليه الجغرافيون المحدثون اسم «ظاهرة التوازن الأرضي» ، وقد نص الكرخي -مثلا- على أن العمليات الداخلية تتدخل كلما زادت العمليات الخارجية من ردمها للتضاريس الأرضية عن مستوى محدد عبر عنه بكلمة «المساواة» .

٣- الإطماء النهري وأثره في تقدم مصبات الأنهار من الظاهرات التي شغلت العلماء منذ أيام الإغريق ، ويتمثل ذلك في نصوص هيردوت عن نيل مصر واعتقاده بوجود خليج في موضع الدلتا قام النهر بردمه برواسبه ، وكذلك في قياسه لسمك الطمي عند الساحل الشمالي لمصر . وفي الفترة العربية نجد نصوص المسعودي عن تقلص الساحل الشمالي للخليج العربي نحو الجنوب بفعل الإرساب النهري تشابه بعض النظريات التي قيلت في هذا الموضوع في عصرنا الحاضر[١] . وبيَّن البيروني أثر المجاري النهرية المنحدرة من جبال هملايا في تكوين سهول الهند ، وقدم تقريرا

(١) انظر على سبيل المثال كيرتس لارسين: «منطقة الدلتا في بلاد ما بين النهرين، إعادة للنظر في دراسة ليزوفالكون» ترجمة فيصل الوائلي، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد السابع ١٩٧٦م.

مفصلا عن خوارزم وجرجان وما جاورهما ، وكيف أدت التغيرات المناخية إلى تغيرات واضحة في مناطق اليابس والماء في تلك المنطقة .

٤- لم يقتصر العرب على الأمثلة التطبيقية ، التي هي بلا شك ناتجة عن دراسة ميدانية للمنطقة محل البحث ، بل عززوا ذلك ببعض التجارب المعملية ، كما فعل ابن سينا في فكرته عن تكوين الجبال وهو قوله : «كما إذا نقعت آجرة وترابا وطينا في الماء ثم عرضت الآجرة والطين والتراب على النار عرض للآجرة أن زادها الاستنقاع استعدادا للتفتت بالنار ثانيا ، وللتراب والطين استعدادا لاستحجار قوي» فالآجرة هي الصخور والجبال القديمة ، والماء بمثابة البحار والمحيطات ، والنار بمثابة أشعة الشمس وأثرها الحراري . وقد أثبت بذلك فكرته إثباتا علميا جيدا .

٥- أدرك ابن سينا فكرة تغيرات ما بعد الترسيب Post depositional changes وهي اللازمة لتحويل الرواسب إلى صخر وأعطاه الزمن الذي يستحقه[1] . كما استخدم ابن سينا والبيروني الأحافير البحرية (الحفريات) استخداما صحيحا للدلالة على تبادل اليابس والماء .

٦- وصف إخوان الصفا وابن سينا قانون «تعاقب الطبقات» Superposition of Strata بمنتهى الوضوح ، ويتمثل ذلك في قول ابن سينا «بأن يكون ساف ارتكم أولا ثم حدث بعده في مدة أخرى ساف آخر فارتكم» والساف هو الطبقة .

٧- نص هيردوت ومعظم العلماء العرب على عنصر الزمن ، فالتضاريس

(١) علي السكري: العرب وعلوم الأرض، الإسكندرية ١٩٧٣م، ص ٣١.

الناتجة عن العمليات الخارجية تحتاج إلى وقت طويل وتدل على هذا بوضوح عبارات البيروني وابن سينا في النصوص السابقة .

٨- إن المعرفة والتقدم العلمي هو أمر تراكمي ، فقد لاحظنا من النصوص التي عرضناها عن فكرة تبادل اليابس والماء أن جذور تلك المسألة تعود إلى علماء اليونان والعرب ، ويتمثل ذلك في التطبيقات والملاحظات الميدانية والمعملية المهمة . وعن العرب انتقلت تلك الفكرة إلى الغرب ، فظهرت نظرية ألفريد فجنر التي أطلق عليها «زحزحة القارات» Contental Drift في العقد الثاني من القرن العشرين . وهي نظرية تقوم على أساس وجود قارة كبيرة واحدة يحيط بها الماء ، أدت قوى الجذب التفاضلية إلى تصدعها وانفصال أجزائها إلى عدة قارات تباعدت فيما بينها فتغير توزيع اليابس والماء ليصبح على الصورة التي هو عليها الآن .

ومع أن هذه النظرية ظلت تدرس في الجامعات إلى الستينيات من القرن الماضي ، فإن العلماء شككوا في قدرة القوى التي أشار إليها فجنر في تحريك كتلة صلبة هائلة يصل سمكها نحو ٢٩٠٠ كيلو متر ، إلى أن اكتشفت حقائق جديدة تتعلق بحقيقة تركيب الأرض الداخلي . فقد تم التوصل إلى أن سمك القشرة الأرضية مع طبقة رقيقة صلبة ملتحمة بها من الوشاح العلوي ، يتراوح سمكها بين ١٠٠ و١٥٠ كيلو مترا تطفو فوق طبقة لدنة تدعو الإسينوسفير والأخيرة تصل إلى عمق يقدر بنحو ٧٠٠ كيلو متر ثم يليها باقي الوشاح الأرضي ، وهو في حالة صلبة ، ثم لب الأرض الخارجي والداخلي . ووفقا لهذه الحقائق الجديدة ظهرت نظرية تكتونية الألواح أو الصفائح Plate Tectonic التي

ترى أن القشرة الأرضية الصلبة تتكون من مجموعة من الألواح أو الصفائح بعضها كبير مثل اللوح الأوراسي ولوح المحيط الهندي ، وبعضها صغير مثل اللوح الإيراني واللوح العربي ، وهذه الألواح تتحرك حركة أفقية إما تباعدية (بناءة) أو تقاربية (هدّامة) أو مستعرضة . وفي ضوء تلك الحقائق التي أكدتها الكثير من الدراسات العلمية الجادة والتفسيرات المنطقية لطبيعة الحركة وعواملها أمكن القبول بنظرية «زحزحة القارات» وفسّرت تلك الحقائق الكثير من الجوانب التي طرحها اليونان والعرب وفجنر من بعدهم في كل ما يتعلق بالعلاقة بين اليابس والماء .

* * *

وختاما . . فمن الواجب تحديد قيمة الإضافات العربية وإعطاؤها حقها المفروض عند كلامنا عن تطور علم الجيمورفولوجيا ، وبخاصة أن الكثير من الأفكار التي عرضها العرب كانت أساسا لبعض النظريات المهمة التي مازالت تلقى قبولا كبيرا في الأوساط العملية ، ذكرنا منها مثلا نظرية زحزحة القارات ونظرية التوازن الأرضي ، وإذا علمنا أن أحد الأسس المهمة التي قام عليها عصر النهضة هو ترجمة التراث القديم اليوناني والعربي ، بل إن اللغة العربية كانت لغة العلماء في أوربا ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي ، لو علمنا ذلك لاتضح لنا أن علماء أوربا في بدء عصر النهضة لابد أنهم قرأوا كتابات المسعودي والكرخي والبيروني وابن سينا . وأن النظريتين المشار إليهما قد اعتمدتا أساسا على تلك الأفكار العربية ، ومع هذا فإن معظم الكتابات الأوربية تبخس العرب حقهم العلمي .

المصادر والمراجع

- **إخوان الصفا (١٩٥٧م)**: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، دار صادر، بيروت.
- **البيروني ، أبو الريحان محمد بن أحمد** : تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، تحقيق بولجاكوف، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٦٢، ١٩٩٥م.
- **أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (١٩٥٨م)**: في تحقيق ما للهند من مقولة، الهند.
- **ابن رشد ، الوليد (١٩٩٤م)**: كتاب الآثار العلوية، تحقيق سهير فضل الله أبو عافية وسعاد علي عبدالرازق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- **سارتون جورج (١٩٦٣م)**: تاريخ العلم، ترجمة لفيف من العلماء، دار المعارف بمصر.
- **ابن سينا ، أبو علي الحسين (١٩٦٥م)**: كتاب الشفاء، المعادن والآثار العلوية، القاهرة.
- **شريف محمد شريف (١٩٦٩م)**: تطور الفكر الجغرافي، الجزء الأول مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- **علي السكري (١٩٧٣م)**: العرب وعلوم الأرض، الإسكندرية.
- **الكرخي ، أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب (١٣٥٩هـ)**: إنباط المياه الخفية، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند.
- **الكرجي ، محمد بن الحسن بن الحاسب**: الكافي في الحساب، تحقيق سامي شلهوب، معهد التراث العلمي العربي، حلب ١٩٨٦م.
- **لارسين كيرتس (١٩٧٦م)**: «منطقة الدلتا في بلاد ما بين النهرين، إعادة للنظر في دراسة ليز وفالكون» ترجمة فيصل الوائلي، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد التاسع الكويت.
- **محمد صقر خفاجة (١٩٦٦م)**: هيردوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة وشرح أحمد بدوي، دار القلم بالقاهرة .
- **المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (١٩٦٤م)**: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة.
- **نفيس أحمد (بدون تاريخ)**: جهود المسلمين في الجغرافية، ترجمة فتحي عثمان، دار القلم القاهرة.
- Holmes, A. (1959): "Principles of Physical Geogaphy". London.
- Wooldridge. S. W. and Morgan, R. S. 1962, "An Outline of Geomorphology". London.

آطام النيران أو «البراكين» في التراث العربي(*)

ترجع كلمة «بركان» إلى كلمة (Vulcan) الدالة على إله النار عند الرومان[١] . وقد استخدم الجذر نفسه مع تعديل طفيف في عدد من اللغات الأوربية للدلالة على ذلك الشكل المخروطي المكون من الصخور والرماد الناتج عن انبثاق المواد المنصهرة والغازات المحبوسة في باطن الأرض إلى سطحها من خلال فتحة تقع في وسط ذلك المخروط . فهو في الإنجليزية (Volcano) وفي الفرنسية والإسبانية (Volcan) ، وفي الإيطالية (Vulcano) وفي البرتغالية (Vulcáo) وفي الألمانية (Vulkan) .

ولم يرد في معاجم اللغة العربية القديمة لفظ «البركان» أو صفته ، وكل ما جاء فيها أن البَرْكان (بفتح الباء) صفة للكساء الأسود[٢] .

وأقدم ذكر لهذا المصطلح في المؤلفات الجغرافية العربية كان عند المسعودي في كتابه مروج الذهب الذي ألفه سنة (٣٣٦هـ) ، وقد أطلق على البراكين اسم «آطام النيران»[٣] . وذكر منها «أطمة جبل البركان من بلاد

(*) نشر أصل هذا البحث تحت عنوان «البراكين والحرات والحمات في التراث العربي» ضمن سلسلة رسائل جغرافية التي تصدر عن قسم الجغرافيا والجمعية الجغرافية الكويتية، العدد ١١٧، الكويت، سبتمبر ١٩٨٨م.

(1) Bates, R. and Jackson, A. (1982): Glossary of Geology, 2ed., American Geological Institutem p. 690

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بولاق ١٣٠٣هـ (١٦/ ١٩٦ ـ بركن).

(٣) «الآطام» لغة الحصون المبنية بالحجارة والواحد «أطم»، وتطلق أيضا على البناء المرتفع. و«الأطيمة» موقد النار أو الأتون وجمعها «أطائم»، وواضح أن هناك علاقة بين شكل البركان وهذين المعنيين (لسان العرب ١٤/ ٢٨٤، ٢٨٥ ـ أطم).

صقلية» ثم ذكر الآطام الأخرى المشهورة في العالم دون أن يورد في وصفها كلمة «البركان» .

قال : «وليس في آطام الأرض أشد صوتا ولا أسود دخانا ولا أكثر تلهبا من الأطمة التي في أعمال المهراج ، ويعد أطمة وادي برهوت ، وهي نحو بلاد سبأ وحضرموت من بلاد الشحر ، وذلك بين بلاد اليمن وبلاد عُمان ، وصوتها يسمع كالرعد من أميال كثيرة ، تقذف من قعرها بجمر كالجبال وقطع من الصخور سود حتى يرتفع ذلك في الهواء ، ويدرك حسها من أميال كثيرة ، ثم ينعكس سفلا فيهوى إلى قعرها وحولها . والجمر الذي يظهر منها حجارة قد احمرت مما قد أحالها من مواد حرارة النار . .»[١] .

وحينما تحدث المسعودي عن مساكن «الإفرنجة» في جزيرة صقلية وما

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٦٤م (١/ ١٨٦).
والخبر الذي أورده المسعودي عن وادي برهوت لا نجده عند من سبقه من الجغرافيين فلم يذكره الهمداني على هذا النحو، فمعظم النصوص المتعلقة به تقول إن برهوت بئر بسفلي حضرموت قديمة، ذات رائحة خبيثة، تسكنها أرواح الكفار (الهمداني، الحسن بن أحمد: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض ١٩٧٤م، ص ٢٧٠، ٣٦١).
ولبئر برهوت شهرة في حضرموت، وقد وصف فان درميلين ووزمان هذا البئر عام ١٩٣١م -وكانا قد دخلا البئر المذكور وكتبا كتابا عن حضرموت- بقولهما: «بئر برهوت كهف جيري، ليس به أثر بركاني، وأما الروائح الخبيثة، فهي ليست ناجمة عن الكبريت، بل عن تحلل الصخور وبول الخفافيش، والسبب في الشعور بالحرارة ليس نتيجة عوامل بركانية، ولكن من تأثير الحرارة الخارجية» (عن: صلاح البكري: حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي، القاهرة، ص ٤١).
ولا شك في أن وصف المسعودي ينطبق على بركان نشط يختلف عن الوصف الحديث لبرهوت، وربما كان الأمر يتعلق بموضع آخر في اليمن. وقد أشار القزويني إلى جبل النار القريب من عدن، قال «وهو جبل أحمر اللون جدا في وسط البحر، قالوا: هو الجبل الذي تخرج منه النار التي هي من أشراط الساعة» (القزويني، زكريا بن محمد: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٩م، ص ١٠١).

جاورها قال : «وجزيرة صقلية للإفرنجة أيضا ، وقد أتينا على أخبار هذه الجزائر وخبر الجزيرة المعروفة بالبركان ، وهي الأطمة التي يخرج منها أجسام من النار كأجساد الناس بلا رؤوس فتعلو في الهواء بالليل ، ثم تسقط في البحر فتطفو على الماء ، وهي الحجارة التي يُحكُّ بها الكتابة من الدفاتر ، وهي خفاف بيض على هيئة الشهد وأكواد الزنابير الصغار ، وهي الأطمة المعروفة بأطمة صقلية . . وكذلك أتينا على ذكر آطام الأرض ، كأطمة وادي برهوت من بلاد حضرموت وبلاد الشحر وأطمة بلاد الزابج من بحر الصين ، وأطمة بلاد آسك ، وهي ما بين بلاد فارس وبلاد الأهواز من أعمال مدينة أرَّجان من بلاد فارس ، وهذه النار تُرى بالليل من نحو عشرين فرسخا وهي مشهورة بأرض الإسلام . وتفسير «أطمة» هي عين النار التي تنبع من الأرض» .

وأورد المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف» النص نفسه عن صقلية مع بعض الاختلاف في التعبير ، وأضاف مصطلحين جديدين لم يذكرهما في النص الموجود في المروج ، يقول المسعودي : « . . وجزيرة صقلية وما يليها من جبل البركان ، ومنه تخرج عين النار التي تعرف بأطمة صقلية يستضيء بضوء نارها السَّفْر على أكثر من مائة فرسخ[١] برا وبحرا في الليل ، ويرى في شراره إذا علا لهبه في الجو جثث كأبدان الناس ، وتنعكس إلى البحر وتطفو فوق الماء ، فهو الحجر الأبيض الخفيف الذي يحك به الدفاتر والرقوق وغيرها ، ويعرف بالفنسك ويسمى أيضا القيشورا . .»[٢] .

---

(١) عند ابن جبير «مائة ميل».
ابن جبير، محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٦٤م، ص ١١.
(٢) المسعودي، علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، تحقيق عبدالله الصاوي، القاهرة (د. ت) ص ٢٣٠.

وتكلم المسعودي أيضا عن الآطام الأخرى «وهي عيون النار» وركز كلامه على الأطمة العظيمة التي في مملكة المهراج . ولم يرد ذكر البركان سوى ما جاء في كلامه عن صقلية .

ويأتي ابن حوقل النصيبي (ت ٣٨٠هـ) بعد المسعودي ليؤكد أن تسمية «البركان» مرتبطة فقط بصقلية ، فهو قد ذكر جبل النار الذي بناحية آسك المتاخم لأرض فارس ، وأن هذا الجبل تتقد فيه النار ليلا ونهارا يرمي بالدخان لايطفأ أبدا ، كالبركان الذي بنواحي صقلية في وسط البحر صورته هذه الصورة ، وجبل النار المحاذي لطبرمين من أرض صقلية أيضا . كما ذكر أن «البركان جزيرة ذات جبل بهذه الصورة»[١] .

ويتضح من كلام ابن حوقل أن تسمية البركان ليست مرتبطة بصقلية فحسب ، بل هي اسم علم لجزيرة بعينها . وأن البراكين الأخرى في صقلية ، ومنها البركان العظيم إتنا (Etna) لم يكن يطلق عليه اسم البركان بل كان يسمى «جبل النار» ، وهو أعظم براكين صقلية شأنا وأعلاها ، حيث يزيد ارتفاعه على ثلاثة آلاف متر ، وقد وصفته المصادر العربية بشيء من التفصيل ، ومن ذلك ما ذكره القزويني ونصه : «وبها جبل النار . . جبل مطل على البحر ، دورته ثلاثة أيام بقرب طبرمين ، فيه أشجار كثيرة ، وأكثرها البندق والصنوبر والأرزن ، وفيه أصناف الثمار ، وفي أعلاه مَنافس النار يخرج منها النار والدخان ، وربما سالت النار إلى جهة فتحرق كل ما مرت به ، وتجعل الأرض مثل خبث الحديد لاتنبت شيئا ، ولا تمر دابة بها ، ويسميه الناس

(١) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي: كتاب صورة الأرض، بيروت (د. ت) ص ٢٣٠.

الأخبـاث . وفي أعلى هذا الجبل السحاب والثلوج والأمطار دائمة ، لا تكاد تقلع عنه في صيف ولا شتاء ، والثلج لا يفارق أعلاه في الصيف ، وأما في الشتاء فيعم الثلج أوله وآخره»[1] .

ويقع «جبل النار» أو بركان «إتنا» بالقرب من الساحل الشرقي لجزيرة صقلية بين طبرمين وقطانية .

أما جزيرة البركان ، التي استخدم بسببها هذا المصطلح للدلالة على الظاهرة الطبيعية المعروفة ، فتقع ضمن مجموعة الجزر الأيولية البركانية Eolie (Ae-olian) Islands التي تقع على بعد ٢٥ ميلا شمال الشاطئ الصقلي ، وتتبع هذه الجزر ولاية مسينا الواقعة في الطرف الشمالي الشرقي من صقلية . وتسمى هذه الجزر أيضا «جزر ليباري Lipari» نسبة إلى أكبر جزيرة في هذه المجموعة[2] .

تتألف الجزر الأيولية من تسع جزر ، منها سبع معمورة بالسكان ، أكبرها وأكثرها كثافة سكانية هي جزيرة ليباري (١٤,٥ ميل مربع) ، تليها من حيث المساحة سالينا Salina (١٠,٢٥ ميل مربع) و«البركان Vulcano»[*] (٨ أميال

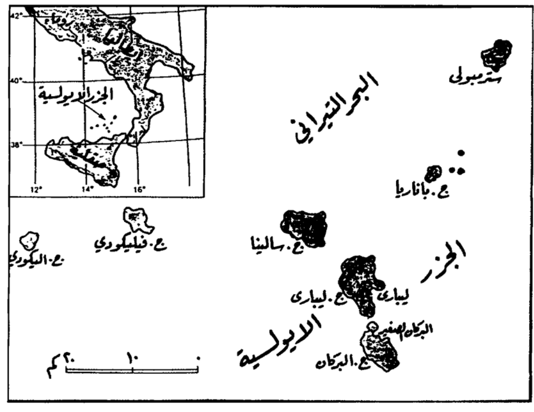
---

(١) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢١٦.

(٢) تقع براكين إيطاليا بشكل عام في اتجاه مواز لجبال ابنين وساحل البحر التيراني، وقد كان هبوط الحوض التيراني وبداية نشأة البراكين في منتصف الزمن الثالث مصاحبا للحركة الألبية التي كان من بين نتائجها جبال ابنين التي تمثل العمود الفقري لإيطاليا، تمتد بامتدادها ثم ينثني في الجنوب انثناءة شديدة باتجاه جزيرة صقلية، ومن الملاحظ أن الجزر الأيولية تقع في ذلك الجزء المنثني من ذلك النطاق، حيث حدثت مجموعة من الشقوق والانكسارات نتيجة هبوط البحر التيراني وتكسره، وتكونت تلك الجزر بسبب انبثاق الصهير من صدوع وفوهات متقاطعة مع كتلة القشرة الأرضية الهابطة.

(*) إذا وضعنا كلمة البركان بين قوسين هكذا « » فإنما نقصد به جزيرة البركان، وليس مجرد المصطلح.

مـربعة) وسـتـرمبـولي Stromboli (٥ أمـيـال مـربعـة) وفـيـليكودي Filicudi (٣,٧٥ أميال مربعة) وأليكودي Alicudi (ميلان مـربعـان) وباناريا Panarea (١,٢٤ ميل مربع)[١] .

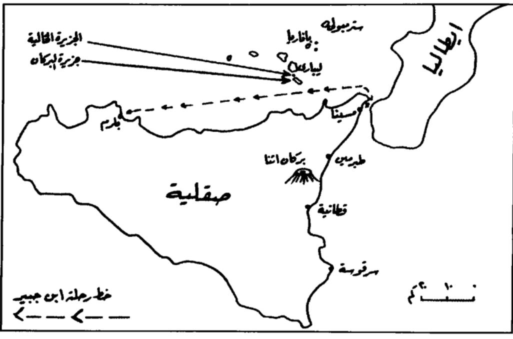


شكل (١) الجزر الأيولية

وقد سجلت جزيرتا «البركان» و«سترمبولي» مجموعة من الأحداث البركانية خلال التاريخ ، وهما الوحيدتان النشطتان بركانيا حتى الوقت

(١) إذا ما استثنينا جزيرة (باناريا) التي ربما كانت الوحيدة المتبقية من مخروط بركاني قديم، فإن جميع الجزر تحتوي على مخاريط لها فوهات واضحة المعالم. وتحتوي فيليكودي واليكودي وسترمبولي على مخروط واحد لكل منهما بينما تحتوي سالينا على مخروطين. أما ليباري وجزيرة البركان فإنهما يحتويان على مجموعة من الفوهات المتقاطعة والمتداخلة.

الحاضر . وجزيرة البركان هي أقرب الجزر إلى ساحل صقلية ، وتبلغ أعلى نقطة فيها ١٦٣٧ قدما . أما جزيرة سترمبولي فهي أبعد تلك الجزر عن صقلية وتقع جهة الشمال الشرقي ، ويصل ارتفاعها ٣٠٤٠ قدما ، وفيها بركان سترمبولي الشهير الذي أصبحت خصائصه الطبيعية علامة لعدد من البراكين الشبيهة في العالم .



شكل (٢) جزيرة صقلية وموقع جزيرة البركان والجزيرة الخالية منها

وبعد هذا التوضيح المطلوب لجزيرة البركان نعود إلى النصوص العربية لنجد فيها تفصيلات أخرى عن هذه الجزيرة غير ما وجدناه عند المسعودي وابن حوقل .

ففي القرن الخامس الهجري يذكر البكري أنه «بصقلية جزيرتا البركان ، الواحدة كبيرة والأخرى صغيرة . وفي هاتين الجزيرتين تتقد النار أبدا ، فيرى

لهب النار بالليل ودخانه بالنهار» ، وذكر أن النار في إحدى الجزيرتين حديثة ولم تكن بها من قبل[1] . ووصف البكري البركان في الجزيرة المعروفة بهذا الاسم بأنه «البركان العظيم الذي لا يعلم في العالم أشنع منه منظرا ولا أغرب خبرا» ، وذكر أن في هذه الجزيرة معدن الكبريت الأصفر «وله قطّاعون عالمون بتناول ذلك ، قد تمرطت شعورهم ونصلت أظفارهم من حرِّه ويبسه ، ويذكرون أنهم يجدونه في بعض الأيام سائلا متميعا فيتخذون له في الأرض مواضع يجتمع فيها ، ثم يجدونه في غير ذلك الأوان قد تحجر فيقطعونه بالمعاويل»[2] .

وقد تكلم الإدريسي عن جزيرة البركان والجزر القريبة منها مثل استرنجلو (سترمبولي) في شمال شرق جزيرة البركان ، وليبر (ليباريا) وفيكوذة وأركوذة[3] . وأشار ابن جبير في رحلته إلى تلك الجزر حينما سافر عن طريق البحر من مسينا إلى بالرمو بقوله : «وأبصرنا عن يميننا في البحر تسع جزائر (انظر الخريطتين : ١ ، ٢) قد قامت مرتفعة على مقربة من بر الجزيرة

(١) البكري، عبدالله بن عبدالعزيز: جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبدالرحمن الحجي، بيروت ١٩٦٨م، ص ٢١٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٢١٤، ٢١٥.
(٣) الإدريسي، محمد بن محمد: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٧٥م، ص ٥٦٨.
ومن الواضح في هذا النص أن اسم جزيرة «سترمبولي» قد صحف إلى استرنجلو، وقد صحف هذا الاسم عند أبي الفداء إلى صورة أخرى هي «آستنبري» قال: «وقبالة رومية في البحر جبلان شامخان لا يزال يظهر منهما الدخان نهارا والنار ليلا، واسم أحد الجبلين بركان بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وكاف وألف ونون، واسم الآخر استنبري بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وفتح المثناة الفوقية وسكون النون ثم باء موحدة من تحت وراء مهملة وياء آخر الحروف، ومعنى بركان واستنبري الرعد والبرق» أبو الفداء، إسماعيل بن علي: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص ٢٠٠.
أما فيكوذة وأركوذة فهما جزيرتا فيليكودي وأليكودي اللتان ذكرناهما قبل قليل.

(صقلية) اثنتان منها تخرج منهما النار دائما ، وأبصرنا الدخان صاعدا منهما ، ويظهر بالليل نارا حمراء ذات ألسن تصعد في الجو ، وهو البركان المشهور خبره ، وأعلمنا أن خروجها من منافس في الجبلين المذكورين يصعد منها نفس ناري بقوة شديدة تكون عنه النار ، وربما قذف فيها الحجر الكبير فتلقي به في الساعة إلى الهواء لقوة ذلك النفس وتمنعه من الاستقرار والانتهاء إلى القعر ، وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة»[١] .

وابتداء من القرن السادس الهجري نجد بعض الكتابات الجغرافية العربية التي أطلقت اسم البركان على عموم هذه الظاهرة سواء في صقلية أو في غيرها ، ولعل من أهم النصوص في ذلك ما ذكره الزهري حينما تحدث عن مدينة حلوان بالعراق قال : «وبالقرب منها الجبل المسمى بالري . وفي هذا الجبل أطم كبير ، والأطم البركان . والبركان فيه نار تتأجج طوال الدهر ، وتزفر أحيانا فترمي بشرر عظيم من رآه فرّ منه .

والبركان في المعمور في أربعة أماكن : واحد في جزيرة من جزائر الهند ، والثاني في جزيرة صقلية ، واثنان في بلاد العراق ، أحدهما في جبل حلوان والثاني في الجبل الذي بين بغداد وسرّ من رأى»[٢] .

وفي القرن الثامن الهجري نجد نصا لأبي الفداء ينسبه إلى الشريف الإدريسي يطلق فيه اسم البركان على «إتنا» ولا نجد في ذلك النص عبارة جبل النار التي اشتهر بها . يقول أبو الفداء : «بركان اسم لجبلين أحدهما في جزيرة

---

(١) ابن جبير: ص ٣٠٠، ٣٠١.

(٢) الزهري، محمد بن بكر: كتاب الجعرافية، تحقيق محمد حاج صادق، بيروت (د. ت) ص ٢٥٢.

منقطعة في الشمال عن صقلية ولا يعلم في العالم أشنع منظرا منه ، والبركان الثاني في جزيرة صقلية في أرض خفيفة التربة كثيرة الكهوف . قال ولا يزال يصعد من ذلك الجبل لهب النار تارة والدخان أخرى . . .»[1] .

ويفيد نص الحميري الذي عاش في القرن التاسع الهجري (ت ٩٠٠هـ) عن «البركان» بأنه قد استعمل مصطلحا بديلا عن الأطمة أو جبل النار ، ويتضح ذلك في قوله : «البركان هو اسم الأطمة التي يخرج منها النار كالتي بجزيرة صقلية . .» .

وقد توسع صاحب كتاب الروض المعطار في الكلام عن بركان إتنا وعن جزيرة البركان في عدة مواضع من معجمه ، وقد خلط في الحديث بينهما عند كلامه عن البركان . وهو ينقل أحيانا عن البكري وأخرى عن الإدريسي . وما يهمنا هنا أنه واصل ما ذكره البكري عن كون البركان واقعا في «جزيرتين شمالا من مدينة بلرم ، وإذا هبت الريح الجوفية سمع لها دوي هائل كالرعد القاصف فتخرج النار منها ، وإنما تظهر بالليل نارا حمراء ذات ألسُن تصعد في الجو» وذكر أن في هذه الجزيرة (جزيرة البركان) معزا برية ، وبينها بين أقرب بر من صقلية خمسة عشر ميلا .

وتحت مادة (خلية) يذكر الحميري «أنهما جزيرتان في أرض صقلية في ناحية مسينى وهما جزيرتا البركان واحدة كبيرة والأخرى صغيرة ، وفي هاتين الجزيرتين تتقد النار أبدا» ثم يؤكد نص البكري في كون «النار في إحدى الجزيرتين حديثة ولم تكن بها من قبل وأنها ضعفت في الأخرى منذ ذاك» .

(١) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٠٠.

وكان صاحب الروض المعطار قد ذكر عند كلامه عن (البركان) أن جزيرة البركان بصقلية ظهرت في ملك بطلميوس أحد ملوك اليونانيين وصاحب علم الفلك وواضع المجسطي[1] (كذا)!

ومن نصوص (الروض المعطار) تتضح مجموعة من الفوائد :

١- تعريف البركان بأنه الأطمة التي يخرج منها النار .

٢- التأكيد على وجود جزيرتين يطلق عليهما جزيرتا البركان . ويبدو أنه خص إحداهما باسم (الخلية) أو (الخالية) كما سماها رتزيتانو (هامش ص ٢٢١ من الروض) .

٣- القول بأن إحدى الجزيرتين حديثة وأن جزيرة البركان قد ظهرت في ملك بطلميوس . . وهو هنا خلط بين بطلميوس صاحب المجسطي وبطلميوس أحد ملوك أسرة البطالسة التي حكمت مصر منذ عام ٣٢٣ ق .م . حتى عام ٣٠ ق . م .

وسنناقش قضية ظهور الجزيرة فيما بعد .

والذي يهمنا أنه منذ ذلك الوقت سار لفظ «بركان» الأعجمي للدلالة على هذه الظاهرة الطبيعية ، ولم يعد يستعمل اللفظ العربي : «الأطمة» أو جبل النار .

والوصول إلى هذه الحقيقة الأساسية لا يعفينا من تحليل النصوص العربية

(١) الحميري، محمد عبدالمنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥م، ص ٨٩، ١٦٦، ٢٢١، ٣٦٧.
(أثبتنا هنا اسم «الحميري» ليسهل الرجوع إلى الكتاب، فقد ثبت أن المؤلف شخص آخر غيره).

المذكورة ، وبيان مصداقيتها في ضوء النصوص القديمة والمعاصرة ، فظاهرة النشاط البركاني في مجموعة الجزر الأيولية كانت وحيا للكثير من الأساطير الإغريقية والرومانية القديمة ، كما كانت في العصور الحديثة محل دراسات علمية أثمرت مجموعة من الإضافات لعلم البراكين .

وفيما يلي أهم النقاط التي توصلنا إليها بعد تحليل تلك النصوص :

(١) ذكرت الجزر الأيولية في الميثولوجيا اليونانية على أنها مقر أيولس (Aeolus) إله الريح ، وتزعم بعض الروايات أن إله الريح كان أصلا أميرا إغريقيا يحكم إحدى هذه الجزر ، وقد اكتسب ذلك الأمير شهرة كبيرة لنجاحه في التنبؤ بالأحوال الجوية عن طريق معرفة طبيعة الدخان المتصاعد من بركان نشط يعتقد أنه بركان سترمبولي .

ولما كان معظم سكان هذه المنطقة من صيادي السمك ، حيث تعتبر الأحوال الجوية من عناصر حياتهم اليومية المهمة ، فإن هذا الأمر له قيمته الكبيرة بالنسبة لهم . وقد وصف ذلك الأمير في الأساطير التالية بأنه إله الريح[١] .

واشتهرت جزيرة البركان في الميثولوجيا الرومانية بكونها مقر إله النار الذي أطلق اسمه على الجزيرة (Vulcan) ويقابله هيفستوس Hephaestus عند اليونان . وزوجة إله النار هيفستوس في الإلياذة هي خارس Charis ، وفي الأوديسة هي أفروديت إلهة الجمال . وذكرت الأساطير أن النيران والدخان

(١) لا يزال أهالي جزيرة سترمبولي يعتقدون بهذا الأمر، ويرون أن الدخان المتصاعد من البركان بمثابة مقياس للضغط الجوي، إذ تعكس كثافة أعمدة الدخان الصاعدة من فوهته مقدار الرطوبة التي يحتوي عليها الهواء، وبذلك يمكن التنبؤ بما سيكون عليه الجو في اليوم التالي.

المتصاعد من فوهة البركان ناتج عن أعمال الحدادة التي تتم في الداخل ، حيث تصنع الدروع لهرقل وأخيلوس والسهام لأبولو وديانا .

ويعود السبب في شهرة «البركان» و«سترمبولي» في الميثولوجيا اليونانية والرومانية إلى كون البركانين نشطين متعددي الانفجارات ، ولم يكن بركان «فيزوف» الشهير الآن معروفا قبل عام ٧٩ ميلادية . وتفيد النصوص القديمة عن نشاط «البركان» أنه كان أكثر ثورانا مما هو عليه في القرون الأخيرة ، وأن ثورانه كان أشد من «سترمبولي» و«إتنا» .

فقد كتب ثيوكيديدس Thucydides (٤٦٤ ـ ٤٠١ ق . م) أحد أشهر المؤرخين الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد يقول عن «البركان» إنه كان يدفع من باطنه كميات كبيرة من الدخان نهارا والنار ليلا .

وكتب أرسطوطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) في القرن الرابع قبل الميلاد عن ثوران البركان ما يفيد أنه مستمر في نشاطه حتى وقته ، وذكر أن تلاً جديدا قد تكون ، وأن كميات كبيرة من الرماد قد قذف بها البركان غطت مدينة ليباري ، كما شوهد دخانه في عدد من المدن الإيطالية .

أما كالياس Callias الذي عاش في سراقوسة وكتب تاريخ منطقته في القرن الثالث قبل الميلاد فقد وصف البركان فقال إنه يحتوي على فتحتين إحداهما محيطها حوالي ٢٠٠ قدم وتقذف بقوة حجارة كبيرة مع صوت عال يسمع من خمسين ميلا .

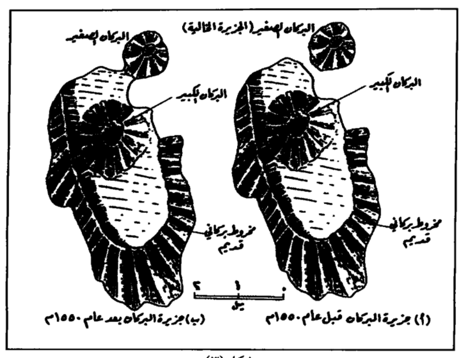
وذكر بلينيوس Pliny (٢٣ ـ ٧٩م) صاحب موسوعة «التاريخ الطبيعي»

أن جزيرة انبثقت من البحر ضمن جزر ليباري في القرن الثاني قبل الميلاد . وحدد جروسيوس Grosious ذلك التاريخ بأنه كان في عام ١٨٣ قبل الميلاد . وتفيد المصادر أن الجزيرة المقصودة هي الآن شبه جزيرة متصلة بجزيرة البركان في الجهة الشمالية منها ، والبركان الذي سبب ظهور هذه الجزيرة هو البركان الصغير (Vulcanello) .

وقد بقيت تلك الجزيرة منفصلة عن جزيرة البركان ببرزخ يضيق كلما توالى النشاط البركاني في البركانين المتجاورين ، وقد حدث ذلك في فترات متفاوتة ، منها ما حدث في القرن السادس الميلادي وكذلك النشاط الذي سجلته المصادر العربية في العصر الوسيط والذي انتهى بالانفجارات العظيمة التي تمت في عام ١٥٥٠م حيث تم الاتصال بين الجزيرتين . وقد قبل بتاريخ نشأة «البركان الصغير» (عام ١٨٣ ق . م) كتاب الأدميرالية البريطانية ، كما قبل به جود (Judd 1875) ودي فوار (Defoir 1922) وهما ممن درس وأرّخ لسنوات نشاط «البركان» . وأصبح هذا التاريخ شائعا في أدبيات هذا الموضوع (انظر شكل رقم ٣) .

وتحاول بعض الدراسات الأدبية الحديثة للأوديسة التشكيك في تاريخ ظهور البركان الصغير . فيرى «بوكوك L. G. Pocok's» -على سبيل المثال- أن هوميروس قد وصف الإقليم المألوف عنده ، وأن الأماكن المذكورة في «الأوديسة» هي أماكن حقيقية وليست خيالية كما يعتقد البعض ، وبعد دراسة مستفيضة للأماكن المذكورة في «الأوديسة» يرى «بوكوك» أن :

خاربديسCharybdis هي البركان الصغير Vulcanello .



شكل (٣)

سكيلا Scylla هي جزيرة البركان Vulcano .

بلانكتاي Planctae هي جزيرة ليباري Lipari .

وإذا ما كانت الأوديسة قد كتبت حوالي عام ٨٠٠ ق . م . كما يذكر أغلب الباحثين ، فلابد أن الجزيرة التي انبثقت من البحر حسب ما ذكره «بليني» هي جزيرة أخرى خلال جزيرة البركان الصغير .

وبغض النظر عن التاريخ الدقيق الذي ظهر فيه البركان الصغير في صورة جزيرة منفصلة ، فإن حجما كبيرا من الرماد والمقذوفات البركانية قد أضيفت إليه خلال الانفجارات التي حدثت فيه عام ١٢٦ ق . م وعام ٩١ ق . م ، وكانت الإرسابات الناتجة كافية لبناء سطح محيط بالبركان . مما جعل

الجغرافي المؤرخ اليوناني سترابو (Strabo) (٦٣ ق . م ـ ٢٤م) يرى أن ميلاد الجزيرة كان عام ١٢٦ ق . م وأن قاعدة الجزيرة قد اكتملت في أواخر القرن الأول قبل الميلاد .

ويحتمل أن الاختلاف حول زمن ظهور البركان مردُّه إلى أن المخروط البركاني في بدايته قد يتعرض لتدمير الأمواج في وقت قصير ، ثم يحدث أن يثور مرات أخرى فيضيف مقادير جديدة من الإرسابات في كل مرة ، مما يجعله يظهر ويختفي في بداية نشأته إلى أن تجمعت حوله إرسابات قادرة علي حمايته . وهذا ما أدى إلى تضارب الآراء حول تاريخ ميلاد ذلك البركان[1] .

ويهمنا من الاستطراد السابق أن نتوقف عند أمرين وردا في الكتابات العربية ، وبصورة خاصة كتابات أبي عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ) ؛ وابن جبير (٦١٤هـ) ؛ أولهما القول إن هناك «جزيرتين تخرج منهما النار دائما» تقعان شمال جزيرة صقلية . ويوحي هذا النص إذا قرئ في عجلة بالحكم بأن الجزيرتين المقصودتين هما جزيرة البركان وجزيرة سترمبولي ، غير أن المتتبع للنصوص اليونانية والرومانية يستنتج أن ما ذكره البكري وابن جبير لا يعدو أن يكون جزيرة البركان وجزيرة البركان الصغيرة (Vulcanello) التي كانت في أيامهما جزيرة منفصلة عن جزيرة البركان . ويؤكد ذلك أن ابن جبير قد

---

(١) اعتمدنا في هذا الجزء أساسا على:

- Bullard, F. M. (1976): Volcanoes of the Earth Univ. of Texas Press, U.S.A., p.p. 230-233.
- Sheridan, M. F., G. Frazzetta, G. and Lavolpe, L. (1987): "Eruptive histories of Lipari and Vulcano, Italy, during the past 22,000 years". Geological Society of America, Special Paper 212. p. 33.

قال ذلك نتيجة مشاهدته لتلك الظاهرة في أثناء إبحاره من «مسينا» إلى «بالرمو» ، والجزيرتان قريبتان من الطريق البحري الذي لا يبعد كثيرا عن الساحل الشمالي لصقلية . أما جزيرة سترمبولي فتبتعد أكثر من أربعين كيلو مترا عن الطريق البحري المذكور ، وعليه فمن المتعذر مشاهدة البركان بالوضوح الذي نستشفه من نص ابن جبير .

أما الأمر الثاني فهو نص البكري المتعلق بحداثة نشأة البركان الصغير (Vulcanello) الذي كان في البداية جزيرة منفصلة .

وقد أشار نص البكري أيضا إلى ما جاء في الميثولوجيا اليونانية عن إيولس إله الريح الذي كان يتنبأ بالأحوال الجوية ، يقول البكري : «ومن العجائب أن النار في إحدى الجزيرتين حديثة ، ولم تكن بها من قبل ، وهاتان الجزيرتان وما يليهما تسمي جزائر أوليا ، سميت باسم أولين بن يكتو (كذا) الذي ذكرت فلاسفة الجاهلية أنه كان أميرا لتلك الجزائر ، وكان يُعْلِم أهلها بما يحدث في الرياح لتجارب حفظها فاتخذوه إلها»[1] .

ولم يشر البكري إلى مصدره في هذا الموضوع ، ومن المحتمل أن يكون قد أخذ عن كتاب «تاريخ العالم» لأوروسيوس Orosius[2] الذي عاش في القرن الخامس الميلادي ، وقد ترجم هذا الكتاب في الأندلس أيام الحكم الثاني المستنصر بالله (ت ٣٦٦هـ) واستفاد منه عديد من المؤرخين والجغرافيين

---

(١) البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص ص ٢١٨، ٢١٩.

(٢) أوروسيوس: تاريخ العالم (الترجمة العربية القديمة) تحقيق د. عبدالرحمن بدوي، بيروت، ١٩٨٢م.

الأندلسيين والمغاربة ويظهر نقل البكري عنه في ثلاثة مواضع أحدها في أثناء كلامه عن صقلية[1] .

ويحتوي كتاب «تاريخ العالم» على عدد من النصوص التي تشير إلى اهتمام أوروسيوس بما تعرضت له صقلية من كوارث بسبب البراكين ، وتركز هذه النصوص على بركان إتنا ، وتشير إليه باسم «جبل البركان» ، مما يفيد أن مصطلح البركان قد استخدم للدلالة على تلك الظاهرة في اللغة اللاتينية منذ القرن الخامس الميلادي . ومن النصوص التي أوردها أوروسيوس في هذا الموضوع :

(أ) «وفي ذلك الزمان (حوالي ٣٩٨ ق . م) كانت بجزيرة صقلية زلازل عظيمة ، وهاجت نيران جبل إتنا وهو جبل البركان الذي بها . وخرجت منه نيران وشرر مُحرقة لكل ما وقعت عليه ، فأحرقت كثيرا من الفحوص» (ص ٢٠١) .

(ب) «وفي بعض ذلك الزمان ، إذ كان الوزيران بمدينة روما مركه بن أميليش (Marcus Aemilius) ولوجيس بن ورسطس (Lucius Orestes) اهتز جبل إتنا الذي بصقلية الذي فيه النار ، وتزلزل تزلزلا شديدا وخرجت منه نيران كثيرة فأحرقت ما وقعت عليه . ثم نظر الناس في اليوم الثاني إلى جزيرة ليبرة (Lipari) تحترق والبحر الذي حولها يغلي حتى احترق كل ما كان

---

(١) انظر المقدمة القيمة التي صدّر بها الدكتور عبدالرحمن بدوي كتاب أوروسيوس (المصدر السابق) وبخاصة ص ٢٣، ٢٤ التي تضمنت مواطن استفادة البكري من كتاب أوروسيوس. وأيضا الدراسة التفصيلية الرائدة التي قام بها الدكتور حسين مؤنس حول هذا الموضوع في كتابه «تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس»، مدريد ١٩٦٧م، ص ص ١٨ ـ ٢١ و٣٠ ـ ٥٥.

على ريفه (ساحله) حتى ذابت الصخور والأجراف . واحترقت الحيتان فظهرت على وجه الماء منضوجة مشتوية ، وهلك كل من جاور ذلك الموضع من الناس من شدة استحرار الهواء ، إذ صار النسيم محرقا قاتلا ، فماتوا حرًا وغمًا» (ص ٣٣٦) .

(ج) «وفي ذلك الزمان (حوالي ١١٨ ق . م) اشتعل جبل البركان الذي بصقلية فوق اشتعاله المعروف به ، حتى جرت منه خنادق بالنيران وأحرقت مدينة قطانية (Catania) وأفنيتها ، وأحرقت السقف وصارت رمادا» (ص ٣٤٠) .

ولم نجد النص الذي نقله البكري في المطبوع ، وربما مَردّ ذلك إلى كون النسخة العربية الفريدة من الكتاب المحفوظة في مكتبة جامعة كولومبيا في نيويورك (رقم X.993.712 H.) تنقصها بعض أوراق في أولها وينقصها جزء كبير آخر في آخرها ، كما أنها مصابة بقطوع كثيرة من فعل الأرضة ، وأوائل الكثير من الصفحات متآكل تعسر قراءته .

(٢) وتفيدنا المصادر العربية أن «البركان» كان نشطا خلال القرون الرابع والخامس والسادس الهجرية . وقد سجل ذلك عدد من الرحالين والجغرافيين العرب ، ومن هؤلاء الرحالة ابن جبير الذي شاهد «البركان» وجزيرة البركان الصغير والدخان صاعد منهما وذلك يوم عبوره البحر من مسينا إلى بالرمو في ١٩ من رمضان ٥٨٠هـ الموافق ١٩ من ديسمبر ١١٨٤م . ومثل هذه الإشارات تسد ثغرة مهمة في الدراسات التاريخية المعاصرة المتعلقة بتطور هذا البركات وسنوات نشاطه .

وقد أكدت المصادر الجغرافية والجيولوجية أن جزيرة «البركان الصغير» كانت منفصلة عن جزيرة البركان ، وآخر إشارة مبنية على المشاهدة في المصادر العربية كانت لابن جبير ، وأول إشارة في العصر الحديث إلى الجزيرتين كانت في التقرير الذي كتبه فرازيلو (Frazello) أحد مواطني صقلية ، الذي وصف الانفجار العظيم الذي حدث في الرابع من فبراير عام ١٤٤٤م ، وذكر فيه أن «البركان الصغير» Vulcanello مازال منفصلا عن «جزيرة البركان» بقناة ضيقة[١] . ولم تتصل الجزيرتان البركانيتان إلا بعد قرن من ذلك الزمان (١٥٥٠م كما قدمنا) .

(٣) إن وصف المصادر العربية لثوران «البركان» واهتمامهم به على خلاف باقي البراكين يؤكد أن لهذا البركان عندهم خصائص طبيعية مميزة . ويتمثل ذلك بعظم مقذوفاته البركانية التي وصفها المسعودي بأنها «أجسام من النار كأجساد الناس بلا رؤوس» كما يتمثل ذلك في وفرة الدخان المنبعث من فوهته ، وفي الأصوات العالية الناشئة عن انفجاره .

وهذه الأوصاف تتفق مع التقرير الذي أعدته لجنة إيطالية حول أحدث انفجار لذلك البركان ، الذي بدأ في ٣ أغسطس ١٨٨٨م واستمر حتى ١٧ مايو ١٨٩٠م[٢] ، ويذكر ذلك التقرير أن انفجار البركان صاحبه فوران دخان كثيف نشر الرماد والحجر فوق مساحة واسعة ، وأن الانفجارات العنيفة

---

(1) Bullard (1976): 233.

(2) Ibid, p.p. 234-235.

راجع أيضا:

Mcdonald, G.A. (1972): Volcanoes. New Jersey, U.S.A, p.p. 221-225.

المتتالية قد أدت إلى تحطيم النوافذ في مدينة ليباري على بعد ستة أميال من البركان ، وتعمل تلك الانفجارات على إزالة السدادة البركانية (Volcanoes Plug) وتطاير مكوناتها في صورة كتل كبيرة غير معتادة من القنابل البركانية (Bombs) . وقد بلغت أبعاد إحدى المقذوفات البركانية ٩×٦×٦ أقدام ، وكانت عبارة عن كتلة من صهير قديم مغطاة بقشرة سمكها ٤ بوصات من السبج أو الزجاج الطبيعي (Obsidian) .

وذكر التقرير أن انفجار هذا البركان لا يصحبه لابة سائلة أو متدفقة خارج الفوهة ، كما هو الحال في البراكين الأخرى ، ولكن يلاحظ وجود توهج فوق فوهة البركان بعد كل انفجار يشير إلى وجود مواد منصهرة داخل الفوهة ، ويكون توهجها واضحا بالليل . وهذه صفة خاصة بهذا النمط من البراكين .

والجدير بالذكر أن ابن جبير حينما تكلم عن بركان إتنا في صقلية كانت أهم خاصة ذكرها فيه «أن نارا تخرج منه في بعض السنين كالسيل العرم ، فلا تمر بشيء إلا أحرقته حتى تنتهي إلى البحر فتركب ثبجه على صفحه حتى تغوص فيه»[1] فهو هنا يشير إلى تدفق اللابة من ذلك البركان في حال ثورانه ، ولا نجد هذا الوصف عند حديثه عن «جزيرة البركان» .

ومن أجل تلك الخصائص الطبيعية التي يتميز بها ثوران «البركان» فقد استخدم اسمه علما على مجموعة البراكين المماثلة له .

(١) ابن جبير: ص ٣٠١.

(٤) يعطي نص البكري الفريد عن تعدين الكبريت في جزيرة البركان والمشتغلين به إضافة جديدة حول هذا الموضوع ، ولو عرف مصدر البكري على وجه التحديد لأمكن معرفة تاريخ استغلال ذلك المعدن .

وقد حصلت شركة اسكتلندية علي امتياز استغلال الكبريت في جزيرة البركان بعد منتصف القرن التاسع عشر بقليل ، وقامت بأعمال تعدينية وكيميائية واسعة ، غير أن ذلك لم يستمر حيث دمر كل ذلك الانفجار الذي حدث عام ١٨٧٣م ولم يعد هناك من يستغل الكبريت منذ سنوات طويلة .

* * *

وقد اعتنى العرب بتسجيل فترات النشاط اللابي في كتبهم ، ويتضح ذلك جليا فيما كتبوه عن الانبثاقات اللابية التي حدثت على طول أحد الصدوع الواقعة شرقي المدينة المنورة سنة ٦٥٤ هجرية (١٢٥٦م) والتي دام نشاطها قرابة ثلاثة أشهر . وقد كان من فرط اهتمامهم بها أن كتب أحد العلماء كتابا أفرده لهذه الظاهرة .

وفي عام ٨٣٦هـ (١٤٣٢م) يسجل العمري ظهور نار في جزيرتين في البحر الغربي (البحر المتوسط) «يقال لواحدة منهما جزيرة السردانية فأحرقت الجزيرتين وارتفع دخان عظيم وفيه رعد وبرق ، ثم أمطرت بعيدا عن الجزيرة على جبل هناك»[١] .

وسجلت المصادر العربية أيضا العديد من الثورانات البركانية التي

(١) العمري، ياسين خيرالله: الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، مخطوط بالمكتبة البريطانية، لندن، ورقة رقم ٨٨.

صاحبت أحداث الزلازل في اليمن ، من أبرزها ما حدث في عدن عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) ، وفي جبال الأبعلة الواقعة في البحر الأحمر ، وفي مصوع عام ١٠٣٨هـ (١٦٢٨م) وفي الجبل المقابل للمخا في غربي اليمن عام ١٠٩٠هـ (١٦٧٩م) وغيرها[١] .

(١) عبدالله يوسف الغنيم: سجل الزلازل العربي، الكويت ٢٠٠٢م، ص ٣٨٠.

المصادر والمراجع

- **الإدريسي محمد بن محمد** : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، روما ١٩٧٥م .
- **أوروسيوس** : تاريخ العالم ، تحقيق عبدالرحمن بدوي ، بيروت ١٩٨٢م .
- **البكري ، عبدالله بن عبدالعزيز** : جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٨م .
- **ابن جبير ، محمد بن أحمد** : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٤م .
- **حسين مؤنس** : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ١٩٦٧م .
- **ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي** : كتاب صورة الأرض ، بيروت (د . ت) .

الزهري ، محمد بن بكر : كتاب الجعرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، بيروت (د . ت) .

- **صلاح البكري** : حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي ، القاهرة (د . ت) .
- **العمري ، ياسين خيرالله** : الآثار الجلية في الحوادث الأرضية ، مخطوط بالمكتبة البريطانية ، لندن ، ورقة ٨٨ .
- **الغنيم ، عبدالله يوسف** : سجل الزلازل العربي ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، الكويت ٢٠٠٢م .
- **الغنيم ، عبدالله يوسف** : «البراكين والحرات والحمات في التراث العربي» بحث منشور في سلسلة رسائل جغرافية ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، العدد ١١٧ ، الكويت سبتمبر ١٩٨٨م .
- **أبو الفداء ، إسماعيل بن علي** : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م .
- **القزويني ، زكريا بن محمد** : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٩م .
- **المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين** : التنبيه والإشراف ، تحقيق عبدالله الصاوي ، القاهرة (د . ت) .
- **المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين** : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ١٩٦٤م .
- **ابن منظور** ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، بولاق ١٣٠٣هـ .
- **الهمداني ، الحسن بن أحمد** : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، الرياض ١٩٧٤م .

- Bates, R. and Jackson, A. (1982): Glossary of Geology, 2ed., American Geological Institutem p. 690.
- Bullard, F. M. (1976): Volcanoes of the Earth Univ. of Texas Press, U.S.A., p.p. 230-233.
- Sheridan, M. F., G. Frazzetta, G. and Lavolpe, L. (1987): "Eruptive histories of Lipari and Vulcano, Italy, during the past 22,000 years". Geological Society of America, Special Paper 212 p. 33.

Mcdonald, G.A. (1972): Volcanoes. New Jersey, U.S.A, p.p. 221-225.

الدَّحل والدُّحلان في المصادر العربية القديمة

مقدمة:

الدحل والدحلان حُفر ومغارات تتكون في طبقات الحجر الجيري وتكثر في إقليم الصَّمان بالجزيرة العربية . وتنشأ هذه الظاهرة في معظم الأقاليم الكارستية في العالم . ومن المصطلحات الحديثة المستخدمة للدلالة عليها «الحفر البالوعية» ترجمة لكلمة Swallow hole وهو تعبير غير دقيق ، فالحفر البالوعية أو البلُّوعات في اللغة العربية تدل على ظاهرة بشرية ، أما الدُّحلان فهي ظاهرة طبيعية محضة .

وقد شغلتني هذه الظاهرة الطبيعية منذ دراستي الأولى في الجامعة ، وذلك من خلال اطلاعاتي في المعاجم العربية وكتب الجغرافيا العربية القديمة ، وما جاء في شروح الشعر العربي القديم ، فنشرت في مجلة «البيان» التي تصدرها رابطة الأدباء في الكويت مقالا بعنوان «**الدحل والدحلان في الجزيرة العربية**» وذلك في عدد ديسمبر ١٩٦٩م . وفي شهر يناير عام ١٩٧٥م قمت بدراسة ميدانية استكمالا لمتطلبات رسالة الدكتوراه من قسم الجغرافيا بجامعة القاهرة حيث تجولت في معظم أرجاء شبه الجزيرة العربية ، ومنها منطقة الصمان تعرفت فيها عن قرب على تلك الظاهرة ودخلت بعض الدحول فيها ، وبينت أسباب نشأتها وعلاقتها بالمظاهر الجيمورفولوجية الأخرى التي تتأثر بعمليات الإذابة المائية . وكان ذلك من أوائل ما كتب عن تلك الظاهرة من الوجهة العلمية[١] .

(١) عبدالله يوسف الغنيم: أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية، الكويت ٢٠٠٥م ص ٢٨٧ وما بعدها.

وفي عام ١٩٩٨م أصدر الأستاذ سعد بن عبدالعزيز الشبانات كتابا في مجلدين بعنوان «الصمان» ، وهو دليل جغرافي قيم لمناطق الصمان حدد فيه موقع ٢١ دحلا من دحلان الصمان . ثم أصدرت هيئة المساحة الجيولوجية السعودية كتابا باللغتين العربية والإنجليزية بعنوان «الكهوف الصحراوية في المملكة العربية السعودية» (الرياض ٢٠٠٣م) ، ويتضمن ذلك الكتاب تعريفًا بأهم الدحول في منطقة الصمان مع صور رائعة قام بالتقاط معظمها جون بنت وزوجته سوزي اللذان قاما باستكشاف دحول الصمان ابتداء من عام ١٩٨١م ، ثم في عام ٢٠٠١م انضما إلى ماهر إدريس ومحمود الشنطي حيث بدأوا جميعا بدراسة تلك الكهوف لصالح مصلحة المساحة الجيولوجية السعودية .

وفي اعتقادي أن دراسة دحلان الصمان مازالت في حاجة إلى مزيد من البحوث التحليلية التي يمكن أن تقدم المزيد من المعلومات للباحثين في المجال الجيمورفولوجي والجغرافي .

والبحث التالي هو نص ما نشرته عام ١٩٦٩م في مجلة البيان أضفت إليه ما استجد لي من مطالعات في هذا الموضوع ، لنتبين من خلال ذلك صورة هذه الظاهرة الأرضية في كتب التراث العربي القديم .

أولاً- الدحل في معاجم اللغة وكتبها:

تحفل معاجم اللغة العربية وكتبها بمادة جغرافية كبيرة ومتنوعة، وما أحرانا أن نتتبع المظاهر المختلفة التي تحملها لنا هذه المادة، وعلى الأخص فيما يتعلق بجزيرتنا العربية من الناحيتين الطبيعية والبشرية. وقد لفت انتباهي في أثناء مطالعاتي بعض هذه المظاهر التي لها اتصال بهذا الموضوع ومنها «الدُّحول أو الدُّحلان» ومفردها دَحْل حيث استطعت أن أجمع مجموعة من النصوص في معاني هذه الكلمة ودلالاتها المتباينة.

وسوف نورد فيما يلي أهم ما اشتملت عليه كتب اللغة ومعاجمها في معاني الدَّحْل وأشكاله المختلفة:

(١) قال ابن دريد في جمهرة اللغة (٢٢٣ - ٣٢١هـ): «الدَّحل حفرة غامضة في الأرض تضيق من أعلاها وتتسع من أسفلها حتى يُمشى فيها وربما ينبت السِّدر، هكذا يقول الأصمعي، والجمع دُحُول وأدْحُل ودحَال. قال أبو النجم العجلي:

وهي على عَذْبٍ رويّ المنْهَل

دَحْلِ أبى المِرْقَال خَيْرِ الأدْحُل[1]

(١) ذكر هذا الرجز في كتاب الطرائف الأدبية، صححه وخرّجه الأستاذ عبدالعزيز الميمني، القاهرة ١٩٣٧م ص ٦٧ وفيه «رواء المنهل». وأبو المرقال كنيته الزفيان واسمه «عطاء بن أسيد أحد بني عوافة» وهو راجز محسن. هذا ولم أستطع تحديد دحل أبي مرقال هذا، إلا أنه في الغالب في ديار بني تميم في شرق الجزيرة لأن أبا المرقال من بني عمرو بن تميم، انظر التاج «رقل» و«زفى». انظر أيضا معجم الشعراء للمرزباني ص ١١٣.

(٢) جاء في تهذيب اللغة للأزهري (٢٨٢ ـ ٣٧٠هـ) : «قال الليث : الدَّحل : مدخل تحت الجُرف أو في عرض خشب البئر في أسفلها ، ونحو ذلك من الموارد والمناهل . قال ورب بيت من بيوت الأعراب يجعل له دحل تدخل فيه المرأة إذا دخل عليهم داخل ، والجمع الأدحال والدُّحْلان .

«قال أبو عبيد : الدَّحْل : هُوَّة تكون في الأرض وفي أسافل الأودية فيها ضيق ثم تتسع ، قال ذلك الأصمعي .

«قلت : وقد رأيت بالخلصاء[١] ونواحي الدهناء دحلانا كثيرة ، وقد دخلت غير دحل منها وهي خلائق[٢] خلقها الله تحت الأرض يذهب الدحل منها سكا في الأرض قامة أو قامتين أو أكثر من ذلك ، ثم يتلجف يمينا أو شمالا ، فمرة يضيق ومرة يتسع في صفاة ملساء لا تحيك فيها المعاول المحددة لصلابتها ، وقد دخلت منها دحلا ، فلما انتهيت إلى الماء إذا جو من الماء الراكد فيه لم أقف على سعته وعمقه وكثرته لإظلام الدحل تحت الأرض ، فاستقيت أنا مع أصحابي من مائه ، وإذا هو عذب زلال لأنه من ماء السماء يسيل إليه من فوق ويجتمع فيه . وأخبرني جماعة من الأعراب أن دحلان الخلصاء لا تخلو من الماء ولا يستقى منها إلا للشفة والخبل[٣] لتعذر الاستقاء منها وبعد الماء فيها من فوهة الدحل»[٤] .

---

(١) قال الأزهري: الخلصاء بلد بالدهناء معروف.

(٢) جاء في اللسان: «الخليقة الحفيرة المخلوقة في الأرض، وقيل هي الأرض وقيل هي البئر التي لا ماء فيها وقيل هي النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء، وقيل الخليقة البئر ساعة تحفر».

(٣) في معجم البلدان: «للشفاء من الخبل».

(٤) الأزهري، أبو منصور محمد بن محمد: تهذيب اللغة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٧م، المجلد ٤، ص ٤١٨، ٤١٩.

(٣) قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (ت ٣٩٥هـ) : «دَحَلَ : الدال والحاء واللام يدل على تلجُّف في الشيء وتطامن ، فالدحل المطمئن من الأرض ، والجمع الدحول ويقال بئر دحول ذات تلجف ، وذلك إذا أكل الماء جرابها ، فأما الدحل في خلق الإنسان فيقال هو العظيم البطن ، وهذا قياس الباب ، لأنه يدل على سعة وتلجف»[1] .

(٤) جاء في فرحة الأديب للأسود الغندجاني[2] ، عن ابن السيرافي ، قال رؤبة :

لولا ترَقّيَّ على الأشرافِ

ألحمتني في النفنف النفنافِ

في مثل مَهْوَى هوَّة الوصّافِ

قولك أقوالا مع التحلافِ

فيها ازدهافٌ أيَّما ازدهافِ

والله بين القلب والأضعافِ

قال : الهُوَّة : الوَهْدَة ، والمَهْوى : ما بين أعلى الشيء وأسفله ، والوصّاف : رجل من أهل البادية ، أضاف الهوّة إليه .

(١) أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٣٦٦هـ الجزء الثاني ص ٣٣٢.

(٢) الأسود الغندجاني، أبو محمد الأعرابي: فرحة الأديب في الرد على السيرافي في شرح أبيات سيبويه، دار ابن قتيبة، دمشق ١٩٨٠م، ص ص ١٧٤ ـ ١٧٦. وانظر ياقوت: معجم البلدان (٤/ ٩٩٦).

قول ابن السيرافي : الوَصّاف هاهنا رجل من أهل البادية يدل على أنه كان ضعيفا في علم النسب . وقوله الهوّة : الوهدة ، يدل أيضا على ضعفه -كان- في معرفة منازل العرب ومناهلها ، وأي فائدة في قوله : إن الوصّاف رجل من أهل البادية ، وسواء كان بدويا أو حضريا- إذا لم تعرف اسمه وسببه .

هوّة الوصّاف في شعر رؤبة دَحْل بالحَزن لبني الوَصّاف من بني عجل . والوصّاف : هو مالك بن عامر بن كعب بن سعد بن ضُبيعة بن عجل بن لجيم . وهوّة الوصاف : مثل في العرب ، يستعملونه في الدعاء على الإنسان ، وأنشد للهدّار بن حكيم يدعو على مُقْرف :

من غال أو أقرف بعض الإقرافْ

فخصّه الله بحُمّى قرقافْ

وبحميم مُحْرق للأجوافْ

والزمهرير بعد ذاك الزفزاف

وكبَّهُ في هوّة ابن الوصّاف

حتى يُعدَّ قبره في الأجداف

(٥) في أساس البلاغة للزمخشري (٤١٧ ـ ٥٣٨هـ) : «دَحَل : توارى في الدَّحْل وهو حفرة غامضة ضيقة الأعلى واسعة الأسفل . تقول طلبوا بالذحول فتواروا في الدَّحول ، ونصب الصائد الدواحيل ، وهي مصائد للحمر ، الواحد داحول . وبئر دحول : ذات تَلَجُّف وهو تكسّر جوانبها مما أكلها الماء»[1] .

(١) الزمخشري، محمود بن عمر: أساس البلاغة، القاهرة ١٩٦٠، ص ٢٦٥.

(٦) وجاء في لسان العرب لابن منظور (٦٣٠ ـ ٧١١هـ) : «الدَّحْل : نقب ضيق فمه ثم يتسع أسفله حتى يمشى فيه ، وربما أنبت السِّدر وقيل هو مدخلٌ تحت خشب الجُرُف أو في عرض البئر في أسفلها ، ونحو ذلك من الموارد والمناهل . الجمع أدْحُل ودحال ودُحُول ودُحْلان»[1] .

ثم نقل ما ذكره أبو عبيد والأزهري .

وفي مادة (جرف) يقول ابن منظور : «وجُرْف الوادي ونحوه من أسناد المسايل إذا نخج الماء في أصله فاحتفره فصار كالدحل ، فإذا انصدع فهو هار ، وقد جرف السيل أسناده» .

(٧) ولم يخرج الفيروز آبادي في قاموسه (٧٢٩ ـ ٨١٦هـ) عما ذكرناه في المعاجم السابقة إلا أنه أضاف أن الدحل :

«الركية تحفر فيوجد ماؤها نحت أجوالها فتحفر حتى يستنبط ماؤها ، والبئر الواسعة الجوانب ، وناقة تعارض الإبل متنحية عنها ، وكمنع حفر في جوانب البئر أو صار في جوانب الخباء . والداحول ما ينصبه الصائد للحمر كأنها طرادات ، الجمع دواحيل ودحلان . ودحل عني كمنع تباعد أو فرَّ واستتر وخاف ، ودخل في الدحل كأدحل ، وداحله راوغه وخادعه وماكسه وكتم مع علمه وأخبر بغيره ، وككتاب الامتناع . ودحل موضع قرب حزن بني يربوع ، وبالضم جزيرة بين اليمن وبلاد البجه ، والدحلاء البئر الضيقة الرأس»[2] .

(٨) قال الزبيدي (١١٤٥ ـ ١٢٠٥) : «وأما ما تعتاده الشعراء من ذكرها الدحل من أسماء المواضع كقول ذي الرُّمة :

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بولاق ١٣٠٢هـ (١٣/ ٢٥٢).
(٢) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، القاهرة ١٩٥٢م (٣/ ٣٨٥).

إذا شــئت أبكاني بجـــرعـــاء مـــالك

إلى الدَّحْل مـسـتـبـدى لمى ومـحـضـر

فقد يكون سُمِّي الموضع باسم الجنس ، وقد يجوز أن يكون غلب عليه اسم الجنس»[1] .

وقد أورد الزبيدي قبل هذا ما جاء في كتب اللغة قبله عن الدحول .

ثانيا- الدحل في كتب البلدان:

تفيدنا كتب البلدان والجغرافيا القديمة في بيان مواقع الدحلان التقريبية ، وقد حددت تلك الكتب مواقعها في منطقتي الصَّمان وحزن بني يربوع أي في مناطق الصخور الجيرية الممتدة في شرق الجزيرة العربية وشمالها الشرقي ، وفيما يلي بيان ما جاء في كتب البلدان :

(١) قال الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب : «ثم الصَّمَّان ، ومياهه دحول تحت الأرض مُخَرَّقة في جَلَد الأرض ، منها ما يكون سبعين بوعا ومائة بوع تحت الأرض وأقل وأكثر ، منها دحل العيض ، ومنها دحل أريكة بالصَّحصحان ، ومنها دحل السمرات ، ومنها الدحل الضبِّي ، يكون ماؤها من ماء السماء عذب ، وبالصَّمان المصانع ، وهي معمولة من الأرض غُدر مرصوفة بالصفا من جوانبها ، وليس بالصمان ماء عدّ إلا ما كان من مياه العرمة قربها»[2] .

---

(١) الزبيدي، السيد محمد مرتضى: تاج العروس، بولاق ١٣٠٧هـ (٧/ ٣١٨، ٣١٩).

(٢) الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٤م، ص ٢٨١.

وذكر الهمداني أيضا الدحلان عند كلامه عن ديار تميم ، فأشار إلى عدد من المواضع القريبة من الدحلان مثل جرعاء مالك وفتاخ وحوضى وغيرها ، وذكر الدَّحل باعتباره علم على مكان بعينه ، ودحول هُبالة «وهي شقوق في الأرض عميقة يكون فيها الماء»[١] .

(٢) قال الحسن بن عبدالله الأصفهاني (من علماء القرن الثالث الهجري) :
«فأول ما تستقبل من الصمَّان ، حين تدخله ، دحل على الطريق ، يقال له خُريشيم ، وربما دخلته الواردة ، إذا احتاجوا إلى الماء»[٢] .

(٣) قال أبو عبيد البكري(٤٣٢ ـ ٤٨٧هـ) :

«(دحل) : بفتح أوله ، وإسكان ثانية واد يتصل بسرار في ديار بني مازن» ، «ويقال الدحل ، بالألف واللام ، وربما قيل أدحال ، فجمع .

قال ابن مقبل يصف حمارا :

وَرَّاد أعْلَى دَحْل يهدج دونه

قَرَبا يُوَاصله بخِمْس كامل[٣]

قال أبو حاتم : دحل اسم أرض أو شيء مؤنث كالعين أو نحوها ، ولذلك لم يصرفه . وقال الأخطل :

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٣٣.
(٢) الأصفهاني، الحسن بن عبدالله: بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، دار اليمامة، الرياض، ص ٣١٢.
(٣) ابن مقبل، تميم بن أبي مقبل (القرن الأول الهجري): ديوان ابن مقبل، تحقيق عزة حسن، دمشق ١٩٦٢م، ص ٢٢٢.

في مُظْلمٍ غَـــدَق الرَّبَاب كَـــأَنَّمــــا

يُسْـــقي الأشق وعــــالجـــاً بدوالي

وعـلــى زُبَــالـــة بَـات مـنـــه كَـلْـكـلٌ

وعلى الكثـــيبِ فَـــقُنَّة الأدحـــال

وعلى البُـسَـيْطَةِ فـالشَّــقِيـقِ بِرَيِّق

فــالضَّـــوْجِ بين رويَّة فطِحَـــالِ[1]

«(الدحول» بفتح أوله ، على وزن فعول ، وهو ماء لبني العجلان ، قاله أبو حاتم ، وأنشد لابن مقبل :

وحَـــوْم رأينا بالدَّحـــول ومـــجلس

تَعَـــادي بجِنَّان الدَّحُـــول قَنَابله[2]

شبه الفرسان بالجن ، كما قال زُهَير :

بخَيل عليـهـا جِنَّة عـبـقـريةٌ

«وقال غيره : الدحول : بئر معروفة في أرض عُكْل ، نميرة الماء ، وكان نَازعَ فيها النَّمر بن تَوْلَب رجل من قومه ، فقال النَّمِر :

(١) «زبالة منزل معروف بطريق مكة من الكوفة وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية. وقال أبو عبيد السكوني: زبالة بعد القاع من الكوفة وقيل الشقوق. دحل: واد متصل بسرار من ديار بني مازن ويقال الدحل بالألف واللام وربما قيل أدحال للجمع» شعر الأخطل رواية أبي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٨٩١م، ص ١٥٧. وفي الديوان «فقلّة الأدحال» باللام.

(٢) شعر الأخطل: ص ٢٤١ وروايته فيه «وحي حلال قد رأينا ومجلس».

ولـكـن الــدَّحُـــــــــــول إذا أتــاهــا

عِـــجَـــافُ المال تَتْــرُكُـــه سِـــمَـــانا

ويروى «ولكن اللحود» وهو ماء معروف»[1] .

ومن أشهر الدحلان التي ذكرها البكري دحل «يُسُر» الذي وُصف بوفرة مائه ، يقول البكري :

«يُسُر : بضم أوله وثانيه ، بعده راء مهملة . وهو دَحْل لبني يربوع بالدهناء ، وقال يعقوب : بالحزْن ، وأنشد لطرفة :

أرَّقَ العَيْـــنَ خَيَـــال لــم يَـقَــرْ طـافَ والركـبُ بصَحْــراء يُسُرْ

وفي شعر الحُطَيْئة يُسُر : ماء دون زُبَالة ، قال :

عطَفْنا العتَاقَ الجُرْدَ حول نسَائكم هيَ الخَيلُ مُسْقاها زُبالةُ أو يُسُر

وقال عديّ بن زيد :

مَــرَّ علــى حُـــرٍّ الكثيـبِ إلى لِينَـــةَ فاغتــال الطِّــرَاقَ يُسُــرْ

لينة : عن يمين زُبالَة . والطِّرَاق : جمعُ طريق . واغـتـيـالهُ لـهـا : ملْؤُه إياها بمائه .

خفّفه جرير ، فقال :

فمــا شَهِدَتْ يومَ الغَبيط مُجاشعٌ ولا نَقَــلانَ الخيــل من قُلَّتَيْ يُسْر

---

(١) البكري، عبدالله بن عبدالعزيز: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٥م (٢/ ٥٤٥، ٥٤٦).

وقال جرير أيضا :

لمّـــا أتَيْـنَ على حَطّـابَتيْ يُسُـرٍ   أبْدَى الهوَى من ضمير القلب مَكْنُونَا(١)

وذكر البكري أيضا أدحال دبّاب ، مشدّد الثاني ، بلد في ديار غطفان ، قال الراعي :

كـأن هنـدا ثناياهـا وبَهْجتهـا   لما التقينا على أدحـال دّبـاب(٢)

(٤) قال الزمخشري (٤١٧ ـ ٥٣٨هـ) في الجبال والأمكنة والمياه :

« (الدحول) موضع وقيل بئر نميرة كثيرة الماء»

« (دحل) موضع » ثم ذكر بيت ابن مقبل «وراد أعلى دحل»(٣) .

(٥) أورد ياقوت (ت ٦٢٦هـ) في معجمه ما ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ، ثم قال :

«والدحائل جمع الجمع وهو موضع فيما أحسب بعينه» .

« (دحل) بفتح أوله وسكون ثانيه ولام قد ذكر تفسيره في الدحائل وهو موضع قريب من حزن بني يربوع ، عن نصر . ودحل ماء نجدي أظنه لغطفان ، وقال الأصمعي : الدحل موضع ، قال لبيد :

فَبَيَّتُ زُرقا من سَرَار بسُحْرَة

ومن دَحْلَ لا يخشى بهن الحبائلا(٤)

---

(١) معجم ما استعجم: (٤/ ١٣٩٥).

(٢) المصدر السابق: (٢/ ٥٤٠).

(٣) الزمخشري، محمود بن عمر: الجبال والأمكنة والمياه، النجف ١٩١٧م، ص ٣٧، ٣٨.

(٤) «بيّت: بلغها ليلا. والزرق صفوة الأمواه، وسرار: اسم موضع أو واد من ديار بني مازن قبل دحل وهو موضع أو واد آخر» شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الكويت ١٩٦٢م، ص ٢٣٨.

وقال أيضا :

حـــتى تَهَــجَّــر بالرَّواح وهَاجَــهــا

طَلبُ المُعَـــقِّب حَـــقَّـــه المظلومُ

فَــتَـصــيَّــفــا مَــاءً بدَحْل سَــاكنا

يَسْــتَنُّ فـــوق سَــرَاته العُلْجُــوم[1]

«دحل : بضم أوله وسكون ثانيه جمع للذي قبله ، وقد ذكر تفسيره : وهي جزيرة بين اليمن وبلاد البجة بين الصعيد وتهامة ، تغزى البجة من هذه الناحية .

الدَّحول : بفتح أوله ماء بنجد في ديار بني العجلان من قيس عيلان»[2] .

وذكر ياقوت من أسماء دحلان الصمان دحل خريشيم ذكره عن الحفصي (٢/ ٤٣١) وذكر أيضا دحل يُسْر ، قال : «يسر ضد العُسر ، وهو نقب تحت الأرض يكون فيه ماء لبني يربوع بالدهناء»[3] وأورد أبيات طرفة عنه .

(٦) جاء في مراصد الاطلاع للبغدادي (٦٨٥ ـ ٧٣٩هـ) :

«الدحائل : جمع الدحلان ، وهي المقابر تحت الأرض . قال هو موضع فيما أحسب» .

(١) في شرح ديوان لبيد فتضيفا بالضاد. ويروى «فتأوبا عينا بدحل روية»، و«الدحل»: غار يكون في أصل الجبل، يكون فيه ماء يضيق من أعلاه ويتسع من آخره. سراته: ظهره. العلجوم ها هنا الموج» ص ١٣٠.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ليبزج ١٨٦٧م، الجزء الثاني، ص ٥٥٧، ٥٥٨.

(٣) المصدر السابق: (٤/ ١٠١٩).

«(دحل) بالفتح ثم السكون . موضع قريب من حزن بني يربوع ، ودحل ماء نجدي : قال أظنه لغطفان . وقيل موضع»[1] .

(٧) الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز للنابلسي :

الرحالة إسماعيل النابلسي من علماء دمشق في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، وقد قام بعدة رحلات ، أكبرها هي هذه الرحلة التي قام بها عام ١١٠٥هـ وانتهى من تدوينها في عام ١١١٠هـ ، وخلال إقامته في المدينة المنورة دوّن القصة التالية :

«وفي يوم الثالث عشر من شوال ، ذكر الشيخ أنه ذهب إلى دعوة صاحبه الحاج علي الشامي الصالحي في جنينته في آخر البقيع .

ثم زاره في اليوم التالي ، وقال : (وكان ممن حضر هناك في المجلس رجل من الثقاة المعتمدين اسمه الحاج عبدالرحمن بن أحمد فواز ، أخبرنا عن رجل يعرفه أنه أخبره أنه كان سائرا مع رفيق له في البراري التي بين الحساء والقصيم بالقاف والصاد المهملة وتلك البراري تسمى بالحجرة بكسر الحاء المهملة وفتح الجيم في نواحي أرض العراق والبصرة وهجَر بالتحريك ، وهذه الأراضي غالبها مفازات ، ماؤها قليل وحرها شديد ، ويوجد في هذه الأراضي حفر على طريقة الآبار لها أفواه متعددة مغطاة بالأحجار تسمى هذه الآبار الدحول بفتح الدال وضم الحاء المهملة على ما هو المشهور بينهم ، وبين كل فم وفم نحو يوم أو يومين أو أكثر أو أقل يتفاوت النزول

(١) البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، القاهرة ١٩٥٤م، الجزء الثاني، ص ٥١٧، ٥١٨.

إلى هذه الآبار ، بعضها ينزل إليه بثلاثين باعا ، وبعضها بأربعين وخمسين وثمانين وتسعين وأكثر وأقل ، فأخبرنا أنهما كانا سائرين في هذه الأراضي فحصل لهما عطش شديد فرأيا رجلا من عرب تلك الأراضي دلهما على فم من الأفواه المذكورة ، فأدليا حبلا ونزل واحد منهما لأجل الماء ، وإذا المكان في غاية الاتساع ، فمكث نحو يوم تحت الأرض في هذا البئر فتحقق رفيقه الذي في الخارج أنه تاه عن فم البئر ، وكان للرجل الذي نزل ناقة فذبحها وأخذ مصرانها ووصله بقطع من جلدها ، قدّه سيورا إلى أن صار في غاية الطول ، ثم تدلى بذلك الحبل الذي تدلى به الأول وأخذ معه الحبل الطويل الذي قدّه من جلد الناقة ومصرانها ووصله بالحبل الذي تدلى به ، ثم ذهب تحت تلك الأراضي وهو ماسك الحبل بيده لخوف الضياع ، ولانقطاعه عن فم البئر ، ومشى كثيرا يمنة ويسرة ، وأخبر أن في داخل تلك الأراضي مياها ورمالا وأشجارا قصارا من الطلح والسلم وغير ذلك ، ولم يجد رفيقه وأخذ معه من دهن تلك الناقة ، وأسرجه لأجل الضوء ، ومكث نحو يوم ، ثم عجز عن لقياه ، فخرج وسار على حاله .

وكان في مجلسنا رجل آخر فأخبرنا بنظير هذه القصة وهو مما يؤيدها ، أنه في سنة ألف ومئة وواحدة ، جاء ركب من البصرة إلى الحج ، فمروا بهذه الأراضي المذكورة وكان بهم عطش شديد فمروا فمًا من أفواه هذه الآبار فنزل رجل منهم ، وأدلوه بحبل نحو تسعين ذراعا حتى تاه تحت الأرض ، ولم يعرف الطريق إلى فم البئر ، ثم إن أصحابه في الخارج رأوا رجلا من عرب تلك الأراضي ، فاستأجروه لينزل ويفتش عن رفيقه بعشرة قروش فنزل من بكرة

النهار إلى العشيّ حتى أنه أخرج ذلك الرجل ، وأخرج لهم ماء وشربوا منه ، ثم ذهبوا . انتهى ما حكي لنا»[1] .

ثالثا- الدحل في كتب الشعر:

تكرر ذكر أشكال سطح الأرض في أشعار العرب وأرجازهم ، ومن ذلك ذكر الدحول لكونها شكلا مميزا من أشكال سطح الأرض . وقد أفادتنا شروح ذلك الشعر في تبين صورة تلك الظاهرة الطبيعية . وقد تباين الشعراء في مرّات ذكرهم للدحلان وكان من أبرزهم ذو الرُّمة الذي كانت منازل قومه بالصمان ، وهي المنطقة التي تكثر فيها الدحلان فلا عجب أن يذكر قفافها ورمالها ورياضها ودحلانها .

وفيما يلي بيان بما ورد عند أولئك الشعراء عن الدحول مع إثبات ما جاء في الشروح المتعلقة بذلك :

(١) قال امرؤ القيس :

يَلُوذُ بالصَّخْر منها بعد ما فَتَرت

منها ومنه على العُقْب الشآبيبُ

ثم استغاثَ بِدَحْلٍ وهي تَعْفُره

وباللّسان وبالشِّدقَيْن تَتْريبُ

قال الشارح : يلوذ : يلجأ ويطيف بالصخر . . وفَتَرت : أي ضعفت عن

(١) النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٤٠٧، ٤٠٨.

العدو . والعُقْب : جريٌ بعد جري . والشؤبوب : دفعة من مطر . . والدَّحْل : هُوة ومدخل في الأرض أو في جبل . وقوله «وهي تعفره» يعني تضرب به التراب ، وهو العفر . وتتريب : «تفعيل» من التراب[1] .

(٢) قال النابغة الذبياني :

كأن قُتُودي والنُّسوع غدا بها

مِصَلٌّ يُباري العُون جَأْبٌ معقربُ

رَعَى الرَّوض حتى نَشَّبَ العذر والتوت

بدحلانها قيعان شَرْج فأيهبُ

«الجأب الحمار الغَليظ ، وكذلك المصَلُّ ، (والعون القطيع من حمر الوحش) ، والمعَقْربُ : المُوثَّق خَلْقا : القُتُود : عيدان الرَّحل ، والنُّسوع سيورٌ مضفورة من أدم ، والدحلان : خُروق تكون في الأرض ، الواحد دحل ، والقيعان واحدها قاع وهي الأرض المستوية ذات التراب ، وأيهب موضع»[2] .

---

(١) الأبيات والشرح من ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٢٢٨. وفي شرح ديوان امرئ القيس، تحقيق حسن السندوبي (الطبعة الخامسة، مطبعة الاستقامة بالقاهرة (د. ت) ص ٧٠) جاءت رواية البيتين مختلفة، ففيه:

يلوذ بالصخر منها بعدما فترت — منها ومنه على الصخر الشآبيب

ثم استغاثت بمتن الأرض تعفره — وباللسان وبالشدقين تتريب

وما ورد في الرواية الأولى هو الصواب، فالأبيات تحكي صورة عقاب انقضت على ذئب، فنالته مخالبها فانسل هاربا من تحتها، وقد أصيب في جانبه، فاستغاث بدحل لجأ إليه ليتقي هجمة العقاب. وهذا هو المعنى الصحيح، إذ لا فائدة من اللجوء إلى متن الأرض.

(٢) ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق: ديوان النابغة الذبياني، بتحقيق الدكتور شكري الفيصل، دار الفكر بدمشق ١٩٦٨م، ص ٧٥. وفي الطبعة التي حققها وشرحها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور من «ديوان النابغة الذبياني»، تونس ١٩٧٦م ص ٥٩، ورد فيها بدل

(٣) قال زهير أبي سلمى :

تربـع صَـــارَةً حتَّى إذا مـــا فَنَى الدُّحْـلان، عنــه، والإضـاءُ

تَرفَّــع، للقَنـان، وكـل فَـــجّ طبـاه الرَّعْـي، منهُ، والخـــلاء

قوله (تربَّع) أي أن حمار الوحشي أقام في الربيع في (صارة) وهي موضع ، ولما أقبل القيظ جفت مياه الدحلان وهي (البئر الجيدة الموضع من الكلأ) والدحل أيضا حفرٌ في جانب البئر المورودة . وجفت مياه (الإضاء) وهي الغدران والواحدة أضاةٌ . فترّفع للقنان ، والقنان جبل لبني أسد بين أرض غطفان وطيّ والفج الطريق الواسع بين جبلين ، وهو مخصب أبدا . و(الرعي) ما يرعى من الكلأ . و(الخلاء) خلو المكان من الناس . وقوله (طباه) أي دعاه ما فيه من الرعي وخلاؤه من الناس ، إلى أن ينتقل إليه ، ويرعاه[1] .

(٤) الأعشى ، ميمون بن قيس :

يصف الشاعر ناقته وعدوها الذي يماثل عدو حمار الوحش الفظ الخشن العشرة الذي ترك الجحش متخلفا يلفه ما أثارته أرجلهما من غبار وراح يدفع أتانه إلى مورد الماء الزلال :

غادر الجَحْش في الغُبار وعَدَّا ها حثيثـا لصُـوَّة الأدحـال

=(بدحلانها) (برجلاتها)، وهو نوع من نبت الربيع، والمعنى أن الغدران قد جفت والخضرة ذوت ويبست. وشرج وأيهب موضعان في بلاد بني أسد.

(١) شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري، تحقيق فخر الدين قباوه، حلب (ط٢) ١٩٧٣م، ص ١٢٩، ١٣١.

الأدحال جمع دَحْل ، وهي حفرة ضيقة الأعلى واسعة الأسفل[1] .

(٥) الراعي النميري :

قال الراعي :

حتى وردْنَ لتـمٍّ خمـسٍ بائـص   جُـدًّا تعاوره الريـاح وبيـلا

سُدُما إذا التمس الدلاءُ نطافه   صَادَفْن مَشربة المثاب دحولا

قال ابن السيد البطليوسي في شرح الأبيات : يصف الراعي إبلا وردت ماء بعد أن سارت إليه خمسة أيام ، وهو الظماء الذي يُسَمَّى الخمس بكسر الخاء . والبائص المتقدم السابق ، والجُد بضم الجيم البئر يكون بين العشب والكلأ . ومعنى تعاوره تداوله ، تهب عليه هذه الريح مرة وهذه الريح مرة . والوبيل الثقيل على شاربه الذي لا يستمرئه إذا شربه ، والتِّم التمام وفيه ثلاث لغات بالكسر والفتح والضم . والسُدُم الماء المندفن ، والنطاف الماء القليل ، وقد يكون الكثير ، والمثاب الموضع الذي يثوب منه الماء ، يقال هذه بئر لها ثائب إذا كانت لها مادة من تحت الأرض ، ولم يرد المثابة التي هي مقام الساقي ، كذا قال ابن قتيبة في المعاني . والدحول الركية التي تحفر فيوجد ماؤها تحت أجوالها ، فتحفر حتى يستنبط ماؤها تحت جالها[2] .

وتختلف رواية البيتين في الديوان المطبوع عمّا ورد في كتاب الاقتضاب

(١) ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين، بيروت ١٩٦٨م، ص ٤٣.

(٢) ابن السيد البطليوسي: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تدقيق عبدالله أفندي البستاني، المطبعة الأدبية، بيروت ١٩٠١م، ص ٤٥٤، ٤٥٥.

وكذلك في عدد من المصادر الأخرى ، التي تتفق مع ما ذكرناه عن ابن السيد البطليوسي . فالرواية في الديوان :

حتى وردْنَ لتمٍّ خمسٍ بائص جُدًّا تقارَضهُ السقاة وبيلا

سُدُما إذا التمس الدلاءُ نطافه صَادَفْن مَشرفة المتان زحولا[1]

والرواية الأولى هي الأصوب في تقديرنا .

(٦) أشعار الهذليين :

* قال مالك بن خالد :

تَنُوءُ به عَرْفَاءُ ضَافٍ سَبِيبُهَا

إلى دَحَل فيه جِرَاءٌ توالبُ

« (عرفاء) ضبع طويلة العرف . (ضاف) سابغ طويل و(السبيب) شعر الناصية . و(الدحل) يريد مغارها . و(توالب) صغار ، و(التوالب) جحش الحمار . و(الدحل) هوة متلجفة»[2] .

* وقال أمية بن أبي عائذ الهذلي :

أو أصْحَمَ حَامٍ جَرَامِيزَهُ

حَزَابِيَة حَيَدى بالدِّحَال

(١) شعر الراعي النميري وأخباره، جمعه وقدم له ناصر الحاني، دمشق ١٩٦٤م، ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين: شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبدالستار فراج ومراجعة محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥م، (الجزء الأول، ص ٤٦٨).

« (أصحم) -الصحمة- سواد في صفرة ، و(حام) حمى نفسه من الرماة . ويقال : (جمع جراميزه وذهب في الأرض عدوا) و(حزابية) غليظ شديد . و(حيدى) يحيد وهو يكون بالدحال ، و(الدحل) هوة تضيق رأسها ويتسع جوفها ، والأصحم يريد الحمار . قال (حام جراميزه) أي بدنه ، يقال (جمع جراميزه) وحزابية مجتمع الخلق»[1] .

(٧) قال النابغة الجعدي :

كـأن لم تَرَبَّعْ في الخليط مُـقـيـمَـة

بتَنْهـيـةٍ بين الشـقـائق فـالعَـزْلِ

ولم تَعْـدُ أفـراس يُبَـوِّئنَ أهلهـا

على وجل جنبي سـرار إلى الدحل[2]

تَربَّعُ أى تقيم . الخليط : القوم الذين أمرهم واحد ، والجمع خلطاء . تنهية والشقائق أسماء مواضع . العَزْل بفتح أوله وإسكان ثانيه موضع في ديار قيس . سرار : بفتح أوله ، موضع ، والدحل واد يتصل بسرار من ديار بني مازن[3] .

(٨) قال لبيد بن ربيعة العامري :

وَلَدَى النُّعْـمَـان منِّي مَـوْطِنٌ

بين فَـاثُور أُفَـاقٍ فـالدَّحَل

(١) المصدر السابق: (٢/ ٤٩٩). وانظر أيضا: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر ١٩٦٣م، ص ٤٦٢.

(٢) الأبيات في معجم البكري أيضا- مادة العزل.

(٣) شعر النابغة الجعدي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق ١٩٦٤م، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

«قال ابن السيد : فاثور أفاق فالدحل موضعان . وهذا هو يوم الإفاقة . ومقام لبيد فيه»[1] . وجاء في معجم البكري «الأفاق ، بلا هاء : موضع بالحزن كانت تتبدى فيه بنو نصر ملوك الحيرة» . وأورد بيت لبيد ثم قال «وهي مواضع متصلة»[2] .

وذكره ياقوت الحموي بقوله : أُفاقُ بضم أوله وآخره قاف وأُفيق موضعان في بلاد بني يربوع كان فيه يوم من أيام العرب[3] .

(٩) قال ذو الرُّمة ، غيلان بن عقبة :

عَفَا الزُّرق من أطلال مَيَّةَ فالدَّحْل

فأجْمَاد حَوضى حين زَاحمَها الحَبْل

«الدَّحْل : هوة في الأرض فيها ماء . والأجْماد : الواحد جمد : الأرض الغليظة فيها حجارة . والحبل الرمل»[4] .

وجاء تفسير البيت في نشرة أخرى من الديوان :

«حوضى موضع ، والحبل حبل الرمل . عفا أي درس ، والزرق أكثبة بالدهناء ، والدحل هوة في الأرض يضيق رأسها ويتسع أسفلها يجتمع فيها السيول -يريد عفا أحوال الدحل . والأجماد أرض غليظة في صلابة الجبل»[5] .

(١) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، سلسلة التراث العربي، الكويت ١٩٦٢م، ص ١٩٤.
(٢) البكري: معجم ما استعجم (١/ ١٧٤ ـ ١٧٥).
(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان (١/ ٢٢١).
(٤) ديوان ذي الرمة، شرح الإمام أحمد بن حاتم الباهلي، تحقيق الدكتور عبدالقدوس أبو صالح، دمشق ١٩٧٣، ج ٣ ص ١٦٠٩.
(٥) ديوان ذي الرمة، باعتناء مكارتني، جامعة كمبردج ١٩١٩م، ص ٤٥٤.

وقال أيضا :

إذا شِئْتُ أبكاني لجَرْعَاء مَالك

إلى الدَّحْل مُسْتَبْدًى لميّ ومَحْضَرُ

وقال ذو الرمة أيضا :

عفا الدّحلُ من ميٍّ فمحَّتْ منازِلُهْ فما حَوْلَه صَمَّانُه فخمائلُهْ

«الدحل موضع . والدحل أيضا هُوَّة من الأرض كالسَّرَب ، ربما أنبت السِّدْر . وقوله «محّت منازله» يريد درَست وانمحت . و«الخمائل» : رمال وأرض لينة تنبت الشجر»[1] .

وجاء في معجم البكري (٤/ ١١٧٦) : «والدحل هنا : موضع بعينه» ، والدَّحْل هُوَّة في الأرض تُنبت السِّدْر» .

وقال ذو الرمة يذكر دحل «فتاخ» :

«رأيتهمُ وقد جعلوا فِتاخا وأجْرَعُه المقابلَهُ شمالا

«فتاخ» موضع وعنده أجرع و«الأجرع» و«الجرعاء» من الرمل ، كأن الأجرع يقابل فتاخا ، و«الهاء» التي في «المقابله» لـ«فتاخ»»[2] .

وجاءت رواية هذا البيت عند الهجري :

أباصرهم وقد جَعَلوا فِتَاخا مقاد المُهْرِ واعتسفوا الرمالا

(١) ديوان ذي الرمة، تحقيق عبدالقدوس أبو صالح (٢/ ١٢٤٢).
(٢) المصدر السابق (٣/ ١٥١٠).

قال : «فُتاخ وفُتَيخ دَحْلان بأطراف الدَّهناء مما يلي اليمامة ، وسألت السهلي من بني أبي بكر بن كلاب عن فُتاخ فقال : هو دَحْل بالصُلَيب وإلى جانبه فُتيخ دحل آخر»[١] .

وذكر ذو الرمة «فتاخ» مرة أخرى في حديثه عن منازل صاحبته ميّ :

لمية إذ مــيٌّ مَعــانٌ تَحلُّــهُ فتاخ فحُزوى في الخليط المجاور

«أراد : لمية هذا الموضع الذي ذكر . ثم قال : إذ ميٌّ مَعانٌ تَحلُّهُ فتاخ» . والمعان الموطن (أو المكان) و«فتاخ» موضع»[٢] .

(١٠) قال الفرزدق (همام بن غالب) :

بعيدة أطراف الصدوع كأنَّها ركيَّة لقْمانَ الشبيهة بالدَّحْل

قال أبو عبيدة في النقائض : ركيَّةُ لقمان بثأج ، وهي بئر مطوية بحجارة الحجرُ أكثر من ذراعين ، وثأج موضع بأطراف البحرين . والدُّحلان خُروق في روض وغيطان من البلاد ، يذهب فيها الرجلُ عامة يومه ، وقد يوجد في الدَّحل الواسع الشجر والغَضا[٣] .

(١١) قال جرير بن عطية الخطفي :

فأوردت الأعداد والماء نازح دليل امرئٍ أعطَى المقادَة بالدَّحْلِ

---

(١) حمد الجاسر: التعليقات والنوادر عن أبي علي هارون بن زكريا الهجري، الرياض ١٩٩٣م، القسم الثاني، ص ٧٨٣.

(٢) ديوان ذي الرمة (تحقيق عبدالقدوس أبو صالح) (٣/ ١٦٧٠).

(٣) أبو عبيدة، معمر بن المثنى: كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، ليدن ١٩٠٥م، الجزء الأول، ص ١٣٠.

قال أبو عبيدة : روى أبو عقيل : «ألقى المقَرّة بالدحل» ، ويروي : « علال امرء ألقى المقرة بالدَّحل» . وواحد الأعداد عِدٌّ وهو الماء القديم . و(نازح) بعيد[1] .

(١) المصدر السابق: الجزء الأول، ص ١٦٦.

استنتاجات واستطرادات:

كان ما تقدم هو ما تيسر لنا استخراجه من كتب الأدب عن الدحول ، وبمراجعة هذه المادة نستطيع أن نخرج بالحقائق التالية :

أولا- اشتهرت منطقة شرق الجزيرة العربية وشمالها الشرقي بظاهرة طبوغرافية وطبيعية مميزة ، وهي الدُّحُول أو الدُّحْلان ، ومفردها دَحْل ، وهي عبارةعن كهوف ومغارات تتعمق في جوف الأرض نتجت عن تسرب مياه الأمطار التي تغلغلت خلال الشقوق في الصخور الجيرية والكلسية حتى وصلت إلى الطبقات الخازنة للمياه وبتوالي عمليات النحت السفلي المتمثل في تأثير المياه الجوفية وتغلغل مياه الأمطار من السطح اتسعت مسارب المياه وكونت ما يشبه المغارات التي تجري في باطنها المياه وتحدها من أسفل طبقة صخرية صماء «لا تحيك فيها المعاول المحددة لصلابتها» كما ذكر الأزهري . والدحل يتلجَّف ويتجه يمينا أو شمالا تبعا لطبيعة الصخر نفسه ومدى مقاومته لعوامل الإذابة والنحت المائي . ويتوقف امتداد الدحل على قوة عامل النحت ويتمثل هنا بالمياه من ناحية وبامتداد طبقات الصخر اللينة التي تعمل في مجالها تلك المياه ، «فمنها ما يكون سبعين ومائة بوع تحت الأرض وأقل وأكثر» كما قال الهمداني .

ثانيا- كانت تلك الدحول من مصادر المياه في تلك المناطق الصحراوية ، إذ يمثل بعضها خزانات تتجمع فيها مياه الأمطار ، فيستفاد منها عند الحاجة كما أن بعضها يتصل بالمياه الجوفية فيكون بمثابة آبار طبيعية . والجدير بالذكر أن هناك عددا من موارد المياه في شبه الجزيرة العربية قريبة الشبه بالدحول ، ومن أمثلة ذلك الآبار والقلات والمصانع .

أما بالنسبة للآبار والركايا فقد شبهت بالدحل إذا ما تآكلت جوانبها قال ابن فارس «ويقال بئر دحول ذات تلجف . وذلك إذا أكل الماء جرابها» أي جوانبها . وجاء في القاموس المحيط أن الدحل هو «الركية تحفر فيوجد ماؤها تحت أجوالها فتحفر حتى يستنبط ماؤها . والبئر الواسعة الجوانب» . والواقع أن ما ذكره ابن فارس أقرب إلى الدقة من صاحب القاموس حيث جعل «دحول» صفة للبئر إذا ما نحت الماء جوانبها فتآكلت . كذلك نتبين ذلك من بيت الفرزدق الذي شبَّه ركية لقمان بالدَّحْل نظرا لعمقها وبعد صدوعها وشقوقها ، وعلى ذلك لم يَتَحرَّ الدقة من قال بأن الدحول هي الآبار .

أما بالنسبة للقلات فهي جمع للقَلْت بإسكان اللام وهي «النقرة في الجبل تمسك الماء» . وفي التهذيب «قال أبو منصور وقلات الصمان نقر في رؤوس قفافها[1] يملؤها ماء السماء في الشتاء ، قال : وقد وردتها وهي مُفْعَمة فوجدت القلتة منها تأخذ ملء مائة راوية[2] وأقل وأكثر ، وهي حفر خلقها الله في الصخور الصم ، والقلت حفرة يحفرها ماء واشل[3] يقطر من سقف كهف على حَجَر لَيِّن فَيُوقبُ على مر الأحقاب فيه وقبة مستديرة ، وكذلك إذا كان في الأرض الصلبة فهو قَلْت كقلت العين ، وهو النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء إذا انصب السيل» . وواضح من كلام أبي منصور كيف تتكون القلات فهي عبارة عن حفر أو خلائق تتكون أيضا عن طريق النحت وحفر المياه ولكن لا تتخذ

(١) القف هو ما ارتفع من متن الأرض.
(٢) الراوية الدابة التي يستقى عليها.
(٣) الوشل بالتحريك: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة يقطر قليلا قليلا لا يتصل قطره، وقيل ذلك لا يكون إلا من أعلى الجبل. عن اللسان.

صورة الدحول العميقة ذات التلجف بل على شكل حفر وأحواض محدودة يستنقع فيها الماء[1] .

أما عن المصانع فإن العامل البشري هو العامل الرئيس في تكوينها . جاء في اللسان : «المصانع في قول بعض المفسرين : الأبنية ، وقيل هي أحباس تتخذ للماء ، واحدتها مصنعة ومصنع . وقيل هي (ما)[2] أخذ للماء . قال الأزهري : سمعت العرب تسمي أحباس الماء الأصْناع والصُّنُوع واحدتها صنْع ، وروى أبو عبيد عن أبي عمرو قال الحِبس مثل المصنعة ، والزلف المصانع . قال الأصمعي : وهي مَسَّاكات لماء السماء يحتفرها الناس فيملؤها ماء السماء ويشربونها» .

فالمصانع إذاً هي ما يتخذه الناس من أحباس لكي يحتفظوا بماء المطر إلى وقت الحاجة إليه .

ثالثا- أن هناك بعض الدحول الجافة تلجأ إليها الحيوانات كالضباع وحمر الوحش فتختبئ بها عن أعين الصيادين ، وقد جاءت تلك الصفة على لسان عدد من الشعراء ، وجاء من هذه الصفة الدواحيل ومفردها داحول وهي مصائد للحمر . كذلك قال الزمخشري .

وكانت الحفر التي تتخذها الكلاب بيوتا لها في الكويت قديما تسمى الدحول أو «دحول الكلاب» .

(١) راجع دراسة الكاتب عن «القلات». عبدالله الغنيم: أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية، ص ٣٣١ وما بعدها.

(٢) «ما» زائدة والصحيح هي أخذ للماء والأخذ ما حفرت كهيئة الحوض لنفسك والجمع الأخذان تمسك الماء أياما... لسان العرب (مادة: أخذ).

رابعا- قد يرد الدحل في كتب الأدب علما لموضع بعينه «فقد يكون سمي الموضع» باسم الجنس -كما ذكر الزبيدي- ومن الواضح أن هناك عددا من المواضع في الجزيرة العربية تطلق عليها أسماء واحدة ، وهنا تصادفنا صعوبة العثور على ذلك الموضع ؛ إذ إن البكري وياقوت -وهما معتمدنا هنا- لم يعتنيا بإضافة خطوط الطول والعرض للمكان محل البحث ، بل إنهما يحددان الموضع بقربه من أحد المواضع المشهورة أو يكتفيان بالقول إنه في ديار قبيلة من القبائل ، ونجد أن البكري نفسه قد واجهته هذه المتاعب وذكر ذلك في رسم (توضح) بمعجمه .

لقد تحدث الأزهري عن الدحول أو الدحلان المنتشرة بالخلصاء ونواحي الدهناء ، كما ذكر الهمداني دحول هبالة ، ولكن إلى أي هذه الدحلان يشير الشعراء في الشواهد التي ذكرناها .

إن شعر الشاعر نتاج بيئته في الغالب وترجمانا لما يجري فوق ترابها من أحداث ، ولهذا كان طبيعيا أن نوزع الشعراء توزيعا جغرافيا لكي نقترب من الحقيقة شيئا فشيئا وقد طبق البكري هذا المنهج عند استقرائه لمادة الدحول فقال -نقلا عن أبي حاتم- بأنه ماء لبني العجلان ، وأنشد لابن مقبل وهو من بني العجلان :

«وحوم رأينا بالدحول ومجلس»

ثم عندما أشار -نقلا عن غير أبي حاتم- بأن الدحول بئر معروفة في أرض عكل استشهد ببيت للنمر بن تولب وهو من بني عكل .

خامسا- جاء في بعض النصوص التي أوردناها وصف الدحل بالهُوَّة . وفي معاجم اللغة : «الهوَّةُ كل وهدة عميقة (أي كل منخفض عميق) ، وجمع الهوة هُوى ، وقال ابن سيدة : الهُوَّة ذاهبة في الأرض بعيدة القعر مثل الدحل ، غير أن له أجافا ، والجماعة الهُوُّ»[1] .

ومن قول ابن شميل ندرك الفرق بين المصطلحين ، فالدحل حفرة ذات مغارات متعرجة تضيق وتتسع تبعا لطبيعة السطح ونشاط عملية الإذابة المائية . أما الهوة فهي حفرة نشأت في الغالب عن إذابة المياه الجوفية القريبة من السطح *للطبقات التي تعلوها فيؤدي هذا إلى حدوث تجويف لا يلبث بعده أن يهبط السقف* أو ينخسف ، فينشأ عن ذلك حفرة رأسية أو مائلة ، وقد يؤدي ذلك إلى ظهور الماء فتصبح تلك الهوة أشبه بالبئر الواسعة وقد لا يظهر الماء . وهذه الهوات مثل الدحلان لا تنشأ إلا في المناطق الجيرية أو مناطق «الكارست» ومن أمثلتها في الكويت «حفرة الظهر» التي حدثت في منطقة الظهر الواقعة في جنوب مدينة الكويت بنحو ٢٥ كيلو مترا ، فقد حدث هبوط في سطح الأرض بتاريخ ١٧ من أبريل ١٩٨٨م نتج عنه حفرة عميقة بلغ قطرها ١٥ مترا وعمقها نحو ٣١ مترا ، وتبعته انهيارات أخرى بالقرب من تلك المنطقة ، وأدت إلى تصدع عدد من البيوت في تلك المنطقة .

وكانت قد حدثت حفرة في منطقة العقيلة في الكويت عام ١٩٦١م ، وكان عمقها نحو عشرة أمتار ، ونصف قطرها نحو أربعة أمتار ، وقد رأيتها وكانت خالية من الماء ، ولا يستبعد حدوث مثل هذه الحفر أو الخسوف في المستقبل في مناطق أخرى من الكويت .

---

(١) ابن منظور: لسان العرب (مادة: هوا).

ومن أشهر الهوات في المملكة العربية السعودية ما يسمى بعيون الخرج وتقع في الجنوب الغربي من مدينة الخرج ، وهي تسمى خفوس الخرج والخفس في اللهجة الدارجة هو الخسف ، والتسمية تفيد في بيان الطريقة التي تكونت بها تلك العيون أو الخسوف . ومن أشهر العيون المذكورة «عين الضلع» و«خفس دغرة» و«أم خيسة» وعين «فرزان» ، وكانت مياهها غزيرة وافرة وضعت عليها مضخات تسحب منها المياه إلى مزارع الخرج ، وقد تناقص منسوب المياه مع مرور الأيام بشكل واضح ، وتندرج هذه الخسوف ضمن نطاق كارستي واضح يطلق عليه اسم الجُبيل ، وهو عبارة عن جال (كويستا) يواجه الغرب بجروف قائمة وينحدر انحدارا لطيفا نحو الشرق . وتمتد في صورة سلسلة جبلية في شرقي الرياض من روضة الجنادرية شمالا إلى مشارف الخرج بما مسافته ثمانون كيلو مترا . يقول الشيخ عبدالله بن خميس : «في هذه الجبال المنساقة من الشمال إلى الجنوب فيها كسور في قشرتها الأرضية ، تشاهد في حضن كل جبل منها خسوفا بارزة بعضها لا يدرك له قعر ، وبعضها مياهه راكدة ، وبعضها مياهه جارية وبعضها قد انكسر واندفن وبقي خسفا لا ماء فيه إلا ما ينحدر إليه من ماء السيول ، مثال ذلك (خُفيسة البطين) وخسف واقع بين الشِّعب والشحمة ، و(الخفس) به خسفان متجاوران ، وثالث شمالهما إلى جانب الخُوَيْبية لدى الصخرات الكبار ، وآخر في صفحة جبل الجبيل ، أبرزها الذي عند مقيصبة والذي بين هيت وثنايا بلال .

أما ما فيه ماءٌ جار فهو خسف (هيت) ، وأما ما كان ماؤه راكدا فهو عيون الخرج (عين الضلع) و(أم خيسة) و(دغره) على هذا الخط ، وفي أحضان الجبال

نجد هذه الظاهرة ، وحبذا لو أن دراسة جيولوجية أعطت صورة عن ذلك يسندها العلم ويؤيدها الواقع»[1] .

ولا تخرج عيون الأفلاج الواقعة في جنوب الخرج بالقرب من مدينة ليلى عن إطار هذه الظاهرة الناشئة عن الإذابة ، فقد أدت المياه الجوفية الوفيرة القريبة من السطح إلى إذابة الطبقات الصخرية الجيرية الواقعة فوقها ؛ مما أدى إلى انهيار السقف وظهور المياه في منخفضات أشهرها «سمحة» و«البرج» و«أم هيب» . وقد زرت هذه المنطقة في أواخر فبراير عام ١٩٧٥م ، وتبيَّن لي من الملاحظة الميدانية وجود انهيارات مستمرة لحافات تلك المنخفضات ، وتبدأ تلك الانهيارات في شكل شقوق فوق سطح الجروف المحيطة بمنخفضات تلك العيون ، ومن ثم تتسع الحفر شيئا فشيئا .

ومن الهوات التي وصفها العرب قديما بالدحل هوة ابن الوصاف في بادية الحجرة أو حزن بني يربوع ، وقد كان يضرب بها المثل لعمقها كما قرأنا في شعر رؤبة بن العجاج «فكبّه في هوة ابن الوصاف» .

ويستخدم سكان الجبل الأخضر في ليبيا اليوم مصطلح الهوة للدلالة على المنخفضات المغلقة التي تتطور فوق الصخور الجيرية بفعل إذابة المياه المكربنة وتتفاوت مساحات تلك المنخفضات أو الهوات عند سطح الأرض من هوة إلى أخرى إذ تتراوح بين ٢٠٠٠م^2 وما يزيد على ٩٨٠٠٠م^2 ، أما أعماقها عن سطح الأرض المجاورة فهي بين ١٢٥م – ١٦٥م . ويمكن تصنيفها في نوعين رئيسيين :

(١) عبدالله بن خميس: معجم اليمامة، الرياض ١٩٧٨م، الجزء الأول ص ٢٥٨، ٢٥٩.

أولهما : منخفضات تتكون بفعل إذابة المياه السطحية لجانب من تكوينات الصخور الجيرية ، ويطلق على هذا النوع هوات الإذابة .

وثانيهما : منخفضات ناشئة عن إذابة المياه الجوفية للسقوف التي تعلوها مما يؤدي إلى انهيارها ، ويسمى هذا النوع هوات الانهيارات .

ومن أبرز الهوات في منطقة قصر ليبيا (غربي البيضاء) : «هوى السعد» و«هوى الحجري» و«هوى هيتيني» و«هوى الهويات»[1] .

وإذا أخذنا المعنى الواسع للهوات ، فإن ذلك قد يشتمل على الروضات والخبرات التي ترصع سطح الصمان والمناطق الصحراوية الجيرية الواقعة إلى الشمال من وادي الباطن والتي أطلق عليها قديما اسم الحزون . فهي أيضا من نتاج عمليات الإذابة التي مارستها المياه السطحية والجوفية في عصر البلايستوسين حينما كانت كميات الأمطار في تلك المناطق أكثر وفرة مما هي عليه الآن .

سادسا- لقد كان للدحلان مكانتها في قلوب الشعراء يتغنون بها ويستعيدون ذكرى نزولهم بها . قال أبو العباس أحمد بن يحيى :

ألا يا سيالات الدحائل باللوى
عليكن من بين السيال سلام

ولا زال منهل الربيع إذا جرى
عليكن منه وابل ورهام

(1) سميح أحمد عودة: «جيمورفولوجية الهوات في الجبل الأخضر» سلسلة رسائل جغرافية، الجمعية الجغرافية الكويتية العدد ٦٣، مارس ١٩٨٤م، ص ٧، ١٢.

أرى العيس أحادا إليكن بالضحى

لهن إلى إطلالكن بغام

وإني لمجلوب لي الشوق كلما

ترنم في أفنانكن حمام[1]

وقد هجرت معظم الدحلان اليوم ، ولم تعد مورداً للمياه كما كان عليه الحال قديما ، فقد استعاض الناس بمياه الآبار التي تستخرج بوساطة آلات الضخ الحديثة . ولا يزال سكان تلك المناطق ، وبخاصة معقلة والشملول في الصمان يحكون القصص الكثيرة عن أولئك الذين تاهوا عند نزولهم في تلك الدحلان . ولعل ما ذكره النابلسي في رحلته نموذج من نماذج تلك القصص .

---

(١) الأبيات في معجم البلدان ـ مادة الدحائل ـ والبيت الأول والأخير في الأمالي (ج ٢ ص ٣١).

المصادر والمراجع

- **أحمد بن فارس بن زكريا** : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٣٦٦هـ ، الجزء الثاني .
- **الأخطل ، غياث بن غوث** : شعر الأخطل ، رواية أبي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٨٩١م .
- **الأزهري ، أبو منصور محمد بن محمد** : تهذيب اللغة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩م .
- **الأسود الغندجاني ، أبو محمد الأعربي** : فرحة الأديب في الرد على السيرافي في شرح أبيات سيبويه ، دار ابن قتيبة ، دمشق ١٩٨٠م .
- **الأصفهاني ، الحسن بن عبدالله** : بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة ، الرياض .
- **الأعلم الشنتمري** : شعر زهير بن أبي سلمى ، تحقيق فخر الدين قباوة ، حلب ١٩٧٣م .
- **الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم** : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣م .
- **البغدادي ، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق** : مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، القاهرة ١٩٥٤م .
- **البكري ، أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز** : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥م .
- **جون بنت** : الكهوف الصحراوية في المملكة العربية السعودية ، الرياض ٢٠٠٣م .
- **حمد الجاسر** : التعليقات والنوادر عن أبي علي هارون بن زكريا الهجري ، الرياض ١٩٩٣م .
- **ديوان الأعشى الكبير** ، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين ، بيروت ١٩٦٨م .
- **ديوان امرئ القيس** : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٨م .
- **ديوان ذي الرمة** ، شرح الإمام أحمد بن حاتم الباهلي ، تحقيق الدكتور عبدالقدوس أبو صالح ، دمشق ١٩٧٣م .
- **الزبيدي ، السيد محمد مرتضى** : تاج العروس ، بولاق ١٣٠٧هـ .
- **الزمخشري ، محمود بن عمر** : أساس البلاغة ، القاهرة ١٩٦٠م .
- **سعد عبدالعزيز الشبانات** : الصمان ، الرياض ١٩٩٨م .

- **السكري ، أبو سعيد بن الحسين** : شرح أشعار الهذليين ، تحقيق عبدالستار فراج ومراجعة محمود محمد شاكر ، دار العروبة ، القاهرة ١٩٦٥م .
- **ابن السكيت ، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق** : ديوان النابغة الذبياني ، بتحقيق الدكتور شكري الفيصل ، دار الفكر بدمشق ١٩٦٨م .
- **سميح أحمد عودة** : «جيمورفولوجية الهوات في الجبل الأخضر» ، سلسلة رسائل جغرافية ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، العدد ٦٣ ، مارس ١٩٨٤م .
- **ابن السيد البطليوسي** : الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، تدقيق عبدالله أفندي البستاني ، المطبعة الأدبية ، بيروت ١٩٠١م .
- **شعر الراعي النميري وأخباره** ، جمعه وقدم له ناصر الحاني ، دمشق ١٩٦٤م .
- **شعر النابغة الجعدي** ، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق ١٩٦٤م .
- **عبدالعزيز الميمني** : الطرائف الأدبية ، القاهرة ١٩٣٧م .
- **عبدالله بن خميس** : معجم اليمامة ، الرياض ١٩٧٨م .
- **عبدالله يوسف الغنيم** : أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية ، الكويت ٢٠٠٥م .
- **أبو عبيدة ، معمر بن المثنى** : كتاب النقائض ، نقائض جرير والفرزدق ، ليدن ١٩٠٥م .
- **العسكري ، أبو هلال** : التلخيص في معرفة أسماء الأشياء ، تحقيق د . عزة حسن ، دمشق ١٩٦٩م .
- **الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب** : القاموس المحيط ، القاهرة ١٩٥٢م .
- **ابن مقبل ، تميم بن أبي مقبل** : ديوان ابن مقبل ، تحقيق عزة حسن ، دمشق ١٩٦٢م
- **لبيد بن ربيعة** : **شرح ديوان لبيد بن ربيعة** ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الكويت ١٩٦٢م .
- **ابن منظور ، محمد بن مكرم** : لسان العرب ، بولاق ١٣٠٢هـ .
- **النابلسي ، عبدالغني بن إسماعيل** : الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦م .
- **الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب** : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، دار اليمامة ، الرياض ١٩٧٤م .
- **ياقوت الحموي** : معجم البلدان ليبزج ١٨٦٧م .

المصادر العربية
لمصطلحات الأشكال الأرضية(*)

أولا- المصادر العربية القديمة:

شغلتني قضية المصطلح الجغرافي طوال السنوات العشر الماضية ، ورأيت في غمرة التضارب بين محاولات الباحثين في الوصول إلى المرادف العربي الأصيل أن أسهم بجهدي في السعي إلى تأصيل المصطلحات العربية الحديثة للأشكال الأرضية ، ببيان المصادر العربية التي يمكن الرجوع إليها في هذا المضمار ، وتصنيفها على نحو يتيح للباحث أن يلجأ إليها عند الحاجة إلى وضع مصطلح عربي خاص بأشكال سطح الأرض ، ومقابل لمصطلح أجنبي يراد تعريبه . وهو ما يرمي إليه هذا البحث .

وينبغي أن تلازم العودة إلى التراث رؤية علمية لموضوع البحث ، رؤية تعتمد على المزاوجة بين المادة التراثية والمادة المعاصرة مع إيراد الشواهد والأدلة المادية والعلمية التي تقوم على التقصي الميداني ، وعلى تعرُّف المظاهر الأرضية في بيئاتها الأصلية . ومن دون ذلك يصبح الأمر ضربا من الدراسات الأدبية أو التاريخية ، مما يفيد علوما أخرى غير الجغرافيا ، وغير ما نحن بصدده على وجه الخصوص .

(*) نشر أصل هذا البحث ضمن سلسلة رسائل جغرافية التي يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، العدد ٥٥، الكويت يوليو ١٩٨٣م.

وللتعريف بالمصادر العربية القديمة أهمية خاصة تتمثل في جانبين : أولهما أن كثيرا من الجغرافيين المعاصرين قد انقطعت صلتهم بتراثهم القديم ، وبمصادر البحث فيه ، وأصبح من اللازم تبصيرهم بما يخصهم منه ، والتنويه بالإمكانات التي يتيحها ذلك التراث في سبيل الوصول إلى المصطلحات المناسبة . أما الجانب الثاني ، فهو تأصيل المصادر العربية الجغرافية ، بالرجوع إلى جذورها القديمة ، ومعرفة استعمالاتها واشتقاقاتها ومعانيها المختلفة . وليس من غرض هذه الدراسة إعداد حصر كامل بالمصادر القديمة ، إذ سيقتصر البحث علي عرض للنماذج المهمة منها ، وفقا للتقسيم الموضوعي للبحث ، والذي حرصت فيه أن يؤدي بالباحث إلى المداخل الرئيسة لهذا المجال .

وينقسم البحث إلى قسمين : يبحث الأول منهما في المصادر العربية القديمة ، وتتمثل في شعر الجاهلية وصدر الإسلام ، والمعاجم اللغوية ، والمعاجم الجغرافية وكتب البلدان بالإضافة إلى الموسوعات العلمية والمرشدات البحرية . أما القسم الثاني فيبحث في المصادر العربية الحديثة ، وتتمثل في الجهود الجماعية كالمجامع اللغوية ، والمكتب الدائم لتنسيق التعريب في الرباط والمؤتمرات العلمية ، والجهود الفردية المتمثلة في المعاجم الجغرافية العربية الحديثة ، والبحوث والمقالات العلمية والرسائل الجامعية .

وختاما ، أرجو أن يسهم هذا البحث في التعريف بالمصادر العربية لمصطلحات الأشكال الأرضية وهو من الأمور التي لا تزال مكتبتنا العربية تفتقر إليها ، كما أنه يوفر للجغرافي العربي المعاصر إحدى الأدوات المهمة التي ينبغي أن تكون نصب عينه كلما أقدم على الكتابة في موضوع من الموضوعات الجغرافية .

١- شعر الجاهلية وصدر الإسلام:

حفلت قصائد الجاهلية وصدر الإسلام بتسميات وأوصاف لكثير من الأشكال الأرضية في شبه الجزيرة العربية ، وتضمنت شروح علماء اللغة لتلك القصائد وبخاصة في القرنين الثاني والثالث الهجريين فوائد جغرافية لا نجدها ، أحيانا ، في الكتب الجغرافية المنتمية لتلك الفترة . ويقف مثالا على تلك الشروح شرح الإمام أبي نصر أحمد بن أبي حاتم الباهلي (توفي عام ٢٣١هـ) لديوان ذي الرُّمة[١] ، غيلان بن عقبة (٧٧ـ١١٧هـ) الذي قيل فيه إن شعره يعدل ثلث لغة العرب[٢] . وقد عاش الشاعر في بوادي الدَّهناء والصَّمان ، فجاء شعره مليئا بذكر الأشكال الأرضية المنتشرة في تلك المناطق ، ولو أمعنا النظر في شرح قصيدة واحد من قصائده التي شرحها الإمام أبو نصر لوجدنا فيها التعريفات التالية[٣] :

* الأجْرَع والجَرْعاء : رمل يرتفع وسطه ويكثر وترقُّ نواحيه .
* الجَراثيم : الواحدة جرثومة ، وهي أصل الشجر يجتمع إليه الرمل والتراب .
* القنْع : مكان مطمئن وسطه وحوله مشرف .
* القُريان والمَذْنب : مجاري الماء إلى الرياض ، وهو المدفع أيضا .
* الصَّفيح : الحجارة الفطح العراض تطوى بها البئر .

(١) طبع شرح الإمام أبي نصر لديوان ذي الرمة برواية أبي العباس ثعلب في ثلاثة مجلدات بتحقيق الدكتور عبدالقدوس أبو صالح، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٢.

(٢) ابن دحية، عمير بن حسن: المطرب من أشعار المغرب، تحقيق إبراهيم الإبياري وآخرين، القاهرة ١٩٥٤م ص ٢٠٦.

(٣) ديوان ذي الرمة (مصدر سابق)، قصيدة رقم ٢٦، الأبيات ٣، ٤، ١٣، ١٥، ٣٢، ٣٧، ٣٩، المجلد ٢ ص ص ٨٢١، ٨٥٨.

* القاع : المكان الصُّلب الحُرُّ الطين .
* الأخشب والحَزْن : المكان الغليظ المرتفع .
* السَّبْسَب : المكان المستوي .

وبالإضافة إلى ذلك نجد في قصائد ذي الرمة العديد من التعريفات الأخرى المرتبطة بالمناطق التي عاش فيها وتجول . وشعره غني بوجه خاص بالمسميات المتعلقة بالرمال مثل «القَوْز» وهو ما أعْوجَّ وانعطف من الرمل ، و«الحَبْل» وهو المستطيل من الرمل ، و«الصَّريمة» وهي قطعة من الرمل منفردة متباعدة[١] وغير ذلك من المسميات .

وشرح آخر لا غنى عنه للباحث في مصطلحات أشكال الأرض هو شرح أبي سعيد السكري (توفي ٢٧٢هـ) لأشعار الهذليين[٢] . ويمكن اعتبار هذا الكتاب مكملاً -فيما يتعلق بموضوعنا- للكتاب السالف الذكر . فبينما تتركز المسميات الواردة في شعر ذي الرمة في نطاق الدهناء والصمان شرقي الجزيرة العربية ، نجد أن المسميات التي تتضمنها أشعار الهذليين ترتبط بمناطق انتشار قبيلة هذيل في غرب الجزيرة العربية ، وهي مناطق تختلف من حيث المظهر التضاريسي العام عن مواطن ذي الرمة . ولذا فإن الألفاظ الدالة على الرمال قليلة نسبيا في أشعارهم ، بينما تزداد نسبة الألفاظ المتعلقة بالأودية والجبال والحرار . ولو تتبعنا ما جاء عن المصطلح الأخير في أشعار الهذليين لوجدنا التالي[٣] :

(١) المصدر السابق: ص ١٥٠٣، ١٠٣، ١٥٢٥.
(٢) نشر كتاب شرح أشعار الهذليين للسكري بتحقيق عبدالستار فراج ومراجعة محمود محمد شاكر، وهو في ثلاثة مجلدات، دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥م.
(٣) المصدر السابق: ص ١٠٦، ١٣١، ٢٩٦، ١٠٩٠، ١١٠٥.

* الحِرَار : واحدها حَرَّة وهي اللاّبة : الحجارة السود (صخور البازلت البركانية) .
* الصُّحَر : واحدها صُحْرة : وهي جُوَب تنجاب وسط الحرة (ربما قصد بها الفوهات البركانية) .
* الشُّجُون : واحدها شَجُن : وهي شقوق وطرائق تكون في الغلظ ، في الحَرَّة ، وقيل شعاب تكون في الحرار . ويطلق عليها أيضا الشراج .

وإذا ما جمعنا إلى هذين الشرحين الشروح الأخرى التي لا يتسع المجال لذكرها فإننا سنجد من المادة العلمية المرتبطة بالمصطلحات الجغرافية ما لا نجده في كثير من مصادر البحث في هذا الموضوع .

٢- المعاجم اللغوية:

اعتمد على الشروح السالفة الذكر ، أصحاب المعاجم اللغوية العامة والمتخصصة . وأهم المعاجم اللغوية العامة «تهذيب اللغة» للأزهري و«الصحاح» للجوهري و«القاموس المحيط» للفيروز آبادي و«لسان العرب» لابن منظور و«تاج العروس» للزبيدي .

ومن واجب الباحث في المصطلحات أن يقرأ واحدا على الأقل من هذه المعاجم قراءة كاملة حتى يحيط إحاطة جيدة بأطراف موضوعه ، وليتمكن من جمع أكبر قدر ممكن من مادته العلمية .

وتأتي المعاجم اللغوية المتخصصة في المرتبة الثانية بعد المعاجم اللغوية

العامة . ومن أشهر تلك المعاجم كتاب «التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» لأبي هلال العسكري الذي عاش في القرن الرابع الهجري ، وقد أفرد الباب السابع والعشرين لأسماء الأرضين والجبال والرمال والصحارى ، حيث أورد في هذا الموضوع نحو مائة وسبعين مصطلحا[١] .

ويفوق هذا الكتاب في الأهمية كتاب المخصص لعلي بن إسماعيل المعروف بابن سيده الذي عاش في القرن الخامس الهجري . وتعدّ المادة التي تضمنها الجزء العاشر من كتابه من أوفى المسوح لمصطلحات أشكال سطح الأرض في المصادر العربية القديمة[٢] .

غير أن الدارس للمصطلحات التي أوردها العسكري وابن سيده وغيرهما ممن ألف في هذا الباب لابد له من الرجوع إلى مزيد من التفصيل عن المعاني في معاجم اللغة العامة . ومن أمثلة ذلك قول العسكري عن الحرة إنها «الفتين» والجمع «فُتُن»[٣] ولم يزد على ذلك . بينما الرجوع إلى المعاجم العامة يفيدنا التالي : «يقال للحجارة السود التي كأنها أحرقت بالنار «الفتين» ، والفَتْن الإحراق ، ومن هذا قوله عز وجل ﴿يوم هُم على النار يُفتنون﴾ أي يحرقون بالنار ، يقال فَتَنْت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار»[٤] .

وهذا في بيان المعنى ضروري لتوضيح المراد بالمصطلح ، وللكشف عن جوانب من صفات الظاهرة التي تزيدها وضوحا وتحديدا .

---

(١) العسكري، أبو هلال: التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، تحقيق د. عزة حسن، دمشق ١٩٦٩م، الجزء الثاني، ص ص ٥١٠ ـ ٥٢١.
(٢) ابن سيده: المخصص، بولاق ١٣١٨هـ، جـ١٠، ص ص ٤٧ ـ ١٤٥.
(٣) العسكري: التلخيص (٢/ ٥١١).
(٤) ابن منظور: لسان العرب (١٧/ ١٩٣).

وفي ختام حديثنا عن المعاجم اللغوية القديمة لابد من الإشارة إلى أن هناك من نقل عن تلك المعاجم في العصر الحديث وجمع بعض مصطلحاتها المتعلقة بالجغرافيا دون تأصيل لتلك المصطلحات أو اختيار المناسب منها ، وكيفية توظيفه في الدراسات الحديثة ومن أمثلة ذلك كتاب «معجم الجغرافيا في اللغة العربية» لحميد السيد رمضان الذي نشرته دار طلاس بدمشق عام ١٩٩٧م .

٣- المعاجم الجغرافية:

تُعدّ المعاجم الجغرافية مصدرا مهما من مصادر المصطلحات الجغرافية ، فعلى الرغم من تركيزها على أسماء الأمكنة والمواضع وترتيبها ترتيبا معجميا ، فإنها تحتوي على مادة غزيرة من الألفاظ الاصطلاحية . ولدينا في هذا الباب معجمان -هما في رأينا- من أهم المعاجم الجغرافية ، الأول هو كتاب «معجم ما استعجم»(١) الذي وضعه الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري في القرن الخامس الهجري ، والذي كان أول معجم جغرافي عربي ، وأسبق المعاجم العربية في استخدام الترتيب الألفبائي .

ويتضمن معجم البكري تفسيرا للكثير من التسميات الخاصة بظواهر الأرض المختلفة التي تعطي دلالة جغرافية معينة ، وتزيد هذه الألفاظ في النصوص المنسوبة لعلماء اللغة ، وعلى الأخص ابن قريب الأصمعي الذي نذكر له هنا بعض النماذج التي نقلها عنه البكري(٢) :

(١) نشر معجم البكري للمرة الأولى المستشرق الألماني «وستنفلد» وذلك بجوتنجن بألمانيا (١٨٧٠ ـ ١٨٨٧م) ثم نشره مصطفى السقا بالقاهرة (١٩٤٥ ـ ١٩٥١م) معتمدا على طبعة وستنفلد إضافة إلى بعض النسخ التي عثر عليها في القاهرة.
(٢) البكري: معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، ص ١٦٥، ٤٠٧، ٥٣٢.

* الضِّلْع : الجُبيل الصغير .
* الفالق والفَلْق : مطمئن من الأرض تَحُفُه مرتفعتان .
* الدارة : جوبة تحفها الجبال ، والجمع دارات .

ويتضمن «معجم ما استعجم» ما يقرب من مائة وخمسين لفظا تدل على أشكال أرضية مختلفة ، وتغلب على هذه المصطلحات الألفاظ المتعلقة بالأودية والمسيلات المائية ومناطق تجمع المياه في المنخفضات والركايا والآبار وموارد المياه الأخرى .

أما المعجم الثاني فهو «معجم البلدان» لياقوت الحموي الذي وصل بهذا الفن الجغرافي في القرن السابع الهجري إلى غاية من الكمال . ومع أن الحموي لم يطلع على معجم البكري «رغم بحثه عنه وتطلبه له»[1] فإن معجم البلدان احتوى معاجم جغرافية أخرى كاملة ، فمن ذلك كتاب «الجبال والأمكنة والمياه» لأبي القاسم الزمخشري[2] المتوفى عام ٥٣٨هـ وكتاب «الأمكنة» لأبي الفتح نصر عبدالرحمن الإسكندري المتوفى عام ٥٦٠هـ ، وكتاب «الأماكن» لأبي بكر محمد ابن موسى الحازمي المتوفى عام ٥٨٤هـ[3] . ومن ثم فقد كان كتاب

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق وستنفلد، ليبزج ١٨٨٦م، جـ١، ص ٧.
(٢) نشر هذا الكتاب لأول مرة في أوربا عام ١٨٥٦م بتحقيق المستشرق سالفر ديدغرف، ثم طبع في النجف، وأخيرا أعيد طبعه في بغداد (بدون تاريخ) بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، ومازال الكتاب بحاجة إلى نشرة أفضل، وذلك لكثرة التصحيف والأخطاء المطبعية.
(٣) نشر كتاب «الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها المذكورة في الأخبار والأشعار» تأليف نصر بن عبدالرحمن الإسكندري بتحقيق الشيخ حمد الجاسر في مجلدين (١١٦٨ صفحة) وذلك في الرياض عام ٢٠٠٤م عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ودارة الملك عبدالعزيز. أما كتاب «الأماكن» لمحمد بن موسى الحازمي فقد نشر بتحقيق الشيخ حمد الجاسر في مجلدين (١١٢٢ صفحة)، دار اليمامة بالرياض عام ١٤١٥هـ.

ياقوت الحموي يزيد على ضعف كتاب البكري ، ومجموع الألفاظ الدالة على الأشكال الأرضية يقرب من ثلاثمائة وخمسين لفظا . وقد تفرد الحموي بذكر بعض المصطلحات التي لم ترد في معاجم اللغة التي بين أيدينا اليوم .

وترجع أهمية معجمي البكري والحموي إلى عدة عوامل ، منها : اعتمادهما على كتابات لغويين ورحالة جغرافيين لم تصلنا مؤلفاتهم ، فالنصوص الجغرافية المتعلقة بحمى ضريّة وفَيد والرَّبذة والنَّقيع في شبه الجزيرة العربية ، والتي نقلها البكري عن أبي محمد الوراق المعروف بالسكوني قد فقدت أصولها ، ولا نجدها عند غير البكري[1] . كما أن في نقول الحموي عن اللغوي الرحالة أبي زياد الكلابي فوائد جغرافية على جانب كبير من الأهمية ، ويظهر ذلك في أكثر من مائتي موضع من معجمه .

وتتجلى أهمية المعاجم الجغرافية ، في اقتران اللفظ الدال على ظاهرة من ظواهر السطح بالموقع الجغرافي لتلك الظاهرة ، مما يساعد على وضوح المراد بذلك اللفظ وسهولة التأكد منه على الطبيعة ، ومثال ذلك ما أورده البكري والحموي عن الأبارق والدارات وهي من أشكال الأرض التي لا نجد لها أثرا في كتب المصطلحات الجغرافية الحديثة .

٤- كتب البلدان:

تأتي كتب البلدان ، أو الجغرافية الإقليمية بعد المعاجم الجغرافية من حيث الأهمية ؛ إذ إن المادة الاصطلاحية المتعلقة بأشكال سطح الأرض تقل كثيرا عما

(١) عبدالله يوسف الغنيم: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، الكويت، (الطبعة الثالثة) ١٩٩٦م، ص ٨١ وما بعدها.

هو موجود في كتب اللغة والمعاجم الجغرافية ، ويمكن تقسيم كتب البلدان إلى نوعين :

* النوع الأول : المصنفات التي ظهرت ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري تحت اسم «البلدان» أو «المسالك والممالك» وتمثلها كتابات ابن خرداذبة واليعقوبي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم . وفائدة هذه المصنفات في موضوعنا محدودة ، إذ قصد بها ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة والطرق الواصلة بين إحداها والأخرى ، فضلا عن الاهتمام بالحياة الاجتماعية والاقتصادية للسكان .

* النوع الثاني : كتابات لغدة الأصفهاني والهمداني وعَرَّام ابن الأصبغ السُّلَمي ، وهي مصنفات تم التركيز فيها على إقليم بعينه وهو شبه الجزيرة العربية ، ومن هنا فقد اشتملت على أوصاف دقيقة لمعظم أرجاء هذه المنطقة ، وكان نصيب الأشكال الأرضية وافيا محققا لما نرمي إليه من هذه الدراسة . وفضلا عن ذلك فإن هذه الكتب تتميز عن معاجم اللغة ، وفي كثير من الأحيان المعاجم الجغرافية ، بميزة خاصة ، وهي استخدام المصطلح في وصف أشكال السطح مما يسهل التعرف على مدلوله بشكل قد يفوق فهمنا للمدلول اللفظي وحده ، وبخاصة إذا ما تكرر استخدامه .

٥- مصادر أخرى:

بجانب المصادر السابقة التي اشتملت على الجزء الأكبر من المصطلحات المقصودة بالدراسة ، هناك مجموعة من المصادر التي ركزت على جوانب علمية محددة ، مما أكسب المصطلحات المستخدمة -على قلتها قيمة خاصة . وتتمثل

هذه المصادر في الموسوعات العلمية العربية والكتب والرسائل ذات العلاقة بميدان المعرفة الجغرافية ، وبخاصة كتب المرشدات البحرية . ويمكن إيجاز ذلك فيما يلي :

(أ) الموسوعات العلمية :

ويمكن التمثيل لهذه الموسوعات بموسوعتين اثنتين ، أولاهما «رسائل إخوان الصفا» التي كتبت في القرن الرابع الهجري ، وقد تناولت هذه الرسائل بالتحليل والتعليل بعض مظاهر سطح الأرض كالجبال والأودية والعيون . ويهمنا من هذه الرسائل الرسالة الخامسة من الجسمانيات الطبيعية المتعلقة ببيان تركيب المعادن ، وهي الرسالة الثامنة عشرة من رسائل إخوان الصفا ، فقد احتوت هذه الرسالة على عديد من المصطلحات المفيدة في موضوعنا ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في فاتحة أحد فصول تلك الرسالة :

« . . . إن كرة الأرض بجملتها وجميع أجزائها ، عمقها وظاهرها وباطنها طبقات ، ساف فوق ساف ، متلبدة منعقدة ، مختلفة التركيب والخلقة ؛ فمنها صخور وجبال صلبة ، وأحجار وجلامد صلدة ، وحصيات ملس ورمال جريشة وطين رخو ، وتراب لين ، وسباخ وشروج بعضها مختلط ببعض . . .»[١] .

ويتضح من هذا المثال أن معظم كلمات النص تمثل مصطلحات قائمة بذاتها في تركيب دقيق ، دال على المعنى .

أما الموسوعة الثانية فتتمثل في كتاب «الشفاء» للشيخ الرئيس أبي علي الحسين ابن سينا ، الذي عاش في القرن الخامس الهجري . والذي يهمنا من

(١) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، بيروت ١٩٥٧م، المجلد الثاني، ص ٩٠.

تلك الموسوعة هي المقالة الأولى من الفن الخامس من الطبيعيات ، إذ اشتملت تلك المقالة على ستة فصول في الجبال ومنافعها وأسباب تكونها ومنابع المياه ، وعلة حدوث الزلازل وأنواعها وتكوين المعدنيات وأحوال المسكونة وأمزجة البلاد . ومن دراسة تلك الفصول يظهر لنا أن ابن سينا قد استخدم مصطلحات لا نجدها في كتب اللغة ومعجماتها ، ولا نجدها أيضا في كتب الجغرافيا والبلدان . ففي كلامه عن الزلازل -على سبيل المثال- يقول ابن سينا :

«والزلازل تختلف في قوة أوائلها وأواخرها ، فليس يمكن أن تجري على منهاج واحد . وإذا كانت الرياح محتقنة ، منها ما يكون على الاستقامة إلى فوق ، ومنها ما يكون مع ميل إلى جهة ، لم تكن الزلازل متفقة بل كانت من الزلازل رجفية يتخيل معها أن الأرض تقذف إلى فوق ، ومنها ما تكون اختلاجية عرضية رعشية ، ومنها ما تكون مائلة إلى القطرين كليهما ويسمى القطقط ، وما كان منه مع ذهابه في العرض يذهب في الارتفاع أيضا يسمى سُلَّميا . . إلخ»[1] .

ومن هذا النص نجد أن ابن سينا قد ربط بين نوع الزلزلة ، وصورة الشكل الناشئ عنها ، وأورد عددا من المصطلحات التي لا نجدها عند غيره -كما أسلفت- ومن ذلك قوله الزلازل الرجفية والاختلاجية العرضية الرعشية ، والقطقط والزلازل السلمية .

(ب) المرشدات البحرية :

لم تكن الألفاظ والمصطلحات الملاحية القديمة من بين ما اهتم قدماء اللغويين

---

(١) ابن سينا: الشفاء، المعادن والآثار العلوية، تحقيق عبدالحليم منتصر وآخرين، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١٩.

بجمعه ، فقد كانت دراستهم تكاد تقتصر على قبائل قيس وتميم وأسد بخاصة ، ثم هذيل وبعض كنانة ، ويذكر الفارابي أنهم لم يأخذوا عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري المتاخمة لحواضرهم ، ولا القبائل الواقعة على هوامش شبه الجزيرة العربية ، لتأثر تلك القبائل بالأمم المجاورة لها كالفرس والروم والأحباش .

وعلى ذلك فإن معظم الألفاظ المتعلقة بأشكال السواحل والجزر وقيعان البحر وغير ذلك من المصطلحات الملاحية الأخرى تعتبر أحد أوجه النقص الواضحة في معاجم اللغة التي بين يدينا اليوم .

وإذا ما استثنينا ما جاء في قصص السندباد والرام هرمزي والسيرافي فإننا نجد فيما كتبه أحمد بن ماجد وسليمان المهري ، وما تداوله البحارة في الخليج العربي وبحر العرب ، ما يمكن أن يؤلف معجما للمصطلحات البحرية يعالج النقص الذي أشرنا إليه قبل قليل .

ومن أمثلة المصطلحات التي ذكرها ابن ماجد «الظهار» جمع «ظَهْرة» وهي الجزر الرملية التي في مستوى سطح الماء أو ترتفع عنه قليلا ، و«الفشت» وهي منطقة صخرية تكون غالبا قريبة من مستوى سطح البحر ، و«الطحلة» ، وهي قطعة بارزة من قاع البحر عليها مياه ضحلة وجمعها «طحال» ، و«الشعبان» وهي الشعاب المرجانية ، و«الطُوط» وهي الصخور الصدفية القريبة من الساحل[١] .

ويضاف إلى مؤلفات ابن ماجد وسليمان المهري ما جاء في المرشدات البحرية التي وصلتنا عن ربابنة بحار الخليج والجزيرة العربية المحدثين ، ومن ذلك

(١) حسن صالح شهاب: فن الملاحة عند العرب، بيروت ١٩٨٢م، ص ٢٤٩.

كتاب «دليل المحتار في علم البحار» لعيسى القطامي الذي ألف عام ١٣٣٤هـ ، وكتاب «مجاري الهداية» لراشد بن فاضل آل بن على الذي نشر في المنامة عام ١٣٤١هـ ، ومجموعة «الروزنامات البحرية» التي أصدرها مركز البحوث والدراسات الكويتية بعناية الدكتور يعقوب الحجي ، حيث نجد في هذه الكتب مجموعة من المصطلحات لا نجدها عند ابن ماجد والمهري .

ثانيا- المصادر العربية الحديثة:

اعتمدت المصادر العربية القديمة -كما رأينا- على الجهود الفردية ، كما أنها كانت قائمة ، في معظمها ، على جمع المعاني والمصطلحات الموجودة فعلا في مفردات اللغة العربية . وكانت الحاجة إلى ذلك ناشئة عن رغبة اللغويين في تسجيل كلام العرب وتدوينه ، للحفاظ على مفردات هذه اللغة ، والاستفادة منها في الدراسات القرآنية والأدبية ، بعد أن كثرت الألفاظ الدخيلة نتيجة اتساع الرقعة الإسلامية .

وقد تكدست في الوقت الحاضر مجموعة كبيرة من المصطلحات في فروع الجغرافية المختلفة ، وذلك بعد أن قطع العالم الغربي شوطا كبيرا في تطوير هذا العلم منذ بدايات النهضة الأوربية حتى الآن ، بل إن تلك المصطلحات تتكاثر يوميا ، مما جعل الحاجة ماسة إلى جهود منظمة للتعريب وملاحقة الجديد في التطورات العلمية . وقد تميزت الفترة المعاصرة بظهور الجهود الجماعية ، مثل المجامع العلمية ومراكز التعريب ، بالإضافة إلى تنظيم المؤتمرات والندوات المتعلقة بهذا الموضوع .

ومع ذلك ، فإن هناك أوجه خلاف واسعة بين القدماء والمحدثين ، منها

انفصال معظم الجغرافيين المعاصرين عن تراثهم اللغوي القديم ، واقتصارهم على ما درسوه في مجال تخصصهم الدقيق . وهذا أمر متعلق بطبيعة التكوين العلمي للباحثين وطريقته ، واختلاف منهج التعليم في الوقت الحاضر عما كان عليه من قبل . ومن أوجه الخلاف أيضا ظهور مصطلحات جديدة ليس لها وجود في معاجم اللغة القديمة ، مما يثير قضية جديدة في مجال البحث .

وسنحاول فيما يلي إلقاء الضوء على بعض الجهود التي بذلت في هذا المضمار :

١- الجهود الجماعية:

وتتمثل هذه الجهود في ثلاثة نشاطات هي : المجامع العلمية ومكتب تنسيق التعريب بالرباط والمؤتمرات والندوات العلمية .

(أ) المجامع العلمية :

بذلت المجامع العربية مجهودا مشكورا في قضايا تعريب المصطلح العلمي ، وقد بلغ عدد البحوث التي نشرت في هذا المجال أكثر من ٤٥٠ بحثا وتعليقا ، نشرت كلها في مجلات المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية حاليا) ، ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة بالإضافة إلى نشرة البحوث والمحاضرات ومحاضر جلسات المجمع[١] ، بالإضافة إلى جهود المجمعين العراقي والأردني .

وقد أعطى مجمع اللغة العربية بالقاهرة اهتماما خاصا بالمصطلحات

(١) محمد خير بدرة، ثريا كردعلي: دليل الباحث اللغوي في الدوريات العربية، بيروت ١٩٨٢م، جـ١، ص ص ٨٥ ـ ١٢٦.

الجغرافية ، حيث بدأ أعماله بموضوع كتابة الأعلام الجغرافية والتاريخية التي عرفتها العربية من مصادر أجنبية ، فشكل في ٦ من فبراير ١٩٣٧م لجنة مهمتها تصحيح الأعلام التي وردت في الأطالس الجغرافية التي طبعتها مصلحة المساحة المصرية باللغة العربية ورسمها بالحروف العربية على القواعد التي أقرها المجمع .

وفي سنة ١٩٤٧م ألف المجمع لجنة الجغرافيا والتاريخ برئاسة المرحوم الدكتور طه حسين ، ولم تنجز هذه اللجنة في مجال الجغرافيا سوى الشيء القليل . وبعد أن عين المغفور لهما الدكتور محمد عوض محمد والأستاذ إسماعيل مظهر عضوين بالمجمع عام ١٩٦١م استقلا بلجنة الجغرافيا ومعهما المرحوم الدكتور محمد محمود الصياد الذي سبق أن شارك اللجنة السابقة بصفة خبير في الجغرافيا .

وركزت هذه اللجنة الجديدة منذ البداية على تعريب المصطلحات بهدف تكوين لغة علمية موحدة للجغرافيين العرب ، ووضعت قواعد لهذا التعريب تتلخص فيما يلي[1] .

١- إحياء المصطلح القديم إلا إذا ثبت قصوره عن تأدية المعنى المقصود في المفهوم العلمي الحديث . وقد أحييت بالفعل كثيرا من المصطلحات الخاصة بالبيئة الصحراوية ، إذ وجدت أن العرب لم يتركوا مظهرا من مظاهرها إلا وضعوا له مصطلحا دقيقا يفي بالمعنى أكثر مما تفي به المصطلحات الأجنبية .

(١) محمد محمود الصياد (تصدير وإشراف): المعجم الجغرافي، إعداد لجنة الجغرافيا بمجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٧٤م، ص: ز، ح من المقدمة.

٢- إعادة اللفظ الأجنبي إلى أصله العربي إذا كان مأخوذا عنه ، فردت مثلا "Lava" إلى أصلها العربي «لابة» .

٣- تعريب المصطلحات الأجنبية التي لا نظير لها في العربية وتحويرها لتتفق مع اللسان العربي بشرط أن يظل جرسها قريبا من نطقها في اللغة الأجنبية ، وأن تكتب بحسب ما أقره المجمع من قواعد لكتابة الألفاظ الأجنبية .

٤- اجتناب الألفاظ العامية إلا إذا كانت شائعة بالمعنى نفسه عند الجغرافيين العرب ، وتعذر الوقوف على مصطلح عربي فصيح يحل محلها .

٥- وضع تعريف موجز لكل مصطلح حتى يفهم على وجهه الصحيح .

واتخذت اللجنة من معجم مور (Moore, M.G) نواة لعملها[١] ، فقد أعد المرحوم إسماعيل مظهر قائمة عربية بالمصطلحات الواردة في ذلك المعجم ، ثم استكملت تلك القائمة بمعجمي ستامب ومنكهاوس[٢] .

وقد نشر عمل اللجنة بتصدير وإشراف المرحوم الدكتور محمد محمود الصياد في معجم يضم أكثر من ألف وخمسمائة مصطلح بعدما قامت اللجنة باستبعاد عدة مئات من المصطلحات الأجنبية لاستعمالها المحلي البحت ، أو لعدم أهميته ، وقد تضمن المعجم تعريفا موجزا لكل مصطلح يوضح معناه

(1) W. G. Moore: A Dictionary of Geography, London, 1962.

(2) L. Dudly Stamp: A Glossary of Geographical Terms, London, 1962.

- F.J. Monkhouse: A Dictionary of Geography. London, 1972.

وقد أعيد تصويره في بيروت (مكتبة لبنان) وأضيف إليه قائمة بالمصطلحات العربية المقابلة للمصطلحات الأجنبية المذكورة في المعجم، من إعداد أحمد شفيق الخطيب.

الدقيق ، مع وضع المصطلح الأجنبي الذي يقابله . وقد رتبت ألفاظ المعجم على حسب حروف الهجاء العربية ، وألحق به كشاف بالمصطلحات الأجنبية مرتب على حسب حروف الهجاء اللاتينية .

ويُعد هذا المعجم من الجهود الجادة التي وقفت أمام ذلك الاضطراب الذي ساد لغة العلم ، وقد سد ثغرة مهمة في مجال المصطلح الجغرافي العربي ، بل يعتبر من أهم الأعمال الجماعية التي تمت في هذا المضمار .

(ب) مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي (الرباط) :

انبثق هذا المكتب عن مؤتمر التعريب الأول المنعقد في الرباط عام ١٩٦١م ، وتبنته جامعة الدول العربية عام ١٩٦٥م ، وأبرز أعماله إصدار مجلة «اللسان العربي» ، وهي ملتقى الكثير من البحوث والدراسات اللغوية العربية ، بالإضافة إلى قوائم المصطلحات التي تنشر فيها بين حين وآخر . ويقوم عمل المكتب على الأسس التالية :

١- جمع المقابلات العلمية العربية للمصطلح الأجنبي التي وضعتها المجامع اللغوية والجامعات والمختصون والمعجميون في الوطن العربي والتنسيق بينها لمعرفة ما اتفق منها وما اختلف فيه ، ومقارنتها مع مصطلحات التراث .

٢- عقد ندوات مصغرة للمختصين العرب لمراجعة المصطلحات العربية ومقارنتها مع مقابلاتها الأجنبية في ضوء مدلولاتها العلمية .

٣- استكمال النقص في المصطلحات العربية ، وذلك بتتبع ما يصدر من

المعاجم العلمية والتقنية في البلدان المصنعة في أوربا وأمريكا وما يستجد في مجالات الاختصاص .

٤- الإعداد لمؤتمرات التعريب للنظر في المصطلحات المنسقة وتوحيدها وإقرارها ، وتعميم استعمالها في جميع أقطار الوطن العربي[١] .

وقد قام مكتب التنسيق بالتمهيد لمؤتمري التعريب الثاني والثالث ١٩٧٣م ، ١٩٧٦م ، ونشر نتائجهما في صورة مجموعة من المعاجم المتخصصة . ويهمنا من تلك المعاجم معجمان هما معجم «مصطلحات الجغرافيا والفلك في التعليم العام»[٢] مع ما يقابلها باللغتين الإنجليزية والفرنسية . ويقع الجزء المتعلق بالجغرافيا من هذا المعجم في ٤٦ صفحة ، وهو محدود الفائدة حتى لمن وضع لهم ، فعلاوة على ضآلة عدد المصطلحات الواردة فيه ، احتوى المعجم على كثير من الكلمات العامة التي ينبغي ألاّ تندرج ضمن الألفاظ الاصطلاحية الجغرافية ، مثل أسماء الشهور وأسماء الأشجار والمنتجات الزراعية وغير ذلك . أما المعجم الثاني فهو «معجم الجيولوجيا»[٣] ويحتوي أيضا على ما يقابل المصطلحات الجيولوجية باللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وتأتي أهمية هذا المعجم الذي يقع في ٢٣٨ صفحة في كونه يتضمن مجموعة كبيرة من مصطلحات أشكال الأرض ، مع بيانات عن المصادر التي استقيت منها تلك المصطلحات .

(١) عبدالعزيز بن عبدالله: «منهجية مكتب تنسيق التعريب في توحيد المصطلح العلمي العربي» (بحث غير منشور)، مؤتمر التعريب، دمشق ١٩٨٢م، ص ٤.
(٢) نشر مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، الرباط ١٩٧٧م.
(٣) نشر مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، الرباط ١٩٧١م.

(جـ) المؤتمرات والندوات العلمية :

عقدت في الوطن العربي العديد من اللقاءات العلمية التي تناولت موضوع التعريب والمشكلات المتعلقة به ، ومن تلك اللقاءات :

- مؤتمر التعريب الأول - الرباط ١٩٦١م .
- أسبوع التعريب في المغرب - يناير ١٩٦٣م .
- مؤتمر التعريب الثاني - الجزائر ١٩٧٣م .
- مؤتمر التعريب الثالث - طرابلس ١٩٧٦م .
- ندوة الثقافة العربية للتعريب - طرابلس ١٩٧٥م .
- مؤتمر تعريب التعليم العالي في الوطن العربي - بغداد ١٩٧٨م .
- ندوة التعريب وقضايا اللغة العربية في التعليم الجامعي - الخرطوم ١٩٧٩م .
- مؤتمر التعريب - اتحاد الجامعات العربية - دمشق ١٩٨٢م .

وكان غرض هذه اللقاءات العلمية في البداية هو بث الوعي القومي بأهمية استخدام اللغة العربية لغة أولى في أقطار المغرب العربي بشكل خاص ، ولهذا عقدت اللقاءات الأولى في أقطار المغرب العربي كالرباط والجزائر وطرابلس ، ثم اتسع ذلك الغرض ليشمل قضايا التعليم الجامعي في الوطن العربي بشكل عام ، وتعريب العلوم على وجه الخصوص . وقد أشرنا قبل قليل إلى بعض نتائج تلك المؤتمرات المتصلة بالمصطلحات الجغرافية والمتمثلة بإصدار معجمي الجغرافيا والجيولوجيا .

ومازال أمام تلك المؤتمرات الكثير من الأمور التي يمكن النهوض بها في مجال التعريب ، وبخاصة تعريب المصطلحات ، فمن ذلك الانتقال من التعميم إلى التخصيص ، وذلك بعد ندوات يتدارس فيها المختصون في العلوم المختلفة شؤون مصطلحاتهم ، ووضع الأساليب الكفيلة بالمتابعة والتنفيذ .

وإذا ما جعلنا هذه اللقاءات جانبا ، ونظرنا في الجهود الأخرى التي أسهمت في هذا المجال ، لوجدنا أن المؤتمر الجغرافي العربي الأول الذي عقد في القاهرة عام ١٩٦٢م تحت رعاية المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية قد أعطى اهتماما خاصا لقضية المصطلحات الجغرافية وتعريبها ، وقد صدرت سبع توصيات خاصة بتلك المصطلحات ، وأدرجت ضمن قرارات المؤتمر . وكان من أهم أعمال المؤتمر مجموعة من قوائم المصطلحات أعدتها اللجان الفرعية . وأسلوب عمل تلك اللجان هو الرجوع إلى المصنفات العربية في المواد الجغرافية المختلفة ، وجمع المصطلحات منها كما استعملها المؤلفون المتخصصون ، وهي طريقة تختلف عن طريقة مجمع اللغة العربية التي تنظر أولا إلى المصطلح الأجنبي ثم تبحث عن مقابل عربي لهذا المصطلح[١] .

وقد طبعت تلك القوائم في معجم يحمل عنوان «المصطلحات الجغرافية» بتصدير مقرر اللجنة المرحوم الأستاذ الدكتور سليمان حزين .

ويحتوي ذلك المعجم على نحو ١٣٥ صفحة من المصطلحات مبوبة على فروع الجغرافيا المختلفة . وكان في مقدمتها الجيمورفولوجيا التي احتوت قائمتها على خمسمائة مصطلح تقريبا ، جاءت مرتبة بحسب ترتيب المقابل الأجنبي

(١) المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، المصطلحات الجغرافية، القاهرة ١٩٦٥م، (مقدمة الدكتور سليمان حزين، مقرر اللجنة)، ص ص ٥ ـ ٩.

ولم تحتو تلك القوائم على تفسير للمصطلحات كما هي الحال في معجم مجمع اللغة العربية . كما أن الاختلاف في أسلوب العمل لم يحدث أية إضافات جوهرية على المعجم الجغرافي الذي أصدره مجمع اللغة العربية ، بل إن الأخير يفوقه في التنظيم ودقة العمل .

ولم تتم بعد هذا المؤتمر أية متابعة جادة لتوصياته في مجال المصطلحات ، سوى أن بعض الجغرافيين المحدثين أخذوا يذيلون كتبهم بقائمة تحتوي على المصطلحات المستخدمة فيها .

٢- الجهود الفردية

(أ) المعاجم الجغرافية العربية الحديثة :

مع أن كتابة المعاجم من الأمور الخطيرة التي ينبغي أن تنهض الجماعات بها ولا تترك لاجتهادات الأفراد ، فإن الملاحظ أن الجهد الفردي في إنشاء المعاجم الجغرافية في الوطن العربي لا يقل أثرا عن جهود اللجان والمؤسسات التي سبق التنويه بها . ويمكن أن نسجل في هذا المجال ثلاثة أعمال رئيسة هي :

١- «معجم المصطلحات الجغرافية» للدكتور يوسف توني (القاهرة ١٩٦٤م) :

يعتبر هذا المعجم من الجهود الطيبة التي بذلت في جمع شتات المصطلحات في الكتب الجغرافية العربية . ويرى المؤلف أن أي لفظ مادام قد كتب يوما في مقالة علمية أو كتاب جغرافي ، فمن حق القارئ أو الطالب أن يجد في طيات هذا المعجم شرحا له أو -على الأقل- إحالته إلى الكلمة الصحيحة التي شرح تحتها معنى ذلك اللفظ كمرادف .

وبناء عليه فقد أدخل في معجمه المصطلحات التي شاعت في بعض الأقطار العربية ، والتسميات المحلية للظاهرات الجغرافية . كما أدخل جميع الألفاظ التي أقرها مجمع اللغة العربية ، بالإضافة إلى الألفاظ المولّدة أو المعربة أو الدخيلة التي ارتضاها الجغرافيون عامة وشاعت في كتبهم ، بغض النظر عن اعتراض اللغويين على بعض تلك المصطلحات .

وقد رتب هذا المعجم على ترتيب حروف الهجاء العربية ، مع تفسير واف لكل مصطلح من المصطلحات ، والتمثيل بالرسم عند الحاجة ، وذيّل المعجم بقائمة تمثل المصطلحات الأجنبية المقابلة للمواد المذكورة فيه بحسب الترتيب اللاتيني لحروف الهجاء . وقد شغلت هذه القائمة مائة صفحة من الكتاب ، تحتوي على ما يقرب من ٤٠٠٠ مصطلح ، أما متن الكتاب فقد شغل ٥٦٧ صفحة . وهو أوسع المعاجم الجغرافية العربية التي ظهرت حتى الآن .

٢- «القاموس الجغرافي والجيولوجي» لعبدالوهاب الدباغ (بيروت ١٩٦٤م) :

وهو قاموس شارح للمصطلحات الإنجليزية في هذا المجال (إنجليزي عربي) ، وقد راعى في وضع مواده الترتيب الهجائي للألفاظ الإنجليزية ، ثم حاول أن يعطي كل مصطلح ما يقابله باللغة العربية ، واضطره ذلك إلى إعطاء شروح مطولة للمصطلحات التي لم يجد لها مقابلا باللغة العربية ، وقد اجتهد في وضع الرسوم التوضيحية والمصورات التي تخدم أغراض المعجم . ويمكن القول إن الاهتمام بشرح معنى المصطلح الإنجليزي يغلب على تحرّي المصطلح العربي الدقيق المقابل له . ويقع المعجم في ٢٩٦ صفحة . وقد ساعدت جامعة بغداد على طباعة هذا القاموس .

٣- «المصطلحات الجغرافية» للجامعي فضل الله عبداللطيف ومحمد بلفقيه (الرباط ١٩٧٧م) : وهو معجم فرنسي عربي ، وقد بين واضعا المعجم في مقدمتهما أن الغاية منه المساهمة في حل مشكلة التعريب التي تعاني منها بلدان المغرب العربي بشكل خاص . وذكرا أن عملهما قد مر بأربع مراحل :

المرحلة الأولى : جرد المصطلحات الفرنسية وتدقيق معانيها بالاعتماد على قاموس الجغرافيا(١) ، الذي أحصى جل المصطلحات المتداولة بالجامعات الفرنسية .

المرحلة الثانية : مراجعة المعاجم العلمية ، ويتضح من كلامهما أنهما لم يطلعا إلا على معجم يوسف توني ، الذي انتقداه بأنه «أصبح اليوم قاصرا لا يفي بالحاجة ، بالإضافة إلى أنه يكاد يقتصر على الجغرافيا الطبيعية التي أغفل منها الشيء الكثير ، والتي غالبا ما أثبتت فيها بالحروف العربية المصطلح الأعجمي دون تعريفه» .

المرحلة الثالثة : دراسة المعاجم اللغوية ، وقد أشار المؤلفات إلى اطلاعهما على كتاب تهذيب اللغة للأزهري وعلى متن اللغة وقاموس لاروس .

المرحلة الرابعة : وضع المصطلح العربي ، تكلم المؤلفان في هذه المرحلة عن الصعوبات التي واجهتهما في حالة عدم وجود كلمة عربية تقابل أو تقارب اللفظ الفرنسي ، لذلك لجأ المؤلفان إلى وضع البحث المعتمد على

---

(1) P. Dictionnaire de la Geographie.

النحت والاشتقاق ، فظهرت بعض المشكلات المتعلقة بالسوابق واللواحق والكلمات المركبة . والواقع أن ما أورداه من كلمات موضوعة أو مركبة تحتاج إلى توقف ومراجعة وبخاصة أن المعجم لا يحتوي على تفسير للمصطلحات المذكورة فيه . أما عن انتقادهما لمعجم المصطلحات الجغرافية ليوسف توني ، فأعتقد أنه ليس في محله إذا ما قورنت هذه المصطلحات بما جاء في هذا المعجم .

ويقع هذا المعجم في ٢٢٢ صفحة .

وقد صدرت بالإضافة إلى ذلك بعض المعاجم التي ترجمت عن لغات أخرى ، وتختلف تلك المعاجم فيما بينها اختلافا بينا في اختيار المرادف العربي المناسب .

ونشير هنا إلى معجمين أساسيين هما «معجم مصطلحات الجغرافية والبيئة الطبيعية» لمنكهاوس وجون سمول (F.j. Monkhouse and J. Small) وقد أعده أحمد الخطيب ، ونشرته مكتبة لبنان (١٩٧٤م) وقد أوردت هذه النشرة النص الإنجليزي للكتاب مع مسرد فقط للمصطلحات الجغرافية وما يقابلها بالعربية دون الدخول في التفصيلات .

أما المعجم الثاني ، فهو «معجم المصطلحات الجغرافية» لبيار جورج (Pierre George) وقد نقله عن الفرنسية الدكتور حمد الطفيلي ونشرته المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر في بيروت عام ١٩٩٤م . ولا يقدم المعجمان المذكوران جديدا إذ لم تتم الاستفادة من المصادر العربية في تعريب المصطلحات .

(ب) البحوث والمقالات العلمية :

البحوث المكتوبة عن المصطلحات صنفان : الأول منهما لم يتعرض لمشكلة وضع المصطلح أو وسائل استنباطه ، بل اقتصر على تجميع بعض المصطلحات الجغرافية العربية من خلال الاطلاع السريع على المعاجم اللغوية العربية ، ولم يتعرض كُتَّاب هذا الصنف للألفاظ الأجنبية المقابلة لتلك المصطلحات إلا بشكل عابر جدا[1] . وفائدة هذا النوع من البحوث محدودة بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده . أما الصنف الثاني ، فهي البحوث التي تناولت بعمق وجدية موضوع المصطلح ، ويهمنا منها بحثان :

١- «لغة الجغرافيين العرب ومصطلحاتهم - دراسة في الجيونوماستيكية العربية ومصادرها» للدكتور يوسف توني ، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد التاسع ، ١٩٦٤م ، ص ص ٢٦٧ ـ ٣٠٦ .

وعلى هذا البحث ملاحظات كثيرة ، وبخاصة حينما تكلم الباحث عن المصادر العربية القديمة في الموضوعين الأول والثاني من بحثه ، حيث يبدو فيما كتبه التحامل الواضح على اللغة العربية وإمكانات الاستفادة منها ، ختمه بعبارة بعيدة عن الموضوعية ، يقول فيها : «وما تراثنا من المصطلحات الجغرافية القديمة إلا كثروة تذكارية ، أشبه بعض الشيء بثروة من النقود الرومانية التي لا نستطيع

---

(١) انظر على سبيل المثال:
- إبراهيم السامرائي: «ما يفيده الجغرافي من المادة اللغوية»، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الرابع، يناير ١٩٦٧م، ص ص ٦١ ـ ٧٧.
- محمد محمود محمدين: «مصطلحات التراث الجغرافي» مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض ١٩٨٠م، المجلد السابع، ص ص ٥٩ ـ ٩٥.

أن ننتفع بها في ضرورياتنا ، ولكنها تصلح لأن تزين بها متاحفنا لقيمتها التاريخية لا المادية»[1] .

كما أن في كثير من أقواله عن الجغرافيين العرب القدامى ما يدعو إلى التوقف وإعادة النظر ، فمن ذلك قوله إن : «الجهات الأصلية عندهم غير -وربما عكس- الجهات الأصلية عندنا[2]» وكذلك إنكاره لإمكان الاستفادة من معجم البلدان لياقوت ، ، باعتباره معجما لتقويم البلدان وأسماء الأماكن . . وقد أوضحنا من قبل أن ما جاء في ثنايا هذا المعجم من مصطلحات أشكال سطح الأرض فقط يقرب من ٣٥٠ مصطلحا .

ويمكن القول إن دراسته في هذا الجزء من الموضوع كانت موجهة ، ولم تَنْبن على اتصال مباشر بالمصادر القديمة .

٢- «رأي في تعريب المصطلحات الجيومورفولوجية» للدكتور علي شاهين .

وقد نشره أولا في المجلة العربية للجمعية الجغرافية المصرية عام ١٩٧٠م ، ثم أعاد نشره في كتابه «مقالات في الجيومورفولوجيا» ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٨م ، ص ص ١٣١ - ١٥٥ .

ويُعد هذا البحث من البحوث العربية القيمة في مجال تعريب المصطلحات بيَّن فيه الباحث -من خلال عدد من الأمثلة التطبيقية- أن التعريب ليس أمرا سهلا ، فهو ليس مجرد ترجمة حرفية بقدر ما هو دراسة تحليلية لمضمون كل مصطلح في ضوء اختلاف لغة الجيومورفولوجيين وبيئاتهم ، واختلاف

(١) يوسف توني: لغة الجغرافيين العرب ومصطلحاتهم، ص ٢٨٤.
(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

استعمالاتهم للمصطلحات ، بالإضافة إلى اختلاف مدارس الفكر الجيومورفولوجي .

وأتفق مع الباحث هنا في أنه لو اتبع في تعريب المصطلحات هذا الأسلوب العلمي في تتبع كل مصطلح ودلالاته المختلفة قبل وضع المقابل الغربي له لأمكن الوصول إلى مصطلحات عربية دقيقة ، يمكن أن يبنى عليها فهم أفضل للمادة العلمية المنقولة أو المعربة .

وبالإضافة إلى هذين البحثين هناك العديد من المقالات والكتب التي تطرقت للمصطلحات من خلال البحث المنهجي العام أو التطبيقي .

ونشير هنا إلى كتابين رائدين لأستاذين كان لهما السبق في وضع معظم المصطلحات المتداولة بين الجغرافيين العرب في الوقت الحاضر[1] ؛ أولهما : هو المرحوم الأستاذ الدكتور محمد متولي ، وله الفضل في تأليف أول كتاب عربي في موضوع أشكال سطح الأرض الذي كان حصيلة المحاضرات التي ألقاها على طلبة الجغرافيا منذ أن عهد إليه بالتدريس في كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٩م . وثانيهما : الأستاذ الدكتور محمد صفي الدين أبو العز أستاذ الجغرافيا الطبيعية ورئيس قسم الجغرافيا بجامعة الكويت ، وقد تناول في كتابه «قشرة الأرض» أشكال سطح الأرض وفق منهجية جديدة ، مع التركيز على دراسة الأشكال الأرضية الثانوية ، والعوامل العديدة التي ساهمت في تكوينها وتشكيلها .

(١) محمد متولي: وجه الأرض، القاهرة ١٩٤٧م. ومحمد صفي الدين أبو العز: قشرة الأرض، القاهرة ١٩٥٧م.

وتتجلى أهمية الكتاب الثاني في أن الدكتور صفي الدين أبو العز قد بذل جهدا واضحا في تأصيل المصطلحات التي استخدمها الدكتور محمد متولي أو تعديلها ، كما استنبط ووضع مجموعة كبيرة من المصطلحات الجديدة التي مازالت مستخدمة في المؤلفات الجيومورفولوجية العربية الحديثة . وتظهر معاناته في هذا الموضوع في قوله من مقدمة كتابه : «وربما لم أبذل جهدا في تيسير هذه المادة للدارسين والبحّاث قدر الجهد الذي بذلته في اختيار أوفق التعبيرات العربية التي تقابل المصطلحات العلمية والأجنبية» . وأشار في مقدمته أيضا إلى ضرورة عقد مؤتمر علمي يجلس فيه جغرافيو الأقطار العربية بغية الاتفاق على المصطلحات العلمية وتعميمها ، مما يتسنى معه تقوية الأواصر والروابط العلمية بين أبناء هذه الأقطار .

وقد أتيح للمصطلحات التي استخدمت في الكتابين المذكورين من الذيوع والانتشار ما لم يتح لأية مصطلحات أخرى ، بسبب الريادة أولا ، وللأعداد الكبيرة من الجغرافيين الذين درسوا على أيدي هذين الأستاذين الفاضلين . كما كان لعضوية الدكتور صفي الدين أبو العز في لجنة الجغرافيا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة تأثير واضح فيما أقره المجمع من مصطلحات أشكال السطح .

وتجدر الإشارة أيضا إلى أهمية الكتب الجغرافية المعربة ؛ فعن طريقها يمكن التعرف على تجارب مختلفة في مجال تعريب المصطلحات الجغرافية ، وكذلك نتبين مدى الفرقة السائدة بين الجغرافيين العرب المحدثين في استخدام المصطلحات . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أن كتاب "The Arid Zones' K. Walton" قد تُرجم مرتين في مكانين مختلفين في وقت واحد (١٩٧٦م) ،

وصدرت طبعتان للكتاب أولاهما في الإسكندرية بقلم الدكتور علي شاهين أستاذ الجغرافية الطبيعية بجامعة الإسكندرية ، والثانية في بغداد بقلم الدكتور نوري خليل البرازي من قسم الجغرافية ، بجامعة بغداد . ومن مراجعة النسختين والتعرف على الألفاظ التي استخدمها كل من المترجمين في مقابل المصطلحات التي وردت في الأصل[1] ، يمكن تصور حجم المشكلة التي تواجهنا في مجال تعريب المصطلحات ، والأثر الذي يتركه غياب التنسيق والتعاون العلمي بين زملاء المهنة .

(جـ) الرسائل الجامعية :

لم تنل قضية المصطلحات الجغرافية عناية كافية من الجامعات العربية ، فلم يوجه إلى دراسة هذا الموضوع إلا القليل من طلبة الدراسات العليا . ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى ثلاث رسائل علمية نال أصحابها درجة الدكتوراه في هذا الموضوع اثنتان منهما قدمتا إلى قسم اللغة العربية ، وقدمت واحدة فقط إلى قسم الجغرافيا . وفيما يلي بيان تلك الرسائل :

١- «الألفاظ ذات الدلالات الجغرافية في اللغة العربية» للدكتور عبدالحي عبدالحق عبدالغني ، تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبدالمجيد عابدين ، والرسالة مقدمة لقسم اللغة العربية بجامعة القاهرة فرع الخرطوم . وهي دراسة لغوية دلالية للألفاظ الجغرافية العربية في ضوء الدراسات اللغوية

---

(١) مما هو جدير بالذكر أن الاختلاف في تعريب الكتابين يبدو واضحا ابتداء من صفحة الغلاف، فعنوان الكتاب في ترجمة الدكتور علي شاهين كانت «الأراضي الجافة» بينما هي في ترجمة الدكتور نوري البرازي، «المناطق الجافة» واسم المؤلف في الترجمة الأولى «كينث والطون» وفي الترجمة الثانية «كي والتون». كما أن الاختلافات في الترجمتين واضحة في عناوين الفصول.

الحديثة . وتنقسم الرسالة إلى أربعة أبواب : الأول منها تمهيد في المفاهيم الجغرافية العامة ، والثاني حول دلالة الألفاظ في الجغرافية الطبيعية ، والثالث عن دلالة الألفاظ في الجغرافية الحيوية . أما الباب الرابع والأخير فيتضمن الخاتمة وهي دراسة تاريخية للمصطلح الجغرافي بالإضافة إلى ملخص نتائج البحث .

وقد نوقشت الرسالة عام ١٩٧٤م ، وتقع في ٢٦٨ صفحة من حجم الفولسكاب ، ولم تنشر حتى الآن .

٢- «الألفاظ الجغرافية في التراث العربي حتى نهاية القرن الهجري الثالث» للدكتور يحيى عبدالرءوف عثمان جبر ، تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي أستاذ علم اللغة ، والأستاذ الدكتور يوسف عبدالمجيد فايد أستاذ الجغرافيا المناخية . والرسالة مقدمة لقسم اللغة العربية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة . ويتضمن موضوعها استقصاء الألفاظ الجغرافية التي وردت في التراث العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، وقد قام الباحث بدراسة هذه الألفاظ في مجموعات دلالية من وجهة النظر اللغوية ، إضافة إلى دراسة بعض القضايا اللغوية التي تعكسها . وتقع هذه الرسالة في ستة فصول : يتناول الأول منها الألفاظ التي تطلق على أشكال السطح ، والثاني الألفاظ الخاصة بالتربة ، والثالث الألفاظ الخاصة بالمناخ ، والرابع الألفاظ المستخدمة في مجال المصادر المائية ، والخامس الألفاظ الخاصة بالنبات الطبيعي ، أما الفصل السادس والأخير فقد خصص لدراسة القضايا اللغوية المتصلة بالمصطلح .

ويتضح من بيان موضوعات الرسالة ومما ذكره الكاتب في مقدمة بحثه أنه

قد قصر موضوعه على ألفاظ الجغرافية الطبيعية فقط ، وهو أمر مفيد بالنسبة لموضوع مصطلحات أشكال السطح التي أفرد له ٢٥٣ صفحة من مجموع صفحات البحث البالغ عددها ٧٦٧ صفحة من حجم الفولسكاب . وقد نوقشت الرسالة عام ١٩٧٧م[١] .

٣- «أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية في المصادر العربية القديمة» للدكتور عبدالله يوسف الغنيم ، تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد صفي الدين أبو العز ، والرسالة مقدمة لقسم الجغرافيا بجامعة القاهرة . وتوخت هذه الدراسة أمرين : أولهما دراسة أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية بالاعتماد على التراث العربي القديم ومعالجة ذلك وفق منظور عصري ، وثانيهما التأكيد على المصطلحات المستخدمة في هذا الشأن واقتراح ما يمكن استخدامه في كتاباتنا الحديثة .

وتقع الرسالة في ٣١٢ صفحة ، وتنقسم إلى أربعة فصول ، يتناول الأول منها الملامح المورفولوجية العامة لشبه الجزيرة العربية ، والثاني العمليات الداخلية وأثرها في تشكيل سطح الأرض ، والثالث الأشكال الأرضية المرتبطة بالرياح ، أما الرابع والأخير فيتضمن الأشكال الأرضية الناتجة عن المياه .

وقد نوقشت الرسالة عام ١٩٧٦م ، وقد نشرت كاملة عام ٢٠٠٥م عن طريق الجمعية الجغرافية الكويتية .

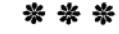
ويبدو مما سبق أن هدف البحثين الأول والثاني واحد ، وهو دراسة الألفاظ

---

(١) قام الدكتور يحيى عبدالرؤوف جبر بنشر جانب من رسالته، مع بعض الإضافات تحت عنوان «معجم ألفاظ الجغرافيا الطبيعية» عمان ١٩٨٧م.

الجغرافية وتصنيفها ضمن موضوع علم الدلالة اللغوي . ومع أن صاحب البحث الثاني لم يطلع على البحث الأول فإن بحثه جاء غنيا بالمادة العلمية والتفصيلات المهمة . ويؤخذ على البحثين القصور في المعرفة الجغرافية ، مما أدى إلى بعض الأخطاء العلمية في هذا المجال .

أما بالنسبة للبحث الثالث ، فمع كونه يمس جوهر الموضوع ، واعتماده على الدراسة الجغرافية الميدانية في استقراء كتب التراث العربي فإن كاتبه اعتمد في دراسته على مصطلحات منتخبة من تلك الكتب ، ولم يثبت -في أغلب الأمر- إلا ما هو معروف منها حتى الآن . ومن هنا تبدو قيمة البحث الثاني -على وجه الخصوص- في كونه قد جمع أكبر قدر من المصطلحات التي يمكن قيام مزيد من الدراسات الجغرافية عليها .



الخلاصة

١- توخت هذه الدراسة وضع يد الباحثين على المداخل الرئيسة للمصادر العربية التي تعرضت لمصطلحات أشكال سطح الأرض ، وذلك حتى يستفيد منها زملاء المهنة من الجغرافيين عند البحث عن الألفاظ الاصطلاحية الملائمة لبحوثهم المؤلفة أو المترجمة . وشجعني على الكتابة في هذا الموضوع وتقديمه في هذه الصورة المنهجية عدم وجود مرجع مناسب يعرِّف بالجهود القديمة والحديثة في مجال المصطلح الجغرافي ، وينير السبيل أمام الباحثين في الوصول إلى مصادر المعرفة في هذا الميدان بسهولة ويسر .

٢- ولما كان هناك اختلاف في طبيعة التكوين العلمي وطريقته بين القدماء والمحدثين ، نتيجة اختلاف مناهج التعليم في الوقت الحاضر عما كانت عليه من قبل ، فقد أدى ذلك -كما ذكرنا- إلى ابتعاد معظم الجغرافيين المعاصرين عن تراثهم القديم .

وهذه الدراسة ترمي إلى لفت أنظار المحدثين إلى ذلك التراث ، وبيان أهمية ما يحتوي عليه من مادة علمية ، مبنية على دراسة ميدانية للأشكال الأرضية ، يمكن عن طريقها استخراج ثروة من الألفاظ والمصطلحات الجيمورفولوجية ، التي تفيد كثيرا في تعريب المصطلحات الخاصة بهذا العلم بألفاظ مختصرة ودقيقة .

٣- ويتضح من الدراسة السابقة أن النماذج القليلة من المصطلحات التي وردت في أثناء الكلام عن المصادر القديمة ، توحي بضرورة القيام بمسح شامل لتلك المصطلحات وتبويبها تبويبا علميا ، واختيار المناسب منها ، وفق أسس وقواعد محددة ، تضمن لها الذيوع والانتشار . ولا شك في أن هذا العمل العلمي سيؤدي إلى تغيير في البناء اللغوي للبحوث الجغرافية ، بما يعمق دلالة الألفاظ ، ويقرب معانيها من الناس ، ويخلق فيها روح الأصالة والعتق . فكثير من الكلمات الأعجمية التي دخلت لغة هذا العلم (مثل كويستا ، وبهادا ، وبيدمنت وغيرها) لا صلة لها بالحس اللغوي العربي ، ولا يعكس ذكرها الدلالات والمعاني التي يولدها اللفظ العربي الأصيل .

وجمع تلك المصطلحات ينبغي ألا يقف عند حد الكتب الجغرافية القديمة مثل كتب الرحلات والبلدان والمعاجم الجغرافية ، فقد تبين لنا أن المادة الجغرافية التي يمكن استخلاصها من كتب الأدب ومعاجم اللغة وشروح الشعر العربي تفوق ما قد نحصل عليه من الكتب الجغرافية ؛ فعلى الجغرافي إذًا أن يأخذ من تلك المصادر جميعها ، وأن يتحقق منها عن طريق الدراسة الميدانية ، مسترشدا بكتابات المحدثين وبحوثهم .

٤- أن العملية المسحية التي أشرت إليها ، وما يتبعها من عمليات الانتقاء والتحليل والتبويب ، يمكن أن توفر مادة علمية تقوم عليها مجموعة من الدراسات المقارنة بين المصطلحات التي أخذ بها على عجل ، وشاعت في الكتابات الجغرافية العربية دون أن تحظى بالرضا الكامل عنها .

ومن شأن تلك الدراسات أن تؤدي إلى توحيد المصطلحات الجغرافية المتعلقة بأشكال سطح الأرض والمستخدمة في الأقطار العربية المختلفة أو التقريب بينها ، لأن أسسها مبنية على أصول لغوية واحدة لا اختلاف بين الباحثين في تلك الأقطار عليه . وإذا لم يمكن الوصول إلى مصطلح دقيق يؤدي المعنى المقصود لشكل من أشكال السطح يمكن الرجوع إلى الكلمة الأصلية التي اشتق منها ذلك المصطلح في اللغات الأخرى ، ومحاولة الوصول إلى لفظ ملائم يمكن تطويعه وفق الأبنية العربية . ففي حالة تعريب مصطلح ما عن الفرنسية أو الإنجليزية -على سبيل المثال- يحسن الرجوع إلى الأصل اللاتيني الذي اشتق منه المصطلح المستخدم من أجل الوصول إلى صيغة اصطلاحية غير منحازة .

وبهذا نصل إلى أسلوب جديد في معالجة المصطلح الجغرافي ينطلق من البحث عن المصطلح العربي التراثي ، وإشباعه شرحا وتحليلا ، ثم البحث عن مرادفه الأجنبي . وهذا الأسلوب يختلف عما فعله معظم الجغرافيين العرب المعاصرين ، وهو البدء بالمصطلح الأجنبي ثم البحث عن مقابله العربي .

المصادر والمراجع

أولا- المراجع العربية :

(١) **إبراهيم السامرائي** : «ما يفيده الجغرافي من المادة اللغوية» ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، المجلد الرابع ، يناير ١٩٦٧م ، ص ص ٦١ ـ ٧٧ .

(٢) **إخوان الصفا** : رسائل إخوان الصفا ، بيروت ١٩٥٧م .

(٣) **الأزهري ، محمد بن أحمد** : تهذيب اللغة ، القاهرة ١٩٦٤م .

(٤) **الإسكندري ، نصر بن عبدالرحمن** : الأمكنة والمياه والجبال والآثار ، نسخة مخطوطة محفوظة بالمتحف البريطاني ، رقم ٢٣٦٠٣ .

(٥) **البكري ، أبو عبيد** : معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥م .

(٦) **الجامعي فضل الله عبداللطيف ، محمد بلفقيه** : المصطلحات الجغرافية (معجم فرنسي عربي) ، الرباط ١٩٧٧م .

(٧) **جورج ، بيار** : معجم المصطلحات الجغرافية ، ترجمه عن الفرنسية حمد الطفيلي ، بيروت ١٩٩٤م .

(٨) **الجوهري ، إسماعيل بن حماد** : الصحاح ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، القاهرة ١٣٧٧هـ .

(٩) **حسن صالح شهاب** : فن الملاحة عند العرب ، بيروت ١٩٨٢م .

(١٠) **حمد الجاسر** : «المؤتلف والمختلف في أسماء المواضع بين الإسكندري والحازمي» ، مجلة العرب ، الرياض ١٩٦٧م ، المجلد الأول ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٥ .

(١١) **خالد سالم محمد** : ربابنة الخليج ومصنفاتهم الملاحية ، الكويت ١٩٧٢م .

(١٢) **ابن دحية ، عمير بن حسن** : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الإبياري وآخرين ، القاهرة ١٩٥٤م .

(١٣) **الرام هرمزي ، بزرك بن شهريار** : عجائب الهند ، بره وبحره وجزائره ، ليدن ١٨٨٦م .

(١٤) **الزبيدي ، محمد مرتضى** : تاج العروس ، مصر ١٣٠٧هـ .

(١٥) **الزمخشري ، أبو القاسم** : الجبال والأمكنة والمياه ، بغداد .

(١٦) **السكري ، أبو سعيد** : شرح أشعار الهذليين ، تحقيق عبدالستار فراج ، ومراجعة محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٦٥م .

(١٧) **السُّلمي ، عرام بن الأصبغ** : أسماء جبال تهامة وسكانها ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٣٧٣هـ .

(١٨) **ابن سيده ، علي بن إسماعيل** : المخصص ، بولاق ١٣١٨هـ .

(١٩) **ابن سينا ، علي بن الحسين** : الشفاء و المعادن والآثار العلوية ، تحقيق عبدالحليم منتصر وآخرين ، القاهرة ١٩٦٥م .

(٢٠) **عبدالحي عبدالحق عبدالغني** : الألفاظ ذات الدلالات الجغرافية في اللغة العربية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، قسم اللغة العربية ، جامعة القاهرة فرع الخرطوم ١٩٧٤م .

(٢١) **عبدالعزيز بن عبدالله** : «منهجية مكتب تنسيق التعريب في توحيد المصطلح العلمي» بحث غير منشور . مؤتمر التعريب ، دمشق ١٩٨٢م .

(٢٢) **عبدالله يوسف الغنيم** : أشكال سطح الأرض المتأثرة بالرياح في شبه الجزيرة العربية ، الكويت ١٩٨١م .

(٢٣) ــــــــــــــــ : أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية في المصادر العربية القديمة ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، الكويت ٢٠٠٥م .

(٢٤) ــــــــــــــــ : أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة ، الكويت ، ١٩٨١م .

(٢٥) ــــــــــــــــ : المخطوطات الجغرافية العربية في المتحف البريطاني ، الكويت ١٩٨٠م .

(٢٦) ــــــــــــــــ : مصادر البكري ومنهجه الجغرافي ، الكويت ١٩٧٤م .

(٢٧) **عبدالوهاب الدباغ** : القاموس الجغرافي والجيولوجي (معجم إنجليزي عربي) ، بيروت ١٩٦٤م .

(٢٨) **العسكري ، أبو هلال** : التلخيص في معرفة أسماء الأشياء ، تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق ١٩٦٩م .

(٢٩) **ابن علي ، راشد بن فاضل** : مجاري الهداية ، المنامة ١٣٤١هـ .

(٣٠) **الفيروز ابادي ، محمد بن يعقوب** : القاموس المحيط ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٢م .

(٣١) **القطامي ، عيسى** : دليل المحتار في عالم البحار ، الكويت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٦م .

(٣٢) **ابن ماجد ، شهاب الدين أحمد** : كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، تحقيق إبراهيم خوري ، وعزة حسن ، دمشق ١٩٧١م .

(٣٣) **المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم** : المصطلحات الجغرافية ، القاهرة ١٩٦٥م .

(٣٤) **مجمع اللغة العربية** : المعجم الجغرافي ، تصدير وإشراف الدكتور محمد محمود الصياد ، القاهرة ١٩٧٤م .

(٣٥) **محمد خير بدرة ، ثريا كردعلي** : دليل الباحث اللغوي في الدوريات العربية ، بيروت ١٩٨٢م .

(٣٦) **محمد صفي الدين أبو العز** : قشرة الأرض ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٣م ، ط٢ ، ١٩٦٥م ،

(٣٧) **محمد متولي** : وجه الأرض ، القاهرة ١٩٤٧م .

(٣٨) **محمد محمود محمدين** : «مصطلحات التراث الجغرافي» مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض ١٩٨٠م ، المجلد السابع ، ص ص ٥٩ ـ ٩٥ .

(٣٩) **مكتب تنسيق التعريب** : مصطلحات الجغرافيا والفلك في التعليم العام (معجم إنجليزي ـ فرنسي ـ عربي) ، الرباط ١٩٧٧م .

(٤٠) ـــــــــــــــ : معجم الجيولوجيا (معجم إنجليزي ـ فرنسي ـ عربي) ، الرباط ١٩٧١م .

(٤١) **ابن منظور ، محمد بن مكرم** : لسان العرب ، بولاق ١٣٠٠هـ .

(٤٢) **منكهاوس وجون سمول** : معجم المصطلحات الجغرافية والبيئة الطبيعية ، إعداد أحمد الخطيب ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٤م .

(٤٣) **المهري ، سليمان بن أحمد** : العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية ، تحقيق إبراهيم خوري ، دمشق ١٩٧٠م .

(٤٤) **المهري ، سليمان بن أحمد** : المنهاج الفاخر في علم الزاخر ، تحقيق إبراهيم خوري ، دمشق ١٩٧٠م .

(٤٥) **أبو نصر الباهلي ، أحمد بن أبي حاتم** : شرح ديوان ذي الرمة ، برواية أبي العباس ثعلب . تحقيق الدكتور عبدالقدوس أبو صالح ، دمشق ١٩٧٩م .

(٤٦) والتون (ك) : الأراضي الجافة ، ترجمة الدكتور علي شاهين ، الإسكندرية ١٩٧٦م .

(٤٧) والطون (ك) : المناطق الجافة ، ترجمة الدكتور نوري البرازي ، بغداد ١٩٧٦م .

(٤٨) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ١٨٨٦م .

(٤٩) يحيى عبدالرؤوف عثمان جبر : الألفاظ الجغرافية في التراث العربي حتى نهاية القرن الهجري الثالث ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، قسم اللغة العربية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧م . ومعجم ألفاظ الجغرافيا الطبيعية ، عمَّان ١٩٨٧م .

(٥٠) يوسف توني : معجم المصطلحات الجغرافية ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

(٥١) ــــــــــ : «لغة الجغرافيين العرب ومصطلحاتهم» حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد ٩ ، السنة ١٩٦٤م ، ص ص ٢٦٧ ـ ٣٠٦ .

ثانيا- المراجع الأجنبية :

(1) Cook, R. and Warren, A. Geomrphology in Deserts. London, 1973.

(2) Fairbridge, R.W (Editor), The Encyclopedia of Geomrphology, New York, 1968.

(3) Monkhouse, F. J. A Dictionary of Geography. London, 1976.

(4) Monkhouse, F. J. and Small, J. A dictionary of the Natural Environment, London, 1978.

(5) Moore, W. G. A Dictionary of Geography. London, 1962.

(6) Nida, E.A. Toward a Science of Translating. Leiden, 1964.

(7) Stamp, L.D. A Glossary of Geographical Terms, London, 1962.

(8) Swayne, J.c. A Concise Glossary of Geomorphical Terms, London, 1968.

استنباط المصطلحات العربية للأشكال الأرضية(*)

تمهيد:

أصبحت قضية تعريب المصطلحات المعاصرة من القضايا الرئيسة التي كرست لها جهود المجامع اللغوية العربية ومراكز التعريب المحلية والإقليمية مع عدد من الجهود الفردية . فالمصطلح العلمي يتزايد يوميا بنسبة خمسين كلمة كل صباح ، وبعض الدول المتقدمة كفرنسا أصبحت تشعر بالعجز عن مسايرة الركب دون أن تخضع لدخيل يغزو لغتها من دول أخرى أصبحت تتحكم بكشوفها العلمية في تكييف المصطلح التكنولوجي الحديث[1] .

ومن هنا فقد أصبح لزاما على الباحثين والمختصين العرب مؤازرة المجامع ومراكز البحث المذكورة وذلك عن طريق التعريف بالإضافات الجديدة في هذا الميدان ، والمعاونة في استنباط المصطلحات التي يمكن استخدامها الاستخدام المناسب .

والمشكلة التي يواجهها كل من يقدم على البحث أو التعريب في العلوم الحديثة والمتمثلة في المقابل العربي للمصطلح الأجنبي ، ليست دائما مشكلة

(*) نشر أصل هذا البحث في المجلة العربية للعلوم الإنسانية التي تصدر عن جامعة الكويت، العدد ١٢، المجلد الثالث، خريف ١٩٨٣م، (ص ص ١٣ ـ ٣٦).

(١) عبدالعزيز بن عبدالله: «إستراتيجية التعريب»، مجلة اللسان العربي، الرباط ١٩٧٥م، مجلد ١٢، ص ٥.

اللغة ، بل هي أيضا مشكلة الباحث الذي انقطعت صلته بتراثه القديم وانعزل عن اللهجات العربية الأخرى التي يشكل مجموع ألفاظها أدواته الحقيقية التي ينبغي أن يعالج بها المصطلح المعاصر . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح اللفظ الأجنبي يكتب بحرفيته ، أو يعبرعنه بعدة كلمات ، بينما اللغة العربية لغة معطاءة ثرية بألفاظها ، يتولد عنها بالاشتقاق والنحت والتوليد وغيرها من الوسائل العديد من الألفاظ والمعاني والمصطلحات .

ويتفق وضع المصطلح الجغرافي من الوجهة العامة مع غيره من مصطلحات العلوم الأخرى غير أن الدراسة التفصيلية تكشف عن جوانب متعددة من أوجه الاختلاف . فالمصطلح الجغرافي والمتعلق منه بدراسة أشكال سطح الأرض هو ذلك اللفظ الذي يعبر ببساطة ووضوح عن عملية أو ظاهرة يدخل في تشكيلها أكثر من عامل ، وتأتي أهميته من قدرته على التعبير عن المعنى وصياغة الأفكار الخاصة بمجال البحث مع قابليته للشيوع والانتشار .

وقد اتبع في استنباط المصطلح الجغرافي لأشكال سطح الأرض عدة وسائل منها التعريب المباشر والاشتقاق والنحت . وفيما يلي دراسة لكل وسيلة من تلك الوسائل مع بيان أهميتها وقيمتها في وضع المصطلحات .

أولا- التعريب:

تُعدّ هذه الوسيلة من أكثر الوسائل شيوعا في وضع المصطلحات ، فقد انتقل بوساطتها ، الجانب الأكبر من مصطلحات أشكال سطح الأرض ، وتتحدد هذه الوسيلة بثلاث طرق :

١- التعريب التلقائي :

وهو وجود اسم مشهور لا يحتاج معه إلى عناء في وضع المصطلح ، وينطبق ذلك على الظاهرات العامة الموجودة في كل اللغات مثل سهل ، تل ، جبل ، بحر ، نهر ، مستنقع . . . إلخ ، ويمكن تقديم قائمة طويلة ، من هذه المصطلحات التي اتفقت عليها المعاجم الجغرافية ، كما استخدمها كل من كتب أو ترجم كتابا في أشكال السطح ، وهي غنية عن البيان لكونها مما يجري على الألسنة والأقلام .

٢- تعريب المعنى بأكثر من كلمة :

وقد استخدمت هذه الطريقة في عدد كبير من المصطلحات ولكنها أقل من سابقتها ، ويعود اللجوء إلى هذه الطريقة إلى فهم واضح للمصطلح ، لكنَّ المعرِّب لم تسعفه اللغة بلفظ واحد للدلالة على الظاهرة فعرَّف المقصود منها بأكثر من كلمة ، وسار ذلك التعريف بين الجغرافيين وتناقلته المعاجم الجغرافية العربية . ويبدو في هذه المجموعة من المعربات النقص الذي أشرنا إليه قبل قليل وهو انقطاع صلة الباحث بتراثه القديم . فكثير من تلك المصطلحات المكونة من كلمتين أو ثلاث يمكن أن تحل محلها كلمة واحدة وافية بالغرض . وسنمثل لذلك بثلاثة أمثلة :

١- مصطلح Hanging Valley ترجمته في معظم المعاجم الجغرافية العربية «الوادي المعلق»[١] . وجاء تعريفه في المعجم الجغرافي : «واد به رافد أعلى منسوبا من وادي

(١) مجمع اللغة العربية: «المعجم الجغرافي»، تصدير وإشراف الدكتور محمد محمود الصياد، القاهرة ١٩٧٤م، ص ١١٣.
الدكتور يوسف توني: معجم المصطلحات الجغرافية، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٥٥٧.
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم: المصطلحات الجغرافية، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٤.

النهـر الذي يصب فـيـه ويكثـر في المناطق الجليـدية» ، وفي مـعـجم المصطلحـات الجغـرافية : «واد لرافد يتصل بنهر رئيسي من علو كبير يفوق كثيرا علو الوادي الرئيسي ، ومن ثم يتسبب في تكوين جنادل أو شلالات عادة . . إلخ» .

واللفظ العربي المقابل لهذا المصطلح هو «التلعة» وجمعها «تلاع» . جاء في اللسـان : «التـلاع مسـايل الماء يسـيل من الأسناد والنجاف والجـبـال حتى ينصب في الوادي . . وإذا جرت التلعـة من الجبـال فـوقعت في الصـحـاري حفـرت فـيـهـا كـهـيـئة الخنادق ، وإذا عظمت التلعة حتى تكون مـثل نصف الوادي أو ثلثيه تسمى ميثاء» (ابن منظور : ٩/ ٣٨٥) .

ومن مقارنة نص يوسف توني بالنص الذي أورده ابن منظور في اللسـان نجد المعنيين متطابقين ، بل أضـاف لنا النص القـديم إضـافة جديدة تفـيد في تصنيف الأودية المعلقة أو التلاع من حيث الحجم ، فقد ورد عند ابن منظور مصطلح للتلاع الكبيرة وهي «الميْثاء» وجمعها «ميث» .

٢- مـصطلح Valley Profile أو River Profile جـاءت ترجـمـتـه في المعـجم الجغـرافي بثلاث كلمـات هي «قطاع طولي للنهر» ، وفي وصـفه أنه «قطاع مستطيل يمثل انحدار النهر من منبعه إلى مصبه» (الصياد : ٧٨) ، وترجمه يوسف توني بكلمتين هما «قطاع النهر» وقال : «مقطع يبين انحدار الـنهر من منبـعه إلى مـصبـه» (توني : ٣٩٣) وقـد وضع الـعـرب كلمـة واحدة للدلالة على هذا المصطلح هي «السِّماط» وجـمعهـا «الأسمـاط» . قال ابن منظور : «سماط الوادي ما بين صدره ومنتهاه» (ابن منظور : ٩/ ١٩٧) .

٣- مصطلح Water- Parting أو divide جاءت ترجمته في المعجم الجغـرافي

بكلمتين هما «مقسم المياه» ووصف بأنه «أعلى جزء في المرتفعات تنحدر منه المياه في اتجاهين مختلفين» (الصياد : ٩٧) وترجمه يوسف توني في ثلاث كلمات هي «خط تقسيم المياه» وقال في وصفه «خط وهمي يمر بالمنطقة المرتفعة من الأرض التي تفصل بين المجاري العليا لروافد الأنظمة النهرية أو الأحواض النهرية المختلفة (توني : ٢١٠) .

وتخلو المعجمات اللغوية العربية من مقابل لهذا المصطلح ولكنني وجدت مقابله في مادة (سلع) في معجم البلدان لياقوت الحموي : «يقول أبو زياد : الأسلاع طرق في الجبال يسمى الواحد سلعا ، وهو أن يصعد الإنسان في الشِّعب ، وهو بين الجبلين ، حتى يبلغ أعلى الوادي ، ثم يمضي فيسند في الجبل حتى يطلع فيشرف على واد آخر ، يفصل بينهما هذا المسند الذي سند فيه ، ثم ينحدر حينئذ في الوادي الآخر حتى يخرج من الجبل منحدرا في فضاء من الأرض ، فذاك الرأس الذي أشرف من الواديين : السلع ، ولا يعلوه إلا راجل» (الحموي : ٣/ ١١٧) .

وهذا الوصف الذي نقله ياقوت عن أبي زياد الكلابي غني عن التعليق ، لوضوحه وشموله للمقصود بمصطلح المقسم المائي أو خط تقسيم المياه . كما أن ذلك الوصف يحمل بين طياته مصطلحا آخر قد استخدم في تعريبه أكثر من كلمة ، فمصطلح «المسند» الذي استخدمه الكلابي ، بتصريفاته اللغوية المختلفة هو المصطلح الإنجليزي نفسه Upstream الذي يقابله في بعض الكتابات الجغرافية ومعجم المصطلحات الجغرافية «مصعد النهر»[1] .

(١) يوسف توني: معجم المصطلحات الجغرافية، ص ٤٧٤.
أيضا: المصطلحات الجغرافية (المجلس الأعلى)ص، ٢٤.

٣- النقل الحرفي للمصطلح :

أجاز مجمع اللغة العربية في القاهرة الالتجاء إلى هذه الطريقة إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، بأن لا يوجد لفظ متداول في اللغة أو مهجور يؤدي بدقة المعنى المصطلح عليه[١] . وعلى ذلك فقد ضم معجم المجمع عشرات الكلمات الدخيلة مثل «كويستا» Cuesta و«كلدرة» Caldera و«دلتا» Delta و«كارست» Karst . وهذه الكلمات ، وعدد آخر من أمثالها مما شاع في كتابات الجغرافيين المحدثين وترجماتهم -ليست دخيلا على اللغة العربية فحسب بل دخلت إلى معظم اللغات الأجنبية ، فألفاظ كويستا وكالديرا وبلايا الإسبانية الأصل مثلا هي الألفاظ المستخدمة لتلك الظاهرة في الكتابات الإنجليزية والفرنسية والألمانية . ويرجع يوسف توني ذلك إلى تباين نشاطات المدارس الفكرية الجغرافية ، واستحداث بعضها لمصطلحات عديدة في ميادين لم تطرقها المدارس الأخرى ، مما أدى إلى وفرة المصطلحات الجغرافية الخاصة بفرع واحد من فروعها ، وغناها في بعض اللغات عنها في اللغات الأخرى[٢] .

ويرى يوسف توني : «أن منع دخول الكلمات الأجنبية الحديثة إلى لغتنا معناه دخول المعاني والأفكار التي تعبر عنها هذه الكلمات ، وبالتالي قسر العلوم وتوقف نموها في بلادنا أو على الأقل عرقلة انتشارها ومسايرة موكبها . فالكلمات الأجنبية التي دخلت آدابنا الجغرافية هي غالبا أسماء لظاهرات محلية ليس لها -في أغلب الأحوال- ما يماثلها في طبيعة بلادنا أو

(١) محمد سويسي: «مشكلة وضع المصطلح» مجلة اللسان العربي. الرباط ١٩٧٥م، المجلد ١٢، جـ١ ص ١٣.

(٢) يوسف توني: «لغة الجغرافيين العرب ومصطلحاتهم» حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس، المجلد ٩، السنة ١٩٦٤، ص ٢٨٧.

نصوصها اللغوية . ومن ثم فلا يعيبنا أن نستضيف كلمات مثل «سافنا» الإسبانية و«أسكر» الإيرلندية ، و«زاستروجي» الروسية و«كارست» اليوغسلافية إلى غير ذلك ، فنتبناها في لغتنا العربية ، وأنه لا يحق لنا أن نمج الدخيل إذا كان هذا الدخيل أمرا متبادلا ، فقد دخل على اللغات الأجنبية عديد من الألفاظ العربية المعبرة عن المظاهر الصحراوية وذلك مثل واد وشط وسبخة وسيف وغيرها»[١] .

وقد يبدو هذا الرأي منطقيا من حيث الشكل ، غير أن التسليم به يؤدي بنا إلى الاستسلام لغزو ثقافي لا آخر له ، يستهدفنا في أعز ركن من أركان ديننا وقوميتنا وهو اللغة العربية . فالدراسة الدقيقة لهذا الموضوع تبين لنا أن نسبة ما استخدمته اللغات الأجنبية من ألفاظنا العربية ضئيل للغاية ، ولا يمكن بأي حال أن نكون لهم أندادا . كما أن الألفاظ الدخيلة التي استعملها يوسف توني في معجمه ، أو التي شاعت في كتابات الجغرافيين العرب المعاصرين ، وأقر منها مجمع اللغة العربية ما أقر لم تخضع لدراسة مكتبية أو ميدانية وافية أو استشارات على نطاق الوطن العربي للتأكد من عدم وجود لفظ متداول يؤدي المعاني المطلوبة . ودليل ذلك أن لفظ «برخان» المعربة الدالة على الكثيب الهلالي[٢] يقابلها في اللغة العربية عدة تسميات منها «الحنو» والجمع «أحناء» و«القوز» والجمع «أقواز» و«الدعص» والجمع «أدعاص» وهذه

(١) المرجع السابق: ص ٢٨٨.

(٢) جاء في المعجم الجغرافي لمجمع اللغة العربية (ص ١٤) أن لفظ «برخان» معرب، وفي الوقت نفسه يشيع استعماله في صحراء سيناء وصحراء تركستان. وقد نظرت في عدد من البحوث التي كتبت عن سيناء فلم أجد ما يؤيد كونه من الألفاظ المستعملة محليا، فضلا عن المعرفة الأكيدة بأصله الآسيوي.

الكلمات مستعملة عند بعض القبائل في شبه الجزيرة العربية حتى اليوم ، وكان يمكن أخذ إحدى تلك التسميات .

ومن الألفاظ التي يتضح فيها قصور الدراسة أن مصلح «دَحْل» وضع مقابلا للفظ Defile ، وجاء في تفسيره أنه «نقب ضيق فمه متسع أسفله حتى ليمشى فيه»[1] وهذا يوحي بأن المعنى المقصود هو الطريق أو الدرب الضيق . بينما المعنى الحقيقي الوارد في المعجمات اللغوية العربية والمعروف محليا حتى وقتنا الحاضر في إقليم الصمان في شرقي الجزيرة العربية هو حفرة أو مغارة تتعمق في طبقات الحجر الجيري من خلال الشقوق والفواصل نتيجة إذابة المياه للمادة الجيرية ، ويقابلها في المصطلح الأجنبي Swallow hole أو Sinkhole وشتان ما بين المعنيين .

كما أن لفظ «كويستا» ما كان له أن يشيع في كتابات الجغرافيين العرب المعاصرين لو كان إقرار هذا اللفظ الدخيل جاء مبنيا على دراسة علمية ميدانية ، فهذا اللفظ يدل على ظاهرة منتشرة في صحارينا العربية ، وفي دراسة لي لأشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية لاحظت انتشار هذه الظاهرة بشكل لافت للنظر على هوامش الكتلة العربية القديمة (الدرع العربي) ويطلق عليها السكان هناك اسم «الجالات» مفردها «جال» وتمتد في شكل محاور يصل عددها في بعض المواضع نحو ثمانية جالات ، تواجه الغرب منها جروف وعرة شبه قائمة ، ومنحدرة انحدارا لطيفا نحو الشرق وفقا للانحدار الطبوغرافي العام لشبه الجزيرة العربية ، ولعل أوضحها وأهمها سلسلة مرتفعات العارض التي يتراوح ارتفاع قممها بين ٨٥٠ مترا و١٠٦٠

---

(١) المرجع السابق: ص ٥٠.

مترا فوق مستوى سطح الأرض وتمتد من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠٠ كيلو متر وتسمى جبل طويق أو العارض . وإلى الشرق منها تمتد سلسلة أخرى من المرتفعات الشبيهة بها ويطلق عليها اسم «العرمة» وترتفع جروفها نحو ٥٤٥ مترا فوق مستوى سطح الأرض .

ولفظ «جال» الذي استخدمه السكان هناك منذ مئات السنين هو لفظ ذو جرس عربي سهل في النطق وفي التصريف . وهو أيضا مشتق من البناء اللغوي العربي . فقد أطلق العرب على جدار البئر وجانبي الوادي وشاطئ البحر اسم «الجال» بمعنى الحافة ، ومن هنا جاء استخدام أهل الجزيرة العربية لهذا المصطلح ، فأهم ما يميز «الكويستا» هو جانبها الوعر الذي هو أشبه بالحافة ، فكان لفظ «الجال» الذي غلب في شيوعه على المعاني المعجمية الأخرى[1] .

ثانيا- الاشتقاق:

الاشتقاق أخذ لفظ من آخر بشرط مناسبتهما في المعنى والتركيب ومغايرتهما في الصيغة . والاشتقاق أربعة أنواع هي[2] :

---

(١) لا يزال لفظ «الجال» يستخدم عند عرب الخليج للدلالة على شاطئ البحر.

(٢) تكلم في الموضوع عدد كبير من العلماء، وألفت فيه مجموعة من الكتب ومما رجعنا إليه في ذلك:

- ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري (ت ٣١٦هـ): رسالة الاشتقاق، تحقيق محمد علي الدرويش ومصطفى الحدري، دمشق ١٩٧٣م، وعن مقدمة المحققين أخذنا التعريفات اللاحقة، ص ١٧، ١٨.
- الأصمعي، عبدالملك بن قريب: الاشتقاق، تحقيق الدكتور سليم النعيمي، بغداد ١٩٦٨م.
- ابن دريد: الاشتقاق، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٩٥٨م.
- عبدالله أمين: الاشتقاق، القاهرة ١٩٥٦م.

١- الاشتقاق الصغير : وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف وتركيبها ، كأن تشتق من المصدر المضارع والماضي والأمر والفاعل والمفعول إلى آخر ذلك من التصاريف .

٢- الاشتقاق الكبير : وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف والمعنى دون الترتيب ، كما في «جذب» و«جبذ» فهما بمعنى واحد . ويرى ابن جنى أن التقليبات الستة للكلمة الواحدة يجمع بينها معنى .

٣- الاشتقاق الأكبر : أن يكون بين اللفظين تناسب في المخرج ، نحو «نعق» و«نهق» فمعاني هذه الألفاظ متقاربة إذ كل منها يدل على صوت منكر ، ولا اختلاف بينهما إلا بالحرف الثاني . ويسمي بعض العلماء هذا النوع من الاشتقاق بالاشتقاق الكبار بتخفيف الباء .

٤- الاشتقاق الكبار أو الكبَّار : وهو أن يؤخذ لفظ مركب من بعض حروف عبارة ما وهو ما يسميه العلماء بالنحت ، ونظرا لأهمية هذا النوع من الاشتقاق ، فسنتكلم عنه كأداة مستقلة من أدوات استنباط المصلح .

وعن طريق الاشتقاق يتسع الكلام وتتولد الألفاظ والمعاني ، ولو جمدت المصادر وارتفع الاشتقاق في كل الكلام لم يوجد في الكلام صفة لموصوف ولا فعل لفاعل وهو من فضل لغة العرب على سائر اللغات (ابن السراج : ٢٨) .

وعلى ذلك فهذه الأداة من الأدوات المهمة التي ينبغي على كل مهتم بوضع المصطلحات أن يلجأ إليها . وقد كانت موضع استفادة من واضعي المصطلح الجغرافي ، وعلى رأسهم مجمع اللغة العربية بالقاهرة ؛ فقد أقر المجمع الكثير من المصطلحات القديمة المبنية على الاشتقاق ، والتي أثبتها العرب في معاجمهم اللغوية مثل لفظ «الحَمَّة» المشتق من مادة «حمم» ويدل على العيون أو الينابيع الحارة المنبثقة من جوف الأرض والتي تنتشر غالبا في المناطق البركانية ومن المصطلحات الأجنبية المقابلة له (Geyser- Thermal Spring- Hot Spring) .

كما أقر المجمع مصطلح «التَّذْرية» المشتق من مادة «ذرا» وهو محور عن اللفظ العربي القديم «الذرو» ، ويقصد به حمل الريح للمفتتات الصخرية من غبار ورمال ودقاق الحصى . أو كما ورد في تفسير المعجم الجغرافي الذي وضعه المجمع «إثارة الرمال والغبار بقوة دفع الهواء» . والمصطلح الأجنبي المقابل لعملية التذرية هو «Deflation» ، وأول من استخدم هذا المصطلح في الكتابات الجغرافية المعاصرة هو الأستاذ الدكتور محمد صفي الدين أبو العز[١] .

أما المصطلحات الحديثة التي أقرها المجمع وهي معتمدة على الاشتقاق

(١) محمد صفي الدين أبو العز: قشرة الأرض، ص٣٨٤.

لكنها لم ترد بهذه المعاني في معاجم اللغة القديمة ، فمنها مصطلح التجوية «Weathering» من مادة الجو للدلالة على عملية تفكك الصخر وتحلله وذلك لأن العوامل الجوية لها الدور الأكبر في تلك العملية[1] ، كما اشتق مصطلح التعرية «Denudation» من مادة العرى للدلالة على تفتيت الأرض بعامل من عوامل التحات المختلفة كالشمس والرياح والمياه الجارية والجليد ، وأول من استخدم هذا المصطلح بمعناه الجديد هو الأستاذ الدكتور محمد متولي (١٩٤٧م) (متولي : ١٦١) .

وقد وفق مجمع اللغة العربية في وضع مصطلح «دارة الجليد» مقابل المصطلح الأجنبي «Cirque or Corrie» بعد أن شاع استخدام مصطلح «الحلبة الجليدية» (توني : ١٨٩) ، (الجامعي : ٣٧) ولفظ الدارة الذي استخدمه المجمع مشتق من المصطلح العربي الدال على شكل أرضي ينتشر في شبه الجزيرة العربية وهو عبارة عن أرض مستوية تحفها الجبال من ناحية والرمال من الناحية الأخرى . وقد سميت الدارة تشبيها لها بدارة القمر ، وهي الهالة التي تكون حوله ، ووجه التوفيق في هذا الاشتقاق يكمن في تقارب الشكلين ، إذ تتماثل الدارتان الصحراوية والجليدية في أنهما كالأريكة تتركبان من ظهر شديد الانحدار ، وذراعين تحصران بينهما حوضا مقعرا في الدارة الجليدية ، ومستويا في الدارة الصحراوية ، وتحد ذلك الحوض الركامات الجليدية في الأولى والكثبان الرملية في الثانية . كما أن الحفرة التي يتركها الجليد في حوض الدارة ،

(١) الدكتور محمد صفي الدين أبو العز هو الذي وضع هذا المصطلح واستخدمه أيضا (المرجع السابق ص ١٢٧). وكان المصطلح المستخدم من قبل هو «تفكك الصخر» الذي وضعه الدكتور محمد متولي في كتابه «وجه الأرض» (القاهرة ١٩٤٧م)، ص ١٦١.

والتي تغمرها أحيانا بحيرة صغيرة تماثل ذلك المنخفض الذي تنتهي إليه سيول الدارة الصحراوية ، والذي يقع عادة في أحد جوانب الدارة .

وقد تحقق لي ما ذكرت نتيجة الدراسة الميدانية التي قمت بها لبعض الدارات المنتشرة في إقليم نجد في المملكة العربية السعودية . وللباحث دراسة تفصيلية في هذا الموضوع[1] .

ثالثا- النحت (اللغوي):

تعرف كتب اللغة النحت بأنه جنس من الاختصار ، بأن تعمد إلى كلمتين أو أكثر ، فتقتطع من اثنتين منهما حرفا أو حرفين أو ثلاثة وتبن من هذه الحروف التي اقتطعتها كلمة جديدة تقوم مقام العبارة التي أخذت منها الحروف . وقد تكلم في النحت عدد كبير من علماء اللغة الأقدمين ، أولهم الخليل بن أحمد في كتاب «العين» ، الذي ذكر أن العرب تلجأ إلى النحت إذا كثر استعمالهم للكلمتين ، فيقومون بضم بعض حروف إحداهما إلى بعض حروف الأخرى[2] .

ومن الأمثلة التي ضربها العرب على ذلك قولهم «عبشمي» و«عبدري» نسبه إلى عبد شمس وعبدالدار وقولهم «إيش» وأصله أي شيء ، وقولهم «هلل» أي قال لا إله إلا الله ، و«حمدل» أي قال الحمد لله .

وقد كان رأي ابن فارس أن الكلمات الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها

(١) عبدالله يوسف الغنيم: أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية في المصادر العربية القديمة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت ٢٠٠٥م، ص ٢٣٦ وما بعدها.

(٢) السيوطي، جلال الدين: المزهر في علوم اللغة، القاهرة ١٣٢٥هـ.

منحوت . وقد بنى معجمه «مقاييس اللغة» على هذا المذهب في كل مادة رباعية أو خماسية أمكنه أن يرى فيها شيئا من النحت[1] . وفي كتاب ابن فارس عدد كبير من الأمثلة على ذلك ، فمن ذلك قولهم للرملة المشرفة على ما حولها «جمهور» وهذا من كلمتين : «جمر» ويدل على الاجتماع و«جهر» ويدل على العلو . فالجمهور شيء متجمع عال . ومن ذلك قولهم للصخر الجلمد والجلمود وهذا من كلمتين «الجلد» وهي الأرض الصلبة ، و«الجمد» وهي الأرض اليابسة .

وقد لقيت آراء ابن فارس في النحت الكثير من الدراسة والنقد وبخاصة من المعاصرين ، فرأى بعضهم أن رأي ابن فارس صحيح ، غير أن النحت كان عند نشأة اللغة لتستكمل عدتها من الألفاظ ، أما الآن فقد مضى زمانه وقفل بابه بعد أن تكيفت اللغة العربية ، وأصبحت بقواعدها لغة اشتقاق لا لغة نحت[2] .

وقد كان لآراء المعاصرين انعكاساتها على قرارات مجمع اللغة العربية فيما يتعلق بظاهرة النحت ، فقد أصدر المجمع قرارين ، الأول في مؤتمره العام سنة ١٩٥٧م ، وكان قرارا متحفظا إلى حد ما وهو : «يجوز النحت عندما تلجئ إليه الضرورة» . أما القرار الثاني فكان في مؤتمره العام سنة ١٩٦٥م ، وقد اعتمد فيه على دراسة ضافية للدكتور إبراهيم أنيس وكان أقل تحفظا من القرار السابق ، وجاء فيه :

(١) وجيه السمان: «النحت»، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٢م، م ٥٧ ـ جـ١ ـ ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) إسماعيل مظهر: تجديد العربية، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ١٧. والرأي المعروض للشيخ أحمد الإسكندري.

«النحت ظاهرة لغوية احتاجت إليها اللغة قديما وحديثا . ولم يلتزم فيه الأخذ من كل الكلمات ولا موافقة الحركات والسكنات ، وقد وردت من هذا النوع كثرة تجيز قياسيته ، ومن ثم جوز أن ينحت من كلمتين أو أكثر اسم أو فعل عند الحاجة ، على أن يراعى ما أمكن استخدام الأصلي من الحروف دون الزوائد . فإن كان المنحوت اسما اشترط أن يكون على وزن عربي ، والوصف منه بإضافة ياء النسب وإن كان فعلا كان على وزن فعلل أو تفعلل إلا إذا اقتضت الضرورة غير ذلك ، وذلك جريا على ما ورد من الكلمات المنحوتة»[1] .

وقد جعل بعض الباحثين من هذا القرار فرصة للنحت على حسب ما توحي به إليهم معرفتهم باللغات الأجنبية وتفكيرهم بها . وإذا بهم يأتوننا بمنحوتات عجيبة ، لا العلم يحوجنا إليها ، ولا الذوق العربي يستسيغها[2] . ونجد أن هذا الأمر ينطبق بشكل خاص على ما جاء في معجم المصطلحات الجغرافية لفضل الله عبداللطيف ومحمد بلفقيه (فرنسي ـ عربي) ؛ فقد كان الهدف من ذلك المعجم هو المساهمة في حملة التعريب في المغرب العربي ، وهو هدف نبيل يشكرون عليه ، لكن انتهاجهم أسلوب النحت على النحو الذي جاء في ذلك المعجم يمكن أن يؤدي إلى عكس ما هو مطلوب . فقد ورد في المعجم أكثر من أربعين مصطلحا استخدم فيها النحت ؛ فمن ذلك :

(١) وجيه السمان: «النحت»، م ٥٧، جـ١ -٢، ص ١٠٩.
(٢) المرجع السابق: ص ١١١.

المصطلح المنحوت	المصطلح الأجنبي
شبمحلي	Subaride
شبرطب	Subhumid
سيعمقي	Isobathe
سينجلادي	Isoglacihypse
نهجليدي	Glaciaire
طيثلجي	Intranival
طينتهاضي	Synorogenique
عقبنتهاضي	Post- Orogenique
قابمداري	Subtropical

والجدير بالذكر أن معجم المصطلحات الجغرافية الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة لم يتضمن أي مصطلح من هذه المصطلحات المنحوتة ، بل من النادر أن تجد فيه لفظا منحوتا ، متسقا مع التوصية المتحفظة للمجمع بخصوص عملية النحت . كما أن المؤلفين اعترفا في المقدمة بأن هذا التصرف سيزعج الكثير من القراء لكنهم أخذوا بهذا الأمر لاعتقادهم بأن ذلك يوفر على المترجم استعمال جملة كاملة لمقابلة المصطلح الفرنسي الواحد ، زيادة على أنه يسمح باشتقاق النسبة بسهولة[١] .

ومع ذلك فإن بعض الكلمات التي استخدم فيها النحت لم تفقد إلا حرفا واحدا ، ووجودها بصورتها المترجمة المضافة أفضل جرسا ودلالة ، كما

(١) الجامعي فضل الله عبداللطيف ومحمد بلفقيه: المصطلحات الجغرافية، الرباط ١٩٧٧م، ص ٥.

أن عدد حروفها أقل من الأصل الذي أخذت عنه . وإن التساهل في هذا الأمر سيؤدي إلى إيجاد لغة شاذة لا تنتمي إلى لغتنا التي نفاخر بجمال بيانها ، وموسيقيتها ، ودلالة الألفاظ فيها . وقد انتشر النحت الذي على هذه الشاكلة في الآونة الأخيرة بصورة واضحة ، وقد فتحت مجلة اللسان العربي الباب على مصراعيه لنشر مثل تلك المنحوتات العجيبة ، فمن ذلك مشروع معجم مصطلحات صيانة الطبيعة الذي وضعه عبدالحق فاضل ونشر في الجزء الأول من المجلد ١٢ ، فقد جاء فيه ٢٥٧ مصطلحا نذكر منها مثالين فقط وهما «العمطبيعية» أي العوامل الطبيعية و«المصطعلاجدة» أي «المصادر الطبيعية اللامتجددة»[١] .

وإنني أتفق مع وجيه السمان في تعليقه على هذا الأمر بأن العربية ليست في حاجة إلى مثل هذه التراكيب الثقيلة التي لا تحمل من النحت سوى الاسم ، مادام الاسم المترجم المضاف أسهل وأعذب على السمع وأقرب إلى الفهم والدلالة على المعنى .

ونرى أنه ينبغي أن تقف المجامع اللغوية العربية وقفة متأنية إزاء هذا الأمر وأن تضع حدا لهذا الاستهتار بلغتنا العربية . ولا يعني ذلك أن أسلوب النحت غير مقبول على الإطلاق ، إذ إن هناك عددا من الكلمات المنحوتة أثبتت صلاحيتها ؛ فمصطلح «برمائي» مثلا من المصطلحات المنحوتة حديثا والذي كتب له الشيوع والانتشار . ومما أدى إلى النفور من المنحوتات التي ضربنا لها الأمثلة السابقة عدم التزام واضعيها بقواعد النحت وقلة دربتهم اللغوية .

(١) وجيه السمان: «النحت» مرجع سابق، م ٥٧، جـ٣ ، ص ٢٥٣، ٢٥٤.

رابعا- الأسس التي تحكم اختيار المصطلح:

بعد أن ألقينا الضوء على وسائل استنباط المصطلح ، وبعض المحاذير التي ينبغي التوقف عندها ، لابد لنا من استعراض الأسس التي لابد من الالتفات إليها قبل البت في هذا المصطلح أو ذاك .

وتعتمد هذه الأسس على ثلاثة أبعاد دراسية ، يتمثل البعدان الأول والثاني في جمع المادة العلمية ، من خلال الدراستين النظرية والميدانية . أما البعد الثالث ، فهو يعتمد على أمرين : الأول هو اختيار أو وضع المصطلح الأدق والأمر الثاني هو الإحساس اللغوي والفني المرتبط بقابلية المصطلح للذيوع والانتشار .

(١) الدراسة النظرية :

أشرنا في دراسة مستقلة إلى فوضى وضع المصطلحات في الكتب الجغرافية الحديثة[١] . وذكرنا أن من أسباب ذلك عدم رجوع المشتغلين بالتعريب إلى معاجم اللغة ، أو إلى الكتب التي عالجت بعض فصولها مسميات أشكال سطح الأرض ، مثل كتاب المخصص لابن سيده ، والتسرع في وضع المصطلح قبل التأكد من انتمائه للبناء اللغوي العربي . ويرتبط بهذا الأمر ، ويزيده تعقيدا ، أن الرجوع إلى معاجم اللغة كلما أشكل علينا أمر من الأمور الاصطلاحية لم يعد عادة ، كما كان عليه الحال من قبل ، أو كما هو الحال عند الأمم المتقدمة الأخرى في الوقت الحاضر . ويصل الأمر ببعض

(١) عبدالله يوسف الغنيم: المصادر العربية لمصطلحات الأشكال الأرضية، منشورات وحدة البحث والترجمة، الكويت، يوليو ١٩٨٣. وهي الدراسة التي وردت قبل هذا البحث.

الباحثين إلى أنهم يجهلون طريقة الكشف عن معاني الكلمات في «لسان العرب» أو «تاج العروس» أو غيرهما من معاجم اللغة . بل إنهم يجفلون من فكرة قراءة كتاب في التراث العربي ، متعللين بصعوبة اللغة التي كتب بها ، كما لو كانت لغة أجنبية . ويبدو لي أن مصادر التراث العربي القديم تشكل الأساس الأول لكل باحث في مصطلحات أشكال سطح الأرض لكي يستكمل هذا الجانب من أسس اختيار المصطلح . أما الأساس الثاني فهو الرجوع إلى جهود المجامع اللغوية في هذا المجال ، وكذلك التعرف على معالجات التعريب عند زملاء المهنة في الأقطار العربية الأخرى .

(٢) الدراسة الميدانية :

تُعدّ الدراسة الميدانية بعدا مهما من الأبعاد الدراسية التي تحكم اختيار المصطلح ، وهي التي تميز وضع المصطلح الجغرافي المتعلق بأشكال سطح الأرض عن غيره .

ولهذه الدراسة أهميتان ، أولاهما أن التأكد من الظاهرة على الطبيعة يفيد كثيرا في وضع المصطلح المناسب إذا ما كان هناك مرادفات أخرى للمصطلح ، كما تفيد الدراسة الميدانية في تصحيح بعض الأخطاء الموجودة في بعض الكتب الجغرافية التي اعتمد فيها أصحابها على الدراسة المكتبية فقط . وعلى سبيل المثال ذكر عمر الحكيم «أن تعمق الجوبات أو الحفر الناتجة عن الإذابة في الصخور الكلسية يؤدي إلى تعميقها وتعرضها نتيجة ارتخاء قعرها إلى تقاطع أطرافها مع أطراف الجوبات المجاورة فينشأ عن ذلك حفرة واسعة يبلغ قطرها عدة كيلومترات ، ويقال لها «دارة» في بلاد العرب و«بوليه» (Poljes) في

يوغسلافيا» . . . إلخ[1] ويبدو مما ذكره الحكيم أنه قد اعتقد أن الدارة هي المنخفضات الناشئة عن الإذابة في المناطق الجيرية ، فالوصف المعجمي قد أدى به إلى هذا الاعتقاد ، فقد جاء في لسان العرب : «الدارة الجوبة الواسعة تحفها الجبال» (ابن منظور : ٥/ ٣٨٢) وبنى على ذلك كل ما ذكره فيما يتعلق بالحفر والبالوعات المنتشرة في المناطق الجيرية . بينما الدراسة الميدانية تبين لنا أن مصطلح الدارة يخالف ما ذكر ، بل إن هذه الظاهرة التي سبق وصفها في مكان آخر من هذا البحث يكثر انتشارها في مناطق الدرع العربي من شبه الجزيرة العربية لا في المناطق الرسوبية الجيرية . كما أن الدراسة الميدانية تعطي مصطلحا يوافق ما أراده عمر الحكيم وهو لفظ «القيعان» و«الروضات» إذا كانت الحفر واسعة ، و«الدحلان» إذا ما كانت ضيقة متعمقة في جوف الأرض ، وجميعها تنتشر في إقليم الصّمان الكارستي .

وهذا الخطأ الوارد في كتاب جامعي يتداوله الأساتذة والطلاب على حد سواء يؤدي إلى شيوعه وانتشاره ، بل إن يوسف توني قد أورد لفظ «الدارة» بالمعنى نفسه الذي أشار إليه الحكيم ونقلا عنه[2] .

أما الأهمية الثانية للدراسة الميدانية فهي تفيدنا بمعلومات قيمة عن المصطلحات المحلية المستخدمة لأشكال سطح الأرض والتي في غالبها مشتقة من جذور عربية . وأحيانا يمكن أن يوجد للمصطلح الواحد أكثر من مرادف فيمكن المفاضلة بينها وإثبات الأنسب .

(١) عمر الحكيم: تمهيد في علم الجغرافيا (التضاريس)، دمشق ١٩٦٥م، ص ٣٠٥.
(٢) يوسف توني: معجم المصطلحات الجغرافية، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٢١٩.

ومن خلال دراستي الميدانية في شبه الجزيرة العربية وجدت أن مصطلح خط تقسيم المياه (وهو السلع كما سبقت الإشارة) له أكثر من تسمية محلية ، فهو «الوَسَق» عند الجهنيين في شمال الحجاز ، ويقصد به أعلى الجبل . و«المهَدّ» عند قبائل غامد وزهران في جبال عسير ، لأن السيل يَهُدُّ على الناس من جهتين ، وسمعت من يسميه في منطقة حائل اسم «المَقْرن» أو «مَقْرن الشعبان» أي المنطقة التي تقترب عندها رؤوس الشعاب في أعلى الجبل .

ومن هنا تتجلى أهمية الدراسة الميدانية كضابط مهم في اختيار المصطلح المناسب لأشكال الأرض عند ترجمة الأعمال العلمية عن اللغات الأخرى .

(٣) قابلية المصطلح للذيوع والانتشار :

إن قابلية المصطلح ، الذي يستخدم لأول مرة ، للذيوع والانتشار تعتمد على مجموعة من الأمور ؛ أهمها سهولة اللفظ وقبوله للتصريف ، واختيار الألفاظ التي لم تبتذل في الكلام الدارج . وبالنسبة للأمر الأول فقد سبقت الإشارة إلى سوء استخدام رخصة النحت في اللغة ، مما جعل البعض يستخدم تراكيب ثقيلة بعيدة عن الذوق العربي أو موسيقية اللغة وبنائها ، وضربنا لذلك أمثلة كثيرة منها : «طينتهاضي» و«طيثلجي» و«سينجلادي» وغيرها .

وإذا كان هذا ينطبق على قضية وضع المصطلح الحديث أو استنباطه من ألفاظ معاصرة ، فإنه أيضا ينسحب على ما نختاره من كلام القدماء للدلالة على ظاهرات معينة . ومثال لذلك نجد أن المعاجم العربية الجغرافية منها واللغوية تحفل بذكر العديد من الأسماء الدالة على المنخفضات ، وبعض تلك الأسماء مترادفة ، تدل على معنى واحد مثل «الجوف» و«المهؤان» ، فإذا ما

وضعنا في الاعتبار معيار سهولة اللفظ وقبوله للتصريف ، فلابد أن تكون لكلمة «الجوف» الأولوية في الاختيار . نقول هذا لأن بعض الباحثين قد يحلو لهم أن يأتوا باللفظ الغريب لغرض التباهي بمعرفة اللغة ، فتكون النتيجة تنفير القراء من مثل تلك الألفاظ الغريبة .

أما الأمر الثاني المتضمن تجنب الألفاظ الدارجة المبتذلة ، فإن تلك الألفاظ وإن كانت مرشحة للانتشار أكثر من غيرها ، إلا أن المصطلح يفقد صبغته العلمية الوقورة . ومن أمثلة ذلك استخدام كلمة «ثلاجة» للدلالة على كلمة (Glacier) الفرنسية الأصل[١] ، كما استُخدم لفظان آخران للدلالة على المصطلح نفسه هما «جلادة»[٢] و«جمود» أو «جموديات»[٣] بلفظ الجمع . وكلمة «ثلاجة» نموذج للكلمات المبتذلة لدى العامة ، أما الثانية فهي ليست مستساغة لارتباطها بمعنى «الجلد» أما كلمة «جموديات» فهي صعبة التصريف ، ثقيلة على السمع .

وقد كان مجمع اللغة العربية بالقاهرة موفقا في اختيار المدلول المناسب وهو «النهر الجليدي» فعلى الرغم من كون هذا المصطلح مؤلفا من كلمتين ، فإنا نراه أدق وأكثر دلالة من الكلمات السابقة .

وبالمثل ينبغي أن يخضع لهذا المعيار ما نختاره من الألفاظ الواردة في كتب التراث . فقد أطلق العرب على الأودية العميقة الضيقة التي تنتشر في المناطق البركانية أو الحرات اسم «الشِّراج» واحدها «شَرْج» (الأزهري : ١٠/ ٥٣٤) وهو ليس من الألفاظ اللائق استخدامها في لغتنا المعاصرة ،

(١) يوسف توني: معجم المصطلحات الجغرافية، ص ١٣٩.
(٢) الجامعي فضل الله: المصطلحات الجغرافية، ص ١٠١.
(٣) عمر الحكيم*: تمهيد في علم الجغرافيا، ص ٤٧٥.

ولهذا يمكن أن نختار مرادفا آخر له وهو «العَقيق» وجمعه «أعقّه» . وقيل سمي العقيق عقيقا لأنه عَقَّ في الحرة أي شق وقطع[1] .

وبالإضافة إلى الأمرين السابقين يمكن القول إن هناك مصدرين يمكن الاستفادة منهما للتوصل إلى مصطلح قابل للانتشار ، أولهما القرآن الكريم وهو كتاب الأمة ، وألفاظه مألوفة لدى الجميع من خلال تلاوته أو الاستماع إليه من وسائل الإعلام المختلفة ، فالاشتقاق من كلماته أو الاستفادة مما جاء فيه يضمن للمصطلح القبول . ومن المصطلحات التي يمكن أخذها من القرآن الكريم «الجرف» وهو معروف و«الشَّفا» وهو حافة الجرف من أعلاه ، و«القاع» للدلالة على مناطق التصريف الداخلي الواسعة في الصحراء وهو عبارة عن أرض منخفضة واسعة حرة الطين مستوية القرار . و«الحقف» وهو ما اعوج من الرمل واستطال نتيجة انفصال أحد أطراف الكثيب الهلالي واستطالته . و«الذاريات» وهي الريح التي تقوم بعملية التذرية .

أما المصدر الثاني فهو المصطلح المحلي الشائع ذو الأصل العربي . وسبق التنويه بلفظ «الجال» المستخدم في الجزيرة العربية للدلالة على «الكويستا» .

وكذلك «القَلْت» والجمع «قلات» وهي حفر مستديرة الشكل أو بيضاوية توجد في أنماط صخرية مختلفة أهمها الجرانيت وتنشأ عادة عن فعل التجوية . وهذا المصطلح معروف في شبه الجزيرة العربية وفي صحراء مصر الشرقية ويقابل المصطلح الأجنبي (Wheathering pit) ، ومن الألفاظ الجديرة

---

(١) السمهودي، علي بن عبدالله: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم، القاهرة ١٣٢٦هـ الجزء الثاني ص ١٩٠.

بالاهتمام لفظ «الجَرّ» ويطلقه البدو في منطقة القصيم بنجد على المراوح الفيضية والجر في اللغة أسفل الجبل .

والأمثلة كثيرة على ذلك سواء من الجزيرة العربية أو من صحاري شمال إفريقيا .

توصيات عامة:

١- بذلت جهود كثيرة في مجال التعريب ، فقد شغلت هذه القضية الفكر العربي طوال العقود الخمسة الأخيرة . . ومع كثرة الجهود المبذولة - الجماعية منها والفردية- فهي ليست جهودا متكاملة أو متناسقة ، بل إن معظم المؤتمرات والندوات التي أقيمت لهذا الغرض كانت تبدأ أعمالها من الصفر ولا تتابع ما انتهى إليه المؤتمر السابق وكان الاهتمام بطرح مشكلات التعريب أو البيان الإعلامي بمجهودات كل دولة يطغى على تتبع الحلول المناسبة أو وضع خطط التنسيق .

وإذ ذاك فلابد من وقفة متأنية جادة لتنسيق جهود التعريب ووضع المصطلحات ، تبدأ بوضع أطر عامة يتفق عليها أصحاب القرار في المؤسسات المهتمة بهذا الأمر ، كالجامعات والمجامع اللغوية ومراكز التعريب وغيرها . وأن يؤخذ في الاعتبار دراسة توصيات المؤتمرات والندوات السابقة والاستفادة منها ، للوصول من خلالها إلى خطة منظمة هدفها توحيد جهود التعريب وتحديد مساراتها وتيسير نتائجها للباحثين .

٢- عقدت في أنحاء الوطن العربي جملة من المؤتمرات والندوات العلمية لمناقشة قضايا التعريب والمصطلح العلمي . وقد اتخذت هذه اللقاءات

صفة العرض العام لمشكلات التعريب . وكما شاهدت في عدد من مؤتمرات التعريب كانت معظم الموضوعات التي طرحت للنقاش موضوعات مكررة . كما أن غالبية المشاركين فيها من المتخصصين في اللغة العربية وآدابها .

وقد آن الأوان أن تنتقل هذه الندوات أو المؤتمرات من التعميم إلى التخصيص ، حتى يتبادل أصحاب المجال الواحد الآراء والمقترحات ، وليتدارسوا الصعوبات التي تواجه البعض في ترجمة الحديث من المصطلحات وتعريبه .

والمطلوب هو تخصيص مؤتمر أو ندوة تناقش فيها مسألة التعريب في مجال الجغرافيا وفروعها المختلفة ، ودراسة المصطلحات المرتبطة بذلك دراسة دقيقة وتفصيلية من قبل أصحاب المهنة أنفسهم وهكذا الأمر بالنسبة للعلوم الأخرى ، وهو في تقديري أكثر نفعا ومردودا في المرحلة الراهنة .

٣- تخصيص لقاءات دورية لمناقشة كل ما يتعلق بالتعريب في مجال الجغرافيا ، ومراجعة المصطلحات المستخدمة في الكتب المترجمة ، وكذلك جهود مجامع اللغة العربية ومؤسسات البحث ومراكز التعريب . ويمكن أن يكون في كل بلد لجنة فرعية يختار أفرادها من قسم الجغرافيا بالجامعة الموجودة في ذلك البلد ، مهمتها القيام بأعمال التنسيق والمتابعة والتمهيد للمؤتمر التالي . ومثل هذا التنظيم يمكن أن يكون خطوة جادة في تنفيذ توصية المؤتمر الجغرافي العربي الأول (القاهرة ١٩٦٢م) التي نصت على ضرورة :

«إيجاد صلة بين الجغرافيين والمتخصصين في العلوم المتصلة بالجغرافيا ،

وبينهم وبين الهيئات المعنية بالتعريب في أنحاء الوطن العربي مثل : مجمع اللغة العربية ، وهيئة التعريب (بالرباط) التابعة لجامعة الدول العربية» .

٤- أن تقوم الأقسام الجغرافية في الوطن العربي بتدريس مقرر خاص بالمصطلحات الجغرافية ، ويؤخذ في الاعتبار مناقشة مصادر المصطلحات وكيفية استنباطها ، والعقبات التي تعترض الباحث في ترجمة الكتب الجغرافية وتعريبها . ويمكن أن يكون هذا الطرح ضمن المقررات المتصلة بمناهج البحث الجغرافي . وبجانب ذلك ينبغي على الأساتذة التوقف عند المصطلحات في أثناء كل محاضرة وشرحها شرحا وافيا للطلاب مما يؤدي إلى فهم أفضل لموضوع المقرر . وهذا الأمر نفسه ينبغي أن يتم في الكتب المؤلفة أو المترجمة ، مع إلحاق كشف بالمصطلحات المستخدمة يراعى فيه الإحالة إلى الصفحة التي استخدم فيها المصطلح .

٥- أن تنهض المؤسسات العلمية المختصة في كل بلد عربي -ولتكن أقسام الجغرافيا في البلاد التي توجد لديها جامعات- بجمع الألفاظ المحلية والدارجة المتعلقة بأشكال سطح الأرض ، وتصنيفها تصنيفا موضوعيا ، ودراسة علاقتها بالبناء اللغوي العربي ، وعرض هذه النتائج في مؤتمر عربي خاص بهذا الموضوع ، وفي تقديري أننا سنكتشف أن معظم تلك المصطلحات له صلة وثيقة باللغة الفصيحة وأن كثيرا من تلك المصطلحات متكرر في أكثر من بلد عربي .

٦- تساعد ترجمة الكتب والبحوث الجغرافية الأجنبية على تنشيط استخدام المصطلحات ، وإثارة الجدل العلمي حولها ، بغية إيجاد المقابل المناسب لها . ومن المناسب التخطيط لترجمة بعض الأعمال المهمة في مجال

أشكال سطح الأرض ، وأقترح أن يكون في مقدمة تلك الأعمال كتابان مهمان هما :

أ- الموسوعة الجيمورفولوجية ، تحرير رودس فيربردج من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية .

The Encyclopedia of Geomrphology, Edited by R.W Fairbridge. New York, 1968.

وتمثل هذه الموسوعة التي يبلغ عدد صفحاتها ١٢٩٥ صفحة ، المجلد الثالث من سلسلة علوم الأرض التي صدرت عن مؤسسة رينولد للطباعة . وهي أول موسوعة تفصيلية في مجال الجيمورفولوجيا ، وهي تتفوق على المعاجم المألوفة في كونها قد كتبت في شكل بحوث علمية بلغت نحو الأربعمائة بحث ، فضلا عن الرسوم والصور التوضيحية الممتازة التي ستؤدي بلا شك إلى إثراء معاجم المصطلحات العربية .

ب- جيمورفولوجية الصحاري لرونالد كوك وأندرو وارين .

R. Cook and A. Warren, Geomrphology in Deserts (London, 1973).

وهذا الكتاب الذي يتألف من ٣٧٤ صفحة من الكتب الجيدة التي اختصت بدراسة أشكال سطح الأرض في المناطق الجافة ، مع تحليل للعمليات التي أسهمت في تشكيلها . ويتضمن الكتاب قائمة قيمة بالمصطلحات ، مع نحو مائة خريطة وشكل توضيحي ، بالإضافة إلى ثمانية صور متصلة بالموضوع .

وفي تقديري أن هذين الكتابين سيضيفان ثروة من المصطلحات الجديدة في الجيمورفولوجيا وأشكال السطح فضلا عما يقدمانه من صور توضيحية ممتازة .

المصادر والمراجع

- **أحمد مختار عمر** : علم الدلالة ، الكويت ١٩٨٢م .

- **الأزهري ، محمد بن أحمد** : تهذيب اللغة ، القاهرة ١٩٦٤م .

- **إسماعيل مظهر** : تجديد العربية ، القاهرة (بدون تاريخ) .

- الأصمعي ، عبدالملك بن قريب : الاشتقاق ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي ، بغداد ١٩٦٨م .

- **الجامعي فضل الله عبداللطيف ، محمد بلفقيه** : المصطلحات الجغرافية ، (معجم فرنسي عربي) ، الرباط ١٩٧٧م .

- **حمد عبدالله الكبيسي** : «دور التراث العربي في تعريب التعليم العالي» بحث غير منشور ، قرئ في مؤتمر التعريب ، دمشق ٢٧ أبريل ـ ٣ مايو ١٩٨٢م .

- **ابن دريد** : الاشتقاق ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٥٨م .

- **الزبيدي ، محمد مرتضى** : تاج العروس ، مصر ١٣٠٧هـ .

- **ابن السراج ، محمد بن السري** : رسالة الاشتقاق ، تحقيق محمد علي الدرويش ومصطفى الحدري ، دمشق ١٩٧٣م .

- **السمهودي ، علي بن عبدالله** : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم ، القاهرة ١٣٢٦هـ .

- **ابن سيده ، علي بن إسماعيل** : المخصص ، بولاق ١٣١٨هـ .

- **السيوطي ، جلال الدين** : المزهر في علوم اللغة ، القاهرة ١٣٢٥هـ .

- **عبدالعزيز بن عبدالله** : «إستراتيجية التعريب» ، مجلة اللسان العربي ، الرباط ، ١٩٧٥م ، مجلد ١٢ ، ص ص ٥ ـ ٦ .

- **عبدالله أمين** : الاشتقاق ، القاهرة ١٩٥٦م .

- **عبدالله يوسف الغنيم** : أشكال سطح الأرض المتأثرة بالرياح في شبه الجزيرة العربية ، الكويت ١٩٨١م .

- **عبدالله يوسف الغنيم** : أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية في المصادر العربية القديمة ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، الكويت ٢٠٠٥م .

- **عبدالله يوسف الغنيم** : المصادر العربية لمصطلحات الأشكال الأرضية ، الكويت ١٩٨٣م .

- **عمر الحكيم** : تمهيد في علم الجغرافيا (التضاريس) ، دمشق ١٩٦٥م .

- **ابن فارس ، أحمد بن زكريا** : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٣٦٦هـ .

- **المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم** : المصطلحات الجغرافية ، القاهرة ١٩٦٥م .

- **مجمع اللغة العربية** : المعجم الجغرافي ، تصدير وإشراف الدكتور محمد محمود الصياد ، القاهرة ١٩٧٤م .

- **محمد سويسي** : «مشكلة وضع المصطلح» ، مجلة اللسان العربي ، الرباط ١٩٧٥م ، مجلد ١٢ الجزء ١ ، ص ص ٩ ـ ١٥ .

- **محمد صفي الدين أبو العز** : قشرة الأرض ، القاهرة ط ١ ، ١٩٥٣م ، ط٢ ، ١٩٦٥م .

- **محمد متولي** : وجه الأرض ، القاهرة ١٩٤٧م .

- **مكتب تنسيق التعريب بالرباط** : معجم الجيولوجيا (إنجليزي ـ فرنسي ـ عربي) ، الرباط ١٩٧١م .

- **ابن منظور** : لسان العرب ، بولاق ١٣٠٠هـ .

- **وجيه السمان** : «النحت» ، مجلة مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٨٢م ، ح ٥٧ ، جـ١ ، ٢ ، ص ص ٩٢ ـ ١١٤ جـ٣ ، ص ص ٣٤٣ ـ ٣٦٤ .

- **ياقوت الحموي** : معجم البلدان ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ١٨٨٦م .

- **يوسف توني** : «لغة الجغرافيين العرب ومصطلحاتهم» حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد ٩ ، ١٩٦٤م ، ص ص ٢٦٧ ـ ٣٠٦ .

- **يوسف توني** : معجم المصطلحات الجغرافية ، القاهرة ١٩٦٤م .

- Cook, R. and Warren, A. Geomrphology in Deserts. London, 1973.

- Fairbridge, R.W (Editor), The Encyclopedia of Geomrphology. New York, 1968.

- Monkhouse, F. J. A Dictionary of Geography. London, 1976.

- Monkhouse, F. J. and Small, J. A dictionary of the Natural Environment, London, 1978.

- Moore, W. G. A Dictionary of Geography. London, 1962.

- Nida, E.A. Toward a Science of Translating. Leiden, 1964.

- Stamp, L.D. A Glossary of Geographical Terms, London, 1962.

في معرفة الجواهر

تعليق من كتاب يعقوب بن إسحق الكندي

(عن كتاب «المجموع اللفيف» للأفطسي)(*)

تفضل عليَّ أستاذنا الشيخ حمد الجاسر حفظه الله فأتحفني بورقات مصورة عن مخطوطة كتاب المجموع اللفيف للشريف القاضي أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله الأفطسي (٤٦٢/ ٥١٨هـ) وتتضمن تلك الورقات تعليقا من كتاب يعقوب ابن إسحق الكندي في معرفة الجواهر . وكان للصديق الدكتور جليل العطية فضل التعريف بمخطوطة كتاب «المجموع اللفيف» (مجلة العرب ٣٤/ ٢٠٠) فقد ذكر أن الكتاب محفوظ بالمكتبة الوطنية في باريس رقم AR3388 ويقع في أكثر من مئتي ورقة مكتوبة بخط المؤلف المتقن الدقيق ، ويضم أخبارا وحكايات وأشعارا وطرائف ، انتقاها من مصادر ضاع أغلبها اليوم . ولا تحمل المخطوطة تاريخ النسخ لكنها مكتوبة في القرن الخامس الهجري .

والأفطسي كان عالما موسوعيا متبحرا في علوم الأدب ، وكان نسّابة

(*) نشر هذا البحث في مجلة «العرب» التي يصدرها الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- في الرياض عام ٢٠٠١م (السنة ٣٦، ص ص ١٤٦ ـ ١٥٤ وص ص ٢١٦ ـ ٢٢٤) وفي عام ٢٠٠٥م صدر كتاب «المجموع اللفيف» لمحمد بن محمد بن هبة الله الأفطسي بتحقيق الدكتور يحيى وهيب الجبوري، الأستاذ بجامعة إربد الأهلية (دار الغرب الإسلامي - بيروت) ويبدو أن المحقق لم يلتفت إلى الهوامش والتعليقات التي أثبتها على نص الكندي المذكور فوقع الجبوري في عدد من الأخطاء التي كان يمكن أن يتجنبها. وقد أشرنا إلى ذلك في هوامش التحقيق في نهاية هذا البحث.

وفقيها قاضيا . وقد ضم كتابه «المجموع اللفيف» طائفة كبيرة من النوادر والرويات ، ومختارات من غريب الشعر والخطب والحكم والأقوال المأثورة ، واشتمل على كثير من النصوص التي اختص بروايتها .

ويحتل نص الكندي في معرفة الجواهر الورقات الأربع الأخيرة من الكتاب ، وتنتهي بقوله «تمت النسخة المباركة من الجزءين من المجموع اللفيف ببقاء مالكها وصلى الله على النبي وآله» .

وحينما اطلعت على الورقات المذكورة ، وهي خاصة بالحديث عن اللؤلؤ ، ظننت أنني لن أجد فيها جديدا بجانب ما ذكره ابن ماسويه أو البيروني أو التيفاشي أو غيرهم ممن عنوا بذكر الجواهر والأحجار .

إلا أن القراءة المتأنية وتحليل النصوص المتناظرة والموازنة بينها تظهر بجلاء أهمية تعليق الكندي الوارد في كتاب «المجموع اللفيف» ، وتكشف خطأ الزعم القائل : إن الكندي قد استقى معظم معلوماته من كتاب ابن ماسويه (إما بحرفيها ، أو بمعانيها ، دون أن ينسبها إلى صاحبها الحقيقي)[١] . كما أن تعليق الكندي يقدم تصحيحا لعدد من الفقرات المتعلقة باللؤلؤ في كتاب ابن ماسويه ، ويؤكد ما التبس منها ، ويستكمل نواقصها .

وسنحاول بين يدي هذا النص أن نستجلي باختصار تلك الأمور ، ثم نترك للتعليقات والحواشي المزيد من التوضيح والاستطراد .

---

(١) مقدمة محقق كتاب الجواهر وصفاتها لابن ماسويه (الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف): ص ١٣.

أولا- الكندي وابن ماسويه :

عاش كل من الكندي وابن ماسويه في بغداد في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وقد توفي ابن ماسويه عام ٢٤٣هـ في حين أن الكندي قد توفي أواخر سنة ٢٥٢هـ[١] . ويعد كتاب «الجواهر وصفاتها» ليحيى بن ماسويه من أوائل الكتب التي وصلتنا في هذا الفن ، ويتضمن الكتاب صفة اللؤلؤ وأصنافه وكيفية تكونه ومغاصاته وطريقة الغوص إلى جانب الحديث عن الأحجار والجواهر الأخرى ، وذكر الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف في مقدمة تحقيقه للكتاب فضل ابن ماسويه على من تلاه من العلماء وقرر أن (الكندي الذي كتب كتابه «الجواهر والأشباه» بعده ببضع سنين اعتمد عليه اعتمادا كليا حتى كاد ينقل بعض فقراته نقلا حرفيا) ، ثم أورد نصوصا مختارة من كتاب ابن ماسويه ومن كتاب الكندي نقلها البيروني في «الجماهر» للتدليل على نقل الكندي عن ابن ماسويه[٢] .

أما الكندي فقد اكتسب كتابه في الجواهر شهرة كبيرة ، وكان من المصنفات المعتمدة في هذا الفن ، اعتمد عليه من جاء بعده ، وقد نقل عنه البيروني والتيفاشي وابن الأكفاني وغيرهم ممن صنف في موضوع الجواهر والأحجار ، وتكفي شهادة البيروني له بأنه «لم يقع إليه من هذا الفن غير كتاب أبي يوسف

---

(١) حقق أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة سنة وفاة الكندي وتوصل إلى هذا التاريخ، وقد أشار إلى الأقوال الأخرى وناقشها مثل قول لويس ماسينيون إن وفاته كانت عام ٢٤٦هـ وقول بروكلمان إنه مات بعد عام ٢٥٦هـ بقليل وقول نالينو إنه توفي عام ٢٥٠هـ وذكر أن القول الأخير لا يسنده دليل ولا شاهد. (انظر محمد عبدالهادي أبوريدة: «رسائل الكندي الفلسفية»، القاهرة ١٩٥٠م، ص ٥ و٦).

(٢) المصدر السابق ص ١٣، ١٤.

يعقوب بن إسحاق الكندي في الجواهر والأحجار والأشباه قد افترع فيها عذرته وأظهر ذروته ، كاختراع البدائع في كل ما وصلت إليه يده من سائر الفنون ، فهو إمام المجتهدين وأسوة الباقين[1] . وقد سمي له ابن النديم كتاب «أنواع الجواهر الثمينة» ، كما ذكر أن له رسالة في أنواع الحجارة[2] .

ولنا أن نتوقف بعد هذا التقديم للبحث في حقيقة الزعم القائل : إن الكندي قد استقى معلوماته من كتاب ابن ماسويه ، وإنه قد نقل بعض فقراته نقلا حرفيا كما يذكر الدكتور عماد عبدالسلام ، ولنا على هذا الرأي مجموعة من الملاحظات ندرجها فيما يلي :

١- إن القول بأن الكندي هو الذي أخذ عن ابن ماسويه لا يسنده دليل بيّن على ذلك ، فما دام الاثنان متعاصرين فلابد أن أحدهما أسبق من الآخر في التأليف ، وليس من الضرورة الجزم بأن الكندي لكونه قد تأخرت وفاته نحو تسعة أعوام أو عشرة قد ألف كتابه في هذه الفترة ، كما أن مكانة الكندي العلمية والاجتماعية تمنعه من السطو على كتاب لشخص معروف في الأوساط التي يرتادها الكندي نفسه ، ولا نريد القول أيضا : إن ابن ماسويه هو الذي سطا على كتاب الكندي ، نقول هذا رغم التطابق الكبير في الجزء المتعلق باللؤلؤ والغوص عليه بين تعليق الكندي الوارد في كتاب «المجموع اللفيف» ، وما جاء في كتاب «الجواهر

(١) البيروني، محمد بن أحمد: الجماهر في الجواهر، تحقيق يوسف الهادي، طهران ١٩٩٥م، ص ١٠٣.
(٢) ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، تحقيق غوستاف فلوجل، بيروت ١٩٦٤م، ص ٢٦١.

وصفاتها» لابن ماسويه ، لدرجة كون أحدهما نسخة أخرى للآخر تصححها وتدعو إلى الظن الذي ذهب إليه الدكتور عماد عبدالسلام .

٢- إن البيروني قد اطلع على كتاب الكندي الذي سماه «الجواهر والأشباه» ، وقد مدحه بما ذكرناه ، ونقل عنه في مواضع كثيرة من كتابه «الجماهر في الجواهر» أما ابن ماسويه فلم يشر إليه إلا مرة واحدة ، وذلك حينما نقل عنه نصا في ذكر الأسرب[١] .

وبين أيدينا الآن نص كتاب ابن ماسويه محققا ومنشورا وفي مقابله توجد عشرات النصوص التي نقلها البيروني في «الجماهر» عن الكندي ، ونجد فيما ذكره الكندي معلومات كثيرة لم يشر إليها ابن ماسويه ، واللافت للنظر أن النصوص المنقولة عن الكندي تدل على أنه كان يقوم بالفحص المعملي للجواهر للتأكد من خواصها ومنافعها ، ومثال ذلك في حديثه عن الياقوت حيث ذكر أنه (اشترى كيسا فيه حصيات مجلوبة من أرض الهند غير مصلحة بالنار ، وأنه أحمى بعضها فجاد صبغ أحمرها ، وكان فيها قطعتان إحداهما شديدة السواد تلوح من شفافها في النور حمرة خفيفة والأخرى تشف بصبغ أقل ، وأنه نفخ عليهما في البوتقة مدة ينسبك فيها خمسون مثقالا من الذهب وأخرجهما منها لما بردا وقد نقى أقلهما صبغا وقد قارب الوردي قليلا ، وأما المظلم فإنه انسلخ اللون عنه حتى بقي كالبلّور السرنديبي امتحنه فكان أرخى من الياقوت . . . إلخ) .

ونجد في عدد من النصوص المنسوبة إلى الكندي إشارات إلى أنه قد رأى

(١) الجماهر في الجواهر ص ٤١٩.

وعاين واختبر الأحجار التي يتحدث عنها ، ومثل ذلك قوله عن البسذ وهو المرجان إنه كان معه شجيرة ارتفاعها شبر ونصف باع كل مثقال منها بأربعة دنانير . . ونقل عنه البيروني فقرات طويلة في هذا الموضوع[1] . ومثل ذلك النصوص التي نقلها البيروني عن الكندي في صفة الدهنج والتي ألحقها بقوله : (وذكر الكندي أنه شاهد من عتيقه صفيحة فيها تسعة أرطال)[2] . وعن الفيروزج يقول الكندي : إن أعظم ما رأى منه أوقية ونصف مثقال[3] . وهناك أمثلة كثيرة لا مكان لتفصيلها ، ومعظمها لم ترد في كتاب ابن ماسويه ، بل إننا نجد أن الكندي يقرن تجربته الشخصية عند الحديث عن تلك الموضوعات خلافا لابن ماسويه الذي جاءت مادته في معظمها مبنية على النقل . ويمكن القول باطمئنان : إن المادة التي نقلها البيروني عن الكندي نصا قد تتجاوز في مجموعها حجم كتاب الجواهر وصفاتها لابن ماسويه .

ثانيا- النص المحقق :

يتضمن النص المحقق ثلاثة موضوعات هي :

١- محار اللؤلؤ وحيوانه الذي في داخله وأوقات الغوص وأصناف اللآلئ بحسب موقعها من المحارة عند النشأة وأثمانها .

ويقابل هذا الجزء الصفحات ٣٠ ـ ٣٢ من كتاب «الجواهر وصفاتها» لابن ماسويه ، ولا نعني بالمقابلة التماثل فهناك زيادات عند الطرفين ، فالفقرة الخاصة بأوقات الغوص من هذا الجزء لا نجدها عند ابن ماسويه ، وهناك نحو أربع

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦.
(٢) المصدر السابق، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥.
(٣) المصدر السابق، ٢٧٨.

فقرات وردت في نهاية هذا الجزء من كتاب ابن ماسويه لم ترد عند الكندي ، ونورد فيما يلي نصا لابن ماسويه وما يقابله عند الكندي لنتبين نمط الاختلاف .

ونحيل القارئ إلى مثل آخر في الحاشية الثامنة من التحقيق

(ابن ماسويه)	(الكندي)
(والصغار الذي قد صار فيه اللؤلؤ يسمى البلبل ، وهو يسبح ويرعى فيه بالليل مجتمعا لا يتفرق ، وبعضه إلى جانب بعض وفوق بعض كجمع الجراد)	وهذا الحيوان في بدء نشئه إلى أن يتم وهو حينئذ رخص لم تجْسُ أصدافه فحينها يسمى البلبل الرطب ، فإذا استحكم ولم يعتق سمي البلبل التام وهو يسبح في الليل في قعر البحر يدب كالجراد بعضه يلي بعضا ، وبعضه فوق بعض .

٢- السواحل التي يجهز إليها التجار والغواصون أو مغاصات اللؤلؤ ، وذكر ستة سواحل هي ساحل بحر البصرة وساحل سيراف وساحل عُمان وساحل مكة وساحل سرنديب وساحل الصين ، ويذكر في كل ساحل نوع اللؤلؤ الذي يخرج منه ووزنه المعتاد وثمنه ، ويقابل هذا الجزء الصفحات ٣٣ ـ ٣٧ من كتاب ابن ماسويه ،وفي هذا الجزء نجد أن نص الكندي في كثير من المواضع أوفى من نص ابن ماسويه ، ومثال ذلك :

* عند حديث ابن ماسويه (ص ٣٣) عن جهاز البحرين قال : (وهو من كاظمة إلى بحر فارس أربعة مواضع) وبينما لم يذكر ابن ماسويه إلا موضعا واحد كانت العبارة تامة عند الكندي .

* وصف الكندي لمغاص خارك أوفى وأوضح من وصف ابن ماسويه .

* في النص المتعلق بمغاص سرنديب سقط سطر أو أكثر من كتاب ابن

ماسويه دون أن يتنبه المحقق إلى ذلك ، ونص الكندي تام غير ناقص (انظر حاشية رقم ٣٢) .

ونحيل القارئ أيضا إلى حواشي التحقيق ففيها بيان بالفروق والفوائد التي قدمها نص الكندي لتصحيح ما جاء عند ابن ماسويه (انظر على سبيل المثال الحاشيتين ٢٣ و٢٧) .

٣- أشكال حب اللؤلؤ الجيد منها والرديء وأوزانها وتقدير أسعارها ، وفي هذا الجزء أيضا اختلافات طفيفة بين المصدرين ، إلا أن نص الكندي أكثر وضوحا ودقة ، فمن ذلك قول ابن ماسويه (ص ٢٧) عن أصناف اللؤلؤ : (ومنه الأصبهاني ، وهو الذي يجلب من أصبهان ، وهو أشد صفرة . .) ويقول الكندي : (ومنه الأصبهاني ، وهو أشد صفرة من المغربي يعجب به أهل أصبهان ويجلب إليهم . .) ونص الكندي هنا أوضع وأصح ، فاللؤلؤ يجلب إلى أهل أصبهان ولا يجلب منها كما ذكر ابن ماسويه لكونها مدينة داخلية ليست على البحر .

وهذا الجزء من التعليق يقابله نص ابن ماسويه في الصفحات (٢٦ ـ ٢٩) وفي نص ابن ماسويه بعض الزيادات في أصناف اللؤلؤ .

وينقص النص المحقق كل ما جاء في صفة الغواصين والغاصة التي أوردها ابن ماسويه في الصفحات (٣٨ ـ ٤٠) ، وهذا دليل على أن التعليق المنقول من كتاب الكندي الوارد في «المجموع اللفيف» لم يتضمن كل ما كتبه الكندي في موضوع اللؤلؤ ، ويؤكد ذلك أن البيروني قد نقل عن الكندي نصوصا في صفة الغوص وأحوال الغاصة مما يدل على أن ما جاء في كتب الكندي عن اللؤلؤ كان كاملا غير منقوص .

ثالثا- نصوص أخرى للكندي عن اللؤلؤ :

تعطي نُقُولُ البيروني عن الكندي في موضوع اللؤلؤ صورة واضحة لما تضمنه كتاب «الجواهر والأشباه» من معلومات حول هذا الموضوع ، وسنورد هنا نماذج مما ذكره البيروني ذكرا صريحا ، مع إغفال تلك النصوص التي توافق (التعليق) والتي أشرنا إليها في حواشي التحقيق .

١- (ونَصْر يتبع الرأي العامي في قوله إن اللؤلؤ يتولد من المطر ، ثم يربيه الصدف ، فإنه كان كالريق للإنسان يقلبه في فمه ويجليه ، ويستدل على ذلك بأن المطر كلما كان أكثر في سنة وأعجل من وقته كان أجود اللؤلؤ فيها أغزر وريعه أوفر .

والكندي يحكي هذا أيضا عن أصحاب التجارب منهم) ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

٢- قال الكندي : (إن موضع الحب من البلبل داخل الصدف مع حرفيها ، وما كان مما يلي الأذن والفم الجيد ، ولهذا قالوا في الكبير إنه يكون في حلقومه يُديم دحرجته فتصح استدارته ويزداد بالتفاف القشور عليه حتى يعظم ، والدليل على حدوث الطبقة فيه بعد الطبقة أن ما يكون في سطحه الأعلى إذا قشرت منه قشرة شابهت باطنها الصدف من غير رونق له ، ثم يكون وجه المنقشر عنه على مثل وجه الأول ، فيدل على أن وجه هذا الداخل كان وقتا ما بارزا منكشفا كوجه الأول) (ص ٢٣٥) . والفقرة الأولى التي أشرنا إليها في الحاشية (١٠) من التحقيق ، والنص طويل ولا نعرف على وجه التحديد موضع انتهاء النص ، ولهذا اقتصرنا على فقرتين منه .

٣- قال نصر في كتابه : ذكر الجوهريون أن من أراد تعلم الغوص يقوم بحشو

أذنه على غاية الإحكام حتى تتعفن وتتدود وينفتح له إلى الحلق طريق يتنفس منه تنفسا ضعيفا داخل الماء ، وأظن سقط من النسخة ما به الحشو وأظن العفونة والتدود يكون فيه أو منه .

وذكر الكندي ذلك على صفة أخرى ، وهو أن يحبس نفسه في بدء التعلم فيرم لذلك أصل أذنه ويجتمع فيه الدم والمدّة (القيح) ثم يتفجر إلى حلقه ويخرق ما بينهما خرقين إذا اندملا خرج منها النفس خروجا ضعيفا يعين على الزيادة في اللبث وإمساك النفس في الأكثر[1] من ربع ساعة» (ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦) وقد ورد هذا الخبر باختصار عند ابن ماسويه (ص ٣٩) .

ومثل هذا القول تكرر عند عدد من الكتاب العرب ، وقد انتقد ذلك البيروني بقوله : وأظن هذا الخبر من أساطير الحمقى وتسوّق الغواصين على تجارهم (ص ٢٤٦) .

٤- نقل البيروني نصا طويلا عن نصر الجوهري عن كيفية الغوص ثم ختمه بالقول : إن نصرا لم يبعد عما في كتاب الكندي ، ثم بين الخلاف بينهما ، وما أضافه الكندي ، ويتجلى ذلك في النص التالي : (وذكر الكندي [في جملة ما ذكر] أنه يقمش (يجمع) -إن لم يجد صدفا- الشبيه بالشعر الذي تعمل منه أسورة الأكراد يسمى شعر الحروبة ، وهو نبات في القعر ، ولم أحط بالشبيه والمشبه به .

وأما المستأجرون ، فيركبون الزورق مع أمين التاجر ، ويكونون ستة أو

(١٠) لعل القراءة الصحيحة تكون (في الماء أكثر).

اثنى عشر ، فإذا غاص الواحد حفظ الزوج -وهو الرفيق- رسنه . ويتوفر الأجر عليهم كل يوم جمعة) .

ولم يبعد نصر عما في كتاب الكندي ، والخلاف بين كلامهما أن الكندي ذكر بدل بقيرة الدَّوْم رميثا من خشبات المُقل مشدودة يجعل فيها كساه شراعا . وذكر أنه يوقفه بإدلاء حجر يقوم مقام الأنجر للمركب ، وصعوده يكون بالتحريك ، وهذا لأن ماء البحر غليظ يسهل فيه الطفو ، ألا ترى أن بحيرة زُغر لما تناهت في المرارة لا يرسب في مائها من دخله .

وقال في سد الأنف : إنه بملزام من قرن أو من ذبل أو عاج كالمشقاص يلزم أنفه ، ومن حدّث من الشاهدين يزعم أنه شعبتان من قرن يدخل الأنف بينهما فينضمان عليه ويعصران منخريه حتى لا يدخلهما ماء .

وقال في المستأجرين : إنهم يكونون في الزورق من ستة نفر إلى اثني عشر ، وأظن هذا بسبب سعة الزورق لا غير .

وذكر في الحيوانات الضارة ما يبلع الغائص ، وما يقطعه نصفين وهو القرش ، وإن جرها الرمث يكون عند ابتلاع الحجر إذا لم يكن أسود ، وربما قطع الحبل بأسنانه فلم يقلب الرمث .

وذكر في تصويب الغائص ونباحه وبما يكون في جوف الماء ، وما أظن ذلك ممكنا في فم ليس له وجه غير الإطباق ، والصوت لا يتم إلا بفتحه وخروج الهواء منه ، ولن يخرج إلا بدخول بدله من الماء ، ولو أمكنه فتح الفم لما صرخ عند بروزه بشوقه إلى استنشاق الهواء . وهذا من قوله أشد استحالة من التنفس بأصول الآذان .

وقال من كان أمين بعض التجار في الزوارق : إن الصدف المخرج يُجعل في خزانة حتى يموت حيوانه ويعفن فيسهل إخراج ما فيه ، ثم يُحتال بعد ذلك في إزالة نتن التعفين عنه بما يضاده ، وصغار اللآلئ تكون في الأمعاء فلا تحوج إلى تعفين .

ومن عاف هذا ، شق عن الصدف ساعة إخراجه بعد أن يموت ، فإن الحي يضم الدفتين فيعسر فتحها (٢٤٨ ـ ٢٥٠) .

ويضاف إلى الأمثلة السابقة ما قاله الكندي عن اللؤلؤ الطبسي (ص ٢٥٦) وقصة طويلة عن جراب من الجوهر سلمه الرشيد إلى يحيى بن خالد (ص ٢٦٠ ـ ٢٦١) إضافة إلى النصوص التي لم نستدل على نسبتها الصريحة إلى الكندي .

وكل ما سبق يؤكد أن مادة الكندي في موضوع اللؤلؤ مادة شاملة تفوق في اتساعها ما قدمه ابن ماسويه ، وأن من التجني على الكندي القول : إنه قد اعتمد على كتاب ابن ماسويه اعتمادا كليا .

أما عن تفسير التشابه في بعض النصوص فسببها يعود إلى أمرين :

أولهما أن الجواهر والأحجار من المواد العلمية التي لا تحتمل الاختلاف في بيان الشكل والخواص ومكان التعدين وطرقه ، وإذا ما كانت هناك زيادات فهي متعلقة بالجهود الشخصية التي يبذلها المؤلف والتي تدخل في إطار الدراسة الميدانية والمخبرية ، وهذا ما تبيناه بوضوح في نصوص الكندي وافتقدناه في نصوص ابن ماسويه .

وثانيهما : أن الكندي وابن ماسويه عالمان متعاصران يستقيان مادتهما

العلمية من مصادر واحدة ، ومن أبرز تلك المصادر كتاب الأحجار لأرسطو ، وكتاب بلينوس أو بليناس الملقب بسر الطبيعة في العلل والمعلولات ، ورسالة جالينوس في المعادن ، إضافة إلى طبقة الجوهريين المشهورين زمن الدولتين الأموية والعباسية مثل عون العبادي ، وأيوب الأسود البصري ، وبشر بن شاذان وغيرهم . وعلى ذلك ؛ ، فليس من الغريب أن تتشابه بعض النصوص بين الاثنين ، ولو اطلعنا على معظم كتب الجواهر والأحجار لوجدنا بينها شبها واضحا في المعلومات الأساسية التي لا خلاف عليها .



في معرفة الجواهر

تعليق من كتاب يعقوب أبي إسحق الكندي

(النص)

قال الجوهر : ينقسم على قسمين : حيواني وأرضي ، والأرضي ينقسم قسمين : أحدهما شفاف ، والآخر غير شفاف ، والذي لا يشف يكون بدؤه نباتا وغير نبات .

القول على الحب الجامع بالنوع للدر واللؤلؤ : إذا كان الدر كبار الحب واللؤلؤ صغاره[1] وحيوانه من صفته أنه يعلو لحمه صدفتان ملتزقتان[2] بجسمه ، والذي يلي الصدفتين من لحمه أسود . ولحيوانه فم وأذنان وشحم يلي الفم من داخل إلى عامة الصدفتين إلى آخرها (والباقي) رغوة وزبد وماء[3] ، وهذا الحيوان في بدء نشئه إلى أن يتم وهو حينئذ رخص لم تجس أصدافُه ، فحينها[4] يسمى البلبل الرطب ، فإذا استحكم ولم يعتق سُمي البلبل التام ، وهو يسبح[5] في الليل في قعر البحر ، يدبُّ كالجراد بعضه يلي بعضا ، وبعضه فوق بعض .

---

(١) في الأصل (صغار).
(٢) في جميع نسخ كتاب «أزهار الأفكار» للتيفاشي (ملتزمتان) وقد صححها المحقق، وتصحيحه يوافق ما ورد في هذه النسخة انظر ص ٤٣ من كتاب التيفاشي، طبعة القاهرة ١٩٧٧م.
(٣) أضفنا كلمة (والباقي) من المصادر التالية. وعند ابن ماسويه (ص ٣٠): (والباقي رغوة ماء) وعند التيفاشي ص ٤٣ (والباقي رغوة وزبد).
(٤) الكلمة غير واضحة في الأصل. وقد قرأها الجبوري في تحقيقه للمجموع اللفيف «ولحمه» والقراءة التي أثبتها أقرب للسياق.
(٥) في الأصل (وهو يُسمع) والتصويب من ابن ماسويه والعبارة هناك: (وهو يسبح ويرعى فيه بالليل مجتمعا لا يتفرق، وبعضه إلى جانب بعض وفوق بعض كجمع الجراد). وقد أثبت الجبوري ما جاء في الأصل «يُسمع» وقد يكون لذلك وجه أي يُسمع دبيبه في قعر البحر، لكنه ضعيف.

وأوقات الغوص من أول نيسان إلى آخر أيلول ، فأما من أول تشرين الأول إلى آخر آذار فلا يزاول فيه الغوص ، ولكن يلقط البلبل من الساحل ، مما يقذف به البحر ميتا ، والذي يُصاب من هذا البلبل الميت من الحب يكون مستحيل اللون ، لما يصيبه وهو رطب من الشمس والرياح(١) .

وإذا صار البلبل محارا لم يسرح في قعر البحر كما يسرح البلبل ، بل يلزق بالحشر(٢) ، أو يلزم موضعا لا يكاد يعدوه ، فأما موضع الحب في الصدفة بلبلا كانت أو محارا ففي داخل الصدفة مع حرفي الصدفتين ما أحاط بهما مما يلي اللحم الأسود ، ومما يلي الشحمة والفم والأذن(٣) ، فما كان من الحب دون الحرف الأسود فهو سليم صحيح(٤) ، وما كان ملتزقا بالسواد كان أسفله الذي

---

(١) نقل البيروني (ص ٢٤٠) قوله عن نصر: (إن الصدف لا يفارق القعر والقرار مادامت حية، وأما إذا ماتت قفَّت وقذفتها الأمواج إلى البر وقد فسدت حباتها بموتها، وزاد حر الشمس والرياح في ذلك حتى تشنجت). والعبارة عند البيروني (ص ٢٤٢): (قال الكندي في ذلك: إنه من أول نيسان إلى آخر أيلول، والشمس تقطع هذه المدة من نصف الحمل إلى نصف الميزان) ولم يذكر بقية النص.

(٢) العبارة عند ابن ماسويه ص ٣١: (والصغار الذي قد صار فيه اللؤلؤة يسمى البلبل... والكبار يسمى الصدف، ويكون في البحر متفرقا، ويلتصق بالحشرات في قرار البحر) وكلمة (المحار) التي استخدمها الكندي أدق، إذ إن (الصدف) اسم عام لا يقتصر على محار أما كلمة (الحشرات) التي وردت في كتاب ابن ماسويه فهي تصحيف، والصواب ما ذكره الكندي وقد وردت الكلمة نفسها مرة أخرى عند ابن ماسويه (ص ٣٩) عندما يذكر عملية الغوص، فهو يقول: (ويتبع -الغائص- الصدف الكبار وهي ملتصقة بالحشر فيقلعه بيده حتى يملأ مخلاته..) وفسر المحقق الحشر بأنه (جمع الحشرة، وهي هنا القشرة التي تلي الحب)، ولعل أصل الكلمة (الحشرج) وتطلق في اللهجة الكويتية على الصخور الصغيرة وتنطق الجيم ياء، والمعنى أن الصدف الكبار يكون ملتصقا بصخور القاع فيقوم الغائض بقلعه، وهو ما يحدث بالفعل.

(٣) جاءت العبارة عند ابن ماسويه (ص ٣١): (واللؤلؤ في الصدف حوله، كما يدور مع جزء في الصدفتين مما يلي اللحم الأسود مما يلي الشحمة والفم والأذن). وعبارة الكندي هنا أكثر وضوحا.

(٤) عند ابن ماسويه (ص ٣١) (بعد الحرف الأسود من داخل صحيح).

يلي السواد سقيما متكسرا أو طينيا ، وما كان منه يلي الفم كان سليما مدحرجا نقيا[1] ، وهذه التي تلي الفم هي الجيدة البالغة ويكون أكثرها وزنا مثقالا وثلثا[2] . وما كان منه يلي الفم ملتزقا بالصدف ، فهو الذي يسمى الطور[3] وهي شبيهة بالعظم لها وجه حسن ووجه شبيه بالحجر عظيم[4] ، ويكون وزنها ما بين دانق إلى خمسة مثاقيل ، ويبلغ أكثرها ثمنا ألف دينار ، وليس لها في هذا الدهر كثير ثمن[5] ، وتسمى جبلية لأنها لا تنفق إلا عند أهل الجبال ، ومن لا معرفة له بالحب . وما يكون من الحب داخل الأذن وقريبا منها يكون عليه جلدة فإذا قُشِّر الجلد عنه خرج لؤلؤا جيدا قد يبلغ منه شيء ألف دينار[6] ، وإنما يكون في أذن واحدة وليس هذا في كله ، وأكثره يكون في البلبل .

السواحل التي يجهز إليها البحار والغواصون

وهي ستة سواحل :

* ساحل بحر البصرة : يُسمى حبه كله القطري ، وهو من كاظمة إلى بحر

---

(١) العبارة عند البيروني (ص ٢٣٥): (قال الكندي: إن موضع الحب من البلبل داخل الصدف مع حرفيها وما كان مما يلي الأذن والفم الجيد، ولهذا قالوا في الكبير إنه يكون في حلقومه يديم دحرجته فتصح استدارته ويزداد بالتفاف القشور عليه حتى يعظم). وهو هنا قد اختصر عبارة الكندي وأورد معناها بوضوح.

(٢) في الأصل: (مثقال وثلث)، وعند ابن ماسويه (ص ٣١): (واللؤلؤة التي تلي الفم هي الجيدة البالغة، وأكبرها مثقال ودانق). والمعلوم أن المثقال يعادل ستة دوانيق و٢٠ قيراطا، وثلث المثقال يكون نحو دانقين. فالترهنتش «المكاييل والأوزان الإسلامية»، ترجمة كامل العسلي، عمان ١٩٧٠م، ص ١١.

(٣) الطور: ما كان على حذو الشيء أو بحذائه.

(٤) عند ابن ماسويه (ص ٣٢): (فهي التي تسمى الطور، وهي الصلبة الشبيهة بالعظم، لها وجه حسن شبيه بالحجر).

(٥) عند ابن ماسويه (ص ٣٢): (ويبلغ أكبرها ألف دينار، وليس لها اليوم ثمن).

(٦) عند ابن ماسويه (ص ٣٢): (تساوي الحبة منه مئة دينار). والنص عند الكندي هنا أكثر وضوحا مما جاء عند ابن ماسويه.

فارس ، في أربعة مواضع منه ، وهي بيلي وقطر وخارك وسامخا ، يُغاص في هذه المواضع على بعد ثلاثة قيامين ونحو ذلك[1] ، ولؤلؤه عامته فيه صفرة لقرب مغاصه وتأثير الشمس فيه ، وكل ما نقي منه[2] فهو حسن ويبلغ وزنه نصف مثقال[3] .

وأما قطر فهو المغاص الأعظم وغوصه كله بلبل ، ويبلغ وزنه المثقالين ، ويبلغ الثمن الكثير[4] .

---

(١) عند ابن ماسويه (ص ٣٣): (جهاز البحرين يسمى كله القطري وهو من كاظمة إلى بحر فارس. أربع مواضع تتلى، وقد يقع فيه الأصداف الكبار أحيانا، وأما في الصيف فيغاص فيه غوصا ضعيفا والماء على ثلاثة قيامين ونحو ذلك). وواضح من النص الاختلاف في التعبير مع وحدة المعنى. وقد وردت كلمة (بيلى) غير معجمة وظنها محقق كتاب ابن ماسويه (مثلى) وقد جاءت في نص الكندي (بيلى) وأظنها تصحيف (بلبل) وقد ذكرها ابن ماسويه في عبارة تالية في قوله: (وموضع قطر غوص كله وكذلك موضع بلبل وهو المغاص الأعظم). وبلبل موضع معروف مشهور بمغاصاته، يقع شمال منطقة الجبيل في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية كان إلى وقت قريب مجمعا لسفن الغوص وتجارة اللؤلؤ (انظر حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، المنطقة الشرقية (١/ ٢٤١)، الرياض ١٩٧١م. ولفظة «قيامين» وردت في تحقيق الجبوري لكتاب «المجموع اللفيف» «قنامين» وهو خطأ لم يلتفت إليه.
أما مغاص (سمخا) الذي أشار إليه الكندي هنا فغير معروف على وجه التحديد إلا أن ابن ماسويه يذكره عند تفصيل الحديث عن المغاصات بقوله: (ومغاص سامخا يقع عامته دقا، وهو جهاز عمان مما يلي الحبشة واليمن). فهو يتحدث هنا عن بحر العرب أو السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية.

(٢) في الأصل: (وإذا بقي منه) والصواب ما أثبته عند ابن ماسويه (ص ٣٣) وقد أثبت الجبوري ما ورد في الأصل.

(٣) عند ابن ماسويه (ص ٣٣): (نصف دينار)، والصواب ما أورده الكندي، وهو الذي جرى السياق عليه.

(٤) العبارة عند ابن ماسويه (ص ٣٣): (وموضع قطر غوص كله وكذلك موضع بلبل، وهو المغاص الأعظم، وتبلغ الحبة مثقالين مما يخرج من ذلك المغاص وأكثر من مثقالين وليس يتجهز إليه اليوم إلا أهله).

وأما خارك فمغاص بلبل ومحار كبار يقع فيه لؤلؤ كبارٌ وليس فيه استواء ويبلغ وزنه مثقالا ، وتباع الحبة بهذا الوزن بعشرة آلاف دينار ، وأقل وأكثر[1] .

* ساحل سيراف : وهو بحر فارس ويسمى قيس ، وهو ما بين سيراف إلى الجمجمة فيه ضروب من الحب دق وجلّ ويبلغ ما يبلغ القطري[2] .

* ساحل عُمان[3] : وهو من رأس الجمجمة[4] إلى بربرا ، وهو مما يلي الحبشة وأوله جزر[5] عمان ثم المسقط ثم الشحر ، ثم اسقوطرة[6] ثم خور[7] عدن ثم بربرا ، وهي اللجة ومغاصه على ثمانية عشرة قيمانا[8] يخرج منه

---

(١) جاء النص مختصرا عند ابن ماسويه (ص ٣٣): (ومغاص خارك فيه صدف كبار، وتخرج الواحدة درة يبلغ وزنها مثقال ونصف، تباع بعشرة آلاف دينار).

(٢) ورد هذا النص عند ابن ماسويه بعد النص الآتي بعد (ص ٣٤) ولم ترد عبارة (ويسمى قيس). وقيس جزيرة عند الساحل الفارسي ربما أطلق اسمها على الساحل.

(٣) تبدأ هذه الفقرة عند ابن ماسويه (ص ٣٤) بقوله: (ومغاص سامخا عامته دقا، وهو جهاز عمان مما يلي الحبشة واليمن فأوله حوز عُمان...).

(٤) ورد اسم هذا الموضع في «مروج الذهب» وفي «الجماهر» بهذا الرسم، وورد عند ابن ماسويه (ص ٣٦) (راس الجمحة) وظن محقق كتاب ابن ماسويه أن هذا هو الصواب اعتمادا على ما جاء في «معجم البلدان» لياقوت وتبعه في هذا محقق كتاب «المجموع اللفيف» الدكتور يحيى الجبوري (ص ٥٢٧)، والصواب ما أثبتناه اعتمادا على ما جاء في كتاب شيخ البحر أحمد بن ماجد «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» تحقيق إبراهيم خوري، دمشق ١٩٧٠م ص ٢٦٥ وهو أعلم بهذه المواضع، وقد ذكر أن راس الحد المعروف اليوم هو رأس الجمجمة. كما ذكره الربان سليمان المهري في كتاب «العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية»، تحقيق إبراهيم خوري، دمشق ١٩٧٠م، ص ٨١، وقال أيضا: (رأس الحد ويسمى الجمجمة).

(٥) وردت عند ابن ماسويه (ص ٣٤): (حوز) ورجح المحقق أن تكون مصحفة عن (خور) وجزر الواردة في نص الكندي أوفق.

(٦) في الأصل (أسقطوطن) وهو تصحيف. وجزيرة أسقوطرة أو سقطرى جزيرة معروفة في بحر العرب.

(٧) عند ابن ماسويه (ص ٣٤): (حوز) وهو تصحيف.

(٨) عبارة الكندي هنا تصحح ما جاء في مطبوعة كتاب ابن ماسويه (ص ٣٥) فقد جاء فيه (ثم بربر، وبربر اللجة على يمينه [..] عشر قيمانا). وقد ظن المحقق كلمة (اللجة) الواردة تصحيف (البجة) نسبة إلى القوم المعروفين بهذا الاسم، كما أنه لم يستطع قراءة (ثمانية) التي

كله الحب الكبار الذي ينتهي في البياض والكبر والثمن لكثرة الماء وبعد قعره من أن تؤثر فيه الشمس ، وفيه صغار قليل ، وهو أجود من القطري في كثرة الماء وشدة البياض إلا أنه لا يكون في تدحرج القطري .

وقد يجهز إلى خور الزنج أيضا من عمان وإنما يجهز إليه في الفَرْط(٢٨) ولا يكاد يوجد فيه شيء ، وإذا وجدت وجدت كبيرة مثل العُماني أو دونه وليس فيه بلبل بل كله محار .

* ساحل مكة : وهو المنسوب إلى المنخوس(٢٩) ، وهو من بحر القلزم ما بين مكة وجدة إلى أيلة(٣٠) والسرين ، والقلزم وأيلة ، وما يخرج من

= ورد في الأصل (ثمنية) فظنها (يمينه)، ولا معنى لها هنا. والصواب ما ذكره الكندي، وهي لجة لأنها مغاص يصل عمقه إلى ثمانية عشر قيمانا بينما المغاصات السابقة على ثلاثة قيامين ونحو ذلك، وذكر البيروني (ص ٢٤١) أن القيمان هو الباع.. والمحققون فيهم يقولون في القيمان إنه من طرف وسطى اليسرى إلى الثندوة اليمنى. وذلك أرجح من ذراعين. وكثير من البحريين يقول إلى الثندوة اليسرى. انتهى كلام البيروني. والجدير أن القياس المتبع عادة في الغوص في الخليج العربي هو الباع، ولهذا فالقول الأول هو الأرجح.

وفي النص المحقق من كتاب «المجموع اللفيف» وردت العبارة «ثمانية عشر فيمانا» بالفاء. وجاء في هامش المحقق الدكتور الجبوري أن «الكلمة في الأصل غير معجمة عدا نقطة النون، ولم أهتد لوجهها، وهي مقياس من مقاييس المساحة». ولو كان المحقق قد اطلع على كتاب الجماهر للبيروني لتبين له وجه الكلمة وأنها مقياس مسافة لا مساحة.

(٢٨) عند ابن ماسويه: (وإنما يتجهز إليه في النزر). ومعنى (في الفرط) أي كل مدة، والنصان بمعنى واحد.

(٢٩) في الأصل وفي «المطبوع» (المنجوش) وفي نص ابن ماسويه (ص ٣٥) (المنحوس) وقد أثبت ما ورد عند ابن خرداذبة، «المسالك والممالك» (ليدن ١٨٨٩م) ص ١٩١، وهو موضع على ساحل البحر جنوب الوجه، وذكرها أيضا الجزيري في «الدرر الفرائد المنظمة»، الجزء الثاني، تحقيق الشيخ حمد الجاسر، الرياض ١٩٨٣م، ص ١٤١٣ وقد ذكرها في أثناء الحديث عن ينبع.

(٣٠) عند ابن ماسويه (ص ٣٥): (ما بين مكة وجدة إلى أيلة نحو الشام وهو السرين وقلزم وأويلة) وقوله عن أيلة (وهو السرين) غير صحيح فالسرين جنوب جدة بينما أيلة على رأس خليج العقبة، كما أن (أويلة) بالتصغير لم ترد في كتب الجغرافية العربية، ويلاحظ تكرار (أيلة) في النصين. والنص عند البيروني (ص ٢٣٨): (وذكر الكندي في بحر القلزم أيلة والسرين، أما أيلة فإن هذا البحر ينسب إلى القلزم وأيلة إما معا وإما بانفراد، وهي من الجار نحو بحر القلزم. أما السرين فإنه من جدة نحو عدن).

القلزم كله منفوخ[1] لا لون له ووزن أكثره خمسة مثاقيل والدق فيه قليل .

* ساحل سرنديب : وهو المالوكي وهو من موضع يقال له ما خالا إلى بلاد الديبلا ، وملك الديبلا يسمى قاريطي وملك سرنديب يسمى فالذني[2] ، وملك سرنديب يُقبل مغاصه من الغواصين في السنة بعشرين ألف دينار ونحوها ، وأصداف يوم من الأسبوع تجمع له في حظيرة ، قال : ويغاص فيه أربع عشرة سنة ثم يقطع عنه الغوص أربع عشرة سنة إلى أن يدرك بلبله ، وهو كله أو عامته دقّ ، ومدحرجه قليل ، وأكبر وزنه من دانق ونحوه وأكثره المـُنبَّر[3] والمضرس والدقّ .

---

(١) عند ابن ماسويه (ص ٣٦) (أجوف منفوخ). وعند البيروني نقلا عن الكندي (ص ٢٣٩): و(ذكر أن بلبل أيلة مثل بلبل السرين، فإن لآلئ السرين عمل وإلزاق، وكأن صفة الأصداف فيهما من الموجودات مقذوفة).

(٢) هنا سقط نحو سطر أو أكثر من مطبوعة ابن ماسويه (ص ٣٦) دون أن يتنبه محقق الكتاب وهو من قوله (وهو المالوكي) إلى (فالذني) التي وردت عنده (ناندي) فالعبارة في كتاب ابن ماسويه (جهاز سرنديب ناندي) ولا معنى له إلا بإضافة ما ذكره الكندي. (ومالوكي) المذكور في النص ربما كانت (مُلكي) وهي عند الساحل الغربي لجزيرة سيلان أو سرنديب كما يفهم من نص الربان سليمان المهري في كتابه «المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر» دمشق ١٩٧٠م، ص ٤٦. كما وردت باسم (مور ملكي) في ص ١٣٤ من الكتاب نفسه ولم نتحقق من موقع (ماخالا) ولا من الاسمين (قاريطي) و(فالدني). أما الديبلا فلعلها (الديبل) وهي مدينة السند المشهورة، فيكون المقصود بذلك الساحل الذي يبدأ من جنوب غرب جزيرة سيلان ثم يتجه شمالا فيشتمل على خليج منار وهو المنطقة الفاصلة بين سيلان وشبه القارة الهندية، وهو من أشهر مغاصات اللؤلؤ، ثم يمتد ليشتمل على الساحل الغربي للهند إلى مصب نهر السند بلد الديبل.

(٣) في الأصل وفي المطبوع (المتبرز) والصواب ما ذكره ابن ماسويه (ص ٣٧): وتمام العبارة عنده (ومدحرجه قليل وأكبره وزن دانق وفيه المنبر والمضرس. والمنبر فيما بين المدحرج والمضرس). والمقصود بالمنبر اللؤلؤ الذي يحتوي على نتوءات أو انتفاخات. انظر (لسان العرب) (نبر).

* ساحل الصين: ويدعى اللوقيني وهو من موضع يدعى اللوقين[1] إلى الصين إلى موضع يدعى النكلي[2] وهو مغاص واسع كبير يخرج منه متاع كثير ويقع فيه الحب الكبار الذي يقال له اللوقين إلى الصين إلى موضع يدعى النكلي[2] وهو مغاص واسع كبير يخرج منه متاع كثير ويقع فيه الحب الكبار الذي يقال له اللوقيني وينسب إلى المنبَّر[3]، وليس بمدحرج، ويبلغ جيده ألف دينار[4]، وجهاز الصين وهو إلى الماء العذب، وهو في خور الصين إلى يانسوا وخونجوا[5]، وهما قريتان من قرى الصين[6]، وثم مصب نهر عظيم ماءٌ عذب طيب يخرج منه الحب المدحرج ولونه إلى الحمرة وأكبره مثقال وأكبر قليلا، ثمنه ألف دينار.

(١) في الأصل وردت (اللوفين) و(اللوفيني) بالفاء. وقد أثبت ما حققه جورج فضلو حوراني في كتابه «العرب والملاحة في المحيط الهندي»، الأنجلو المصرية ١٩٥٨م، ص ٢١٤ الذي ذكر أنها (هانوي) عاصمة فيتنام اليوم. ووردت لوقين عند ابن خرداذبة (المسالك والممالك) ص ٦٩، عند ذكره للطريق إلى الصين فذكر أن لوقين هي أول مراقي الصين. وقد وردت عند ابن ماسويه (ص ٣٧): (لوفين)، وقال المحقق إنها نسبة إلى لوفين أولوبين، بلدة أشار إليها بزرك الرام هرمزي. وهذا ليس صحيحا فالتي أشار بزرك في «عجائب الهند» (ليدن ١٨٨٦م، ص ١١٢) هي بلدة داخلية ليست على البحر، والمسلك إليها بين جبال، ظنها البعض بلد التبت. وقد أثبت محقق كتاب «المجموع اللفيف» الكلمة بالفاء دون تعليق في هذا الموضع والذي يليه.

(٢) عند ابن ماسويه في هذا الموضع والذي يليه (ص ٣٧): (البكلي).

(٣) عند ابن ماسويه (ص ٣٧): (المنبري) وردت في تحقيق يحيى الجبوري لكتاب «المجموع اللفيف» «المتبرز» وليس لها معنى.

(٤) عند ابن ماسويه (ص ٣٧): (مئة ألف)، وهو كثير.

(٥) عند ابن ماسويه (ص ٣٧): (بانجو). و(يانسوا) فيما يبدو هي قانصو أو قانطو (هانجتشو Hangachow وهي ميناء معروف في الطرف الشمالي من الساحل الصيني وإلى الجنوب منها تأتي خونجوا أو خانجو (تشوان ـ تشو ـ فو Chu'an- Chow- Fo) ثم كانتون (خانقو) وأخيرا في الطرف الجنوبي من الساحل لوقين (هانوي) التي أشرنا إليها. (انظر حوراني ـ المرجع السابق ص ٢١٥، وابن خرداذبة ص ٦٩).

(٦) عند ابن ماسويه (ص ٣٧): (وهما قريتان في بلد الصين).

أشكال الحب خمسة أشكال

وما سوى ذلك خارج عن الاستواء في الشكل

أولها وأجودها شكلا المدحرجة كالكرة المستوية وهي المسماة القارة[١] والخايدازة[٢]، وهي المستدقة أحد الرأسين، مخروطة في شكل البيضة، والمقعدة وهي التي أحد رأسيها مستحد، والآخر مقعد عريض، والعدسية[٣] وهي الممتلئة الوسط، مستدقة الطرفين قليلا، والعنبية[٤] وهي مستطيلة قليلا، كأنها نهايتها كرة، وأكثر ما تكون هذه مزنرة.

والمدحرجة الكرية أجودها في القطري وأكبرها مثقال، وأكبر الخايدازة العمانية، ويكون فيها وزن المثقالين وهي على قيمة النصف من ثمن المدحرجة، والمقعدة الصغار منها في القطري، والكبار منها في العماني، ووزن أكبرها مثقال ونصف المثقال، وقيمتها نصف قيمة المدحرجة.

ومنه ذوات الأعراض الردية منها الخمانجة[٥]، ومن المختلف الشكل

---

(١) يقول التيفاشي (ص ٥٤): (أفضل الجواهر المفردة الجوهرة القارة وهي المستديرة الشكل من جميع جهاتها المستوية التي لا تضريس فيها ولا طول ولا تفلطح ولا اعوجاج).

(٢) في الأصل والمطبوع (الجاندارة) وهو تصحيف، وقد وردت الكلمة في صور مختلفة عند البيروني في كتاب «الجماهر» منها: «الخاية ديس» (ص ٢١٠، ٢١٥) و(الخايدار) (ص ٢١٤) و(خايديسة) ووردت في «ميزان الحكمة» برسم (الخياديز) و(خاي) تعني البيضة بالفارسية و(دازة) أو (ديسة) أو (ديز) تعني مثل أي (شبيه البيضة) وجاء عند البيروني (ص ٢١٥): (والذي قال الكندي في الخياية ديس المستوي الطرفين المدورهما كأنه مدحرج طول قليلا). وأما الذي يستدير أحد طرفيه ويمتد الآخر، وهو المقعد، فإنه ينحط في القيمة عن ذلك الخاية ديز».

(٣) عند ابن ماسويه (ص ٢٦): (والعدسة). ولم يورد وصف الكندي لها بأنها مستدقية الطرفين قليلا.

(٤) لم يرد اسم العنبية أو وصفها في كتاب ابن ماسويه (ص ٢٦).

(٥) في الأصل (الحمانحة) وفي مكان لاحق من هذا النص (خمانجة) وعند ابن ماسويه (ص

الكربست وهي المزنرة في وسطها شبه الطوق خارج عن سطح جسمها ، وأصغرها يكون ثمنه ما بين دينار إلى أربعة دنانير ، وأكثر ما يبلغ أكبرها ألف دينار ، وهو بنصف عشر ثمن التي ليست بمزنرة إذا كانت على قدر وزنها وكبرها[1] .

وأما المختلف اللون فمنه الأصفر القطري المدحرج وهو نوعان أحدهما المغربي يعجب به أهل المغرب يشترونه ، ومنه الأصبهاني وهو أشد صفرة من المغربي يعجب به أهل أصبهان ، ويجلب إليهم[2] وكل واحد منهما بثلث قيمة المدحرج الجيد[3] ، ومنه الأحمر الوردي وهو يقارب لون الورد ، يقع في حب سرنديب وهو صغار .

وأما أصناف الخمانج[4] فمنها المشبهة ، ومنها شديدة السواد ، ومنها ما يقارب السواد ، ومنها ما يكون إلى الخضرة ، وجميعها تعالج حتى تستوي ، والخمانج كثير وتكون الحسنة منه أقل قيمتها عشر ثمن المدحرجة ، وأكثر ثمنها خمس ثمن المدحرجة ، فإن لم تكن حسنة فلا قيمة لها ، ومنه الماحلال (كذا) ، وهي سوداء فتلفظها الجلدة السوداء الغليظة عنها بالمبرد ، فإذا لم يبق عليها من

=٢٦) (الخماناج) بالجيم ولهذا أثبتنا هذا الرسم للكلمة. وهو نوع رديء من اللآلئ أو هو شبيه باللؤلؤ شبه بالخماهن وهو حجر قيمته كقيمة الخرز ذكره حمزة في الجواهر وأنه يسمى همانا وعرّب على (الخماناخم) بالخاء المعجمة. وعن الخماهن أو الخماهان، انظر البيروني (ص ٣٥١، ٣٥٢) والتيفاشي (١٩٢، ١٩٣).

(١) النص الذي يبدأ بقوله (ومن المختلف الشكل..) إلى هنا لا يوجد) عند ابن ماسويه (ص ٢٦) وورد مكانه نص تفصيلي عن الخمانة أو الخمانانج.

(٢) عند ابن ماسويه (ص ٢٧): (وهو الذي يجلب من أصبهان) وفي «الجماهر» (ص ٢٠٥): (قال الكندي: إن كان في الدر المدحرج شيء من الصفرة أعجب به أهل العراق وأهل المغرب، فإن زادت مال إليه أهل أصفهان فجلب إليها ونسب إلى ناحيتها).

(٣) ذكر ابن ماسويه (ص ٢٧) (أن المغربي بثلثي ثمن الجيد).

(٤) في الأصل (الحمالح) مهملة دون نقط وكذا وردت في السطر التالي.

السواد شيء لحقت بالجيد البالغ ، ومنها ما يعالج سواده بالطبخ فربما ذهب كله أو نقص كثيرا[١] .

ومنها الطينية وهي خمانجة داخلها حبة جيدة وظاهرها قشرة طينية فإذا قشرت وعولجت خرجت الحبة .

ومنها الشراب[٢] وهي التي كلما أتت عليها سنة يَبست وجَفَّت حتى تتصدع ، فإذا نقعت في الماء يوما أو يومين رجعت إلى ما كانت عليه .

ومنها الكروش لها جلد واحد وداخلها ماء وقشور رقاق سود فتثقب فيخرج ما فيها من الماء والقشور الداخلة ، وربما كان الذي فيها منتن الريح ، ثم تعالج وتحشى بالمصطكى المصفى[٣] .

ومنها النفخة[٤] وهي التي أحد جانبيها أجوف .

---

(١) هذه الفقرة وردت بصيغة مختلفة) عند ابن ماسويه (ص ٢٧) قال: (والدق، وهو في جميع اللؤلؤ، وعليه جلدة سوداء غليظة، فتحك تلك الجلدة بالمبرد ما قام عليها شيء من السواد، فهي ترى كلها سوداء، لأن الباقي من السواد يسقيها، فإذا لم يبق شيء من السواد لحقت بالجيد البالغ. ومنه ما هو أسود لا يذهب بالمبرد. ويعالجه المترفقون بالطبخ، فينقص سواده، ويجيء مليحا، وليست له عاقبة، وهو خماناج). ويلاحظ اختلاف التعبير مع أن المقصود واحد.

(٢) عند ابن ماسويه (ص ٢٨) (السراب) وعند البيروني (ص ٢١٤): (سرابة) وقد ذكر نصر أنها من فواسد اللآلئ.

(٣) عند ابن ماسويه (ص ٢٨): (وربما كان الذي فيها منتن الريح، ثم يحشى بالمصطكى) وعبارة الكندي أوضح وأتم. والعبارة عن البيروني (ص ٢١٤): (وذكر الكندي منها الكروش، وهو جلد واحد يحوي ماء وقشورا سودا، فإذا ثقب خرج منها الماء وحشي مكانه بالمصطكى).

(٤) عند ابن ماسويه (ص ٢٨): (والمنفخ).

المصادر والمراجع

- **الأفطسي ، محمد بن محمد** : المجموع اللفيف ، تحقيق يحيى وهيب الجبوري ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٥م .
- **البيروني ، محمد بن أحمد** : الجماهر في الجواهر ، تحقيق يوسف الهادي ، طهران ١٩٩٥م .
- **التيفاشي ، أحمد بن يوسف** : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمود بسيوني خفاجي ، القاهرة ١٩٧٧م .
- **الجزيري** ، عبدالقادر بن محمد : الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ١٩٨٣م .
- **جورج فضلو حوراني** : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، القاهرة ١٩٥٨م .
- **حمد الجاسر** : المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، المنطقة الشرقية ، الرياض ١٩٧١م .
- **ابن خرداذبة ، عبيدالله بن عبدالله** : المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩م .
- **الرام هرمزي ، بزرك** : عجائب الهند ، ليدن ١٨٦٦م .
- **عبدالله يوسف الغنيم** : كتاب اللؤلؤ ، الكويت ١٩٩٨م .
- **ابن ماجد ، أحمد** : الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، تحقيق إبراهيم خوري ، دمشق ١٩٧٠م .
- **ابن ماسويه ، يحيى** : الجواهر وصفاتها ، تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف ، القاهرة ١٩٧٧م .
- **محمد عبدالهادي أبو ريدة** : رسائل الكندي الفلسفية ، القاهرة ١٩٥٠م .
- **المهري ، سليمان** : العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية ، تحقيق إبراهيم خوري ، دمشق ١٩٧٠م .
- **ابن النديم ، محمد بن إسحاق** : الفهرست ، تحقيق غوستاف فلوجل ، بيروت ١٩٦٤م .
- هنتش ، فالتر : المكاييل والأوزان الإسلامية ، ترجمة كامل العسلي ، عمَّان ١٩٧٠م .
- **ياقوت الحموي** : معجم البلدان ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ١٨٦٦م .

صورة الجزء المتعلق بالجواهر
من كتاب المجموع اللفيف

مخطوطة باريس AR.3388

في الكنيسة ... وحنطته ودفنته . ونصب ٢٩٦
ابنا راس ... دمشق . ونصب الوليد بن يزيد راس
يحيى بن يزيد بن علي بن الحسين وكان نصر بن سيار وجهه به اليه من خراسان
ونصب يزيد الناقص راس الوليد بن يزيد في مسجد دمشق مما يلي باب الفراديس
ونصب ايضا راس يوسف بن عمر الثقفي بدمشق . ونصب طاهر بن الحسين
راس محمد بن هرون على باب بستان مونسه ثم وجهه به الى المامون بخراسان
فنصبه هناك . تعليق من كتاب يعقوب بن اسحق الكندي
في معرفة الجواهر

قال ... الجوهر ينقسم على قسمين حيواني وارضي والارضي ينقسم
قسمين احدهما شفاف . والاخر غير شفاف والذي لا يشف يكون
بدوه نباتا وغير نبات [القول على الحب الجامع بالنوع للدر
واللولو اذا كان الدر كبار الحب واللولو صغار .
وحيوانه من صفته انه يهار لحمه صدفتان ملتزقتان بجسمه والذي
يلي الصدفتين من لحمه اسود . وحيوانه فم واذنان وشحم يلي الفم
من داخل الى غاية الصدفتين الى آخرها زغب وزبد وملح . وهذا

٢٩٧

الحيوان في بدء نشأته إلى أن يتم وهو جنين رخص أبيض إلى أن ينجب يسمى البلبل الرطب فاذا استحكم ولم يعش سمي البلبل التام، وهو يسمع في الليل في قعر البحر يدب كالجراد بعضه على بعض وبعضه فوق بعض واوقات الغوص من أول نيسان الى آخر ايلول. فاما من اول التشرين الاول الى آخر آذار فلا يزاول فيه الغوص ولكن يلقط البلبل من الساحل مما يقذف به البحر. والذي يصاب من جنس البلبل الميت من الحب يكون مستحيل اللون لما يصيبه وهو رطب من الشمس والرياح.

وإذا صار البلبل محاراً لم يسرح في قعر البحر كما يسرح البلبل بل يلزق الحشيش او يلزم موضعاً لا يكاد يعدوه. فاما موضع الحب في الصدفة بلبلاً كان او محاراً ففي داخل الصدفة مع خرزتين في الصدر ما احاط بهما على اللحم الاسود، وما على الشحمة والفم والاذن.

فما كان من الحب دون الحرف الاسود فهو سليم صحيح. وما كان ملتزقاً بالسواد وكان اسفله الذي على السواد سقيماً متكسراً او طينياً وما كان منه على الفم كان سليماً مدحرجاً نقياً. وهذه التي على الفم هي الجيدة البالغة ويكون أكثرها وزنا مثقال وثلث، وما كان منه

يلي الفم ملتزقا بالصدف، فهو الذي يسمى الحري وهي شبيهة بالعظم، ٢٩٢

لها وجه حسن ووجه شبيه بالحجر غلظي ويكون وزنها ما بين دانق

الى خمسة مثاقيل وبلغ أكثرها ثمنا الف دينار . وليس لها في هذا

الدهر كثير ثمن، وهي تسمى جبلية لأنها لا تنفق إلا عند أهل الجبال،

ومن لا معرفة له بالحب ، وما يكون من الحب داخل الأذن وربما منها

يكون عليه جلد، وإذا اقشر الجلد عنه خرج لؤلؤا جيدا قد يبلغ منه شيء

الف دينار، وإنما يكون في أذن راعي وليس هذا في كله، وأكثره يكون

في البلبل [السواحل التي يحمل إليها التجار والغواصون

وهي ستة سواحل ساحل بحر البصرة تسمى حبة كله القطري.

وهو من كاظمة إلى بحر فارس في أربعة مواضع منه وهي بيل(٧)

وقطر(٥) وخارك(٦) وسانا ، يغاص في هذه المواضع على مليه قامتين(٨)

ونحو ذلك . واللؤلؤ عامته فيه صفرة لقرب مغاصه وتأثير الشمس

فيه، وإذا بقي منه فهو حسن ويبلغ وزنه نصف مثقال

[وأما قطر فهو المغاص الأعظم وغوصه كله بلبل، ويبلغ وزنه

المثقالين، ويبلغ الثمن الكثير [وأما خارك فمغاص بلبل ومحار

كبار تقع فيه لؤلؤ كبار وليس فيه استواء ويبلغ وزنه مثقالا وتباع الحبة بهذا الوزن بعشرة آلاف دينار وأقل وأكثر .

ساحل سيراف وهو بحر فارس ويسمى قيس[٩] وهو ما بين سيراف الى الجمجمة[١٠] فيه ضروب من الحب در وحل ويبلغ ما يبلغ القطري

ساحل عمان وهو من رأس الجمجمة الى بربرا وهو ما يلي الحبشة واوله جزر عمان ثم المسقط[١١] ثم الشحر[١٢] ثم اسقطوطرى[١٣] ثم خور عدن ثم بربرا[١٤] ومع اللجة ومغاصه على ثمانية عشر فيما نا . يخرج منه كله الحب الكبار الذي ينتهي في البياض والكبر والثمن لكثرة الماء وبعد قعره من ان تؤثر فيه الشمس وفيه صغار قليل وهو أجود من القطري في كثرة الماء، وشدة البياض إلا أنه لا يكون في تدحرج القطري .

وقد يجهز الى خور الزنج[١٥] أيضا من عمان وانما يجهز اليه في الفرط ولا يكاد يوجد فيه شيء وإذا وجد وجدت كبيرة مثل العماني أو دونه وليس فيه بلبل بل كله محار . ساحل مكة وهو المنسوب الى المنجورين[١٦] وهو من بحر القلزم ما بين مكة وجدة الى أيلة والسرين[١٧]

والقلزم وأيله وما يخرج من القلزم كله متغرج لا لون له ووزن اكثره

حبه مثاقيل والدر فيه قليل

وساحل سرنديب[18] وهو المالوكي[19] وهو من موضع يقال له ما خالا[20]

الى بلاد الدبيلا[21] وملك الدبيلا يسمى قاريطي وملك سرنديب

يسمى فالذي وملك سرنديب يتقبل مغاصه من الغواصين في السنة

بعشرين الف دينار ونحوها واصدافه يوم من الاسبوع يجمع له في حظيرة

وان يوم نغاص فيه اربع عشرة سنة ثم يقطع عنه الغوص اربع عشرة

سنة الى ان يدرك يلبله وهو كله او عامته دق ومدحرجة

قليل واكثر وزنه من دانق ونحوه واكثره المثمن والمضرس

والدق وساحل الصين ويدعا اللوفيني وهو من موضع

يدعا اللوفين الى الصين الى موضع يدعا التكلي وهو مغاص واسع

كثير يخرج منه متاع كثير ويقع فيه الحب الكبار الذي يقال له

اللوفيني وينسب الى المثمن وليس بمدحرج ويبلغ جيده الف دينار

وجهار الصين وهو الى الملك العدب وهو في جوز الصين الى بانسوا(؟)

وخونجواه(؟) ومما قربان من قرى الصين وهو مصب نهر عظيم الاعذب ماؤه

طيبة يخرج منه الحب المدحرج ولونه إلى الحمرة وأكبر مثقال والأكثر قليلاً ثمنه ألف دينار ٠

اشكال الحب خمسة اشكال

وما سوى ذلك خارج عن الاستواء في الشكل

أولها وأجودها شكلاً المدحرجة كالكرة المستوية وهي المسماة القاز ٠ والجاندار وهي المستدقة أحد الرأسين مخروطة في شكل البيضة ٠ والمفعة وهي التي أحد رأسيها مستجد الآخر مقعد عريض ٠ والعدسية وهي الممتلئة الوسط مستدقة الطرفين قليلاً ٠ والعنبية وهي مستطيلة قليلاً كأنها نهايتا كرة ٠ وأكثر ما تكون هذه مزنرة ٠

والمدحرجة الكرة أجودها في القطري وأكبرها مثقال وأكبر الجاندار العمانية ويكون فيها ورن مثقالين وهي على قيمة النصف من ثمن المدحرجة ٠ والمفعة الصغار منها في القطري ٠ والكبار منها في العماني ووزن أكبرها مثقال ونصف ٠ وقيمتها نصف قيمة المدحرجة ٠ ومنه

ذوات الأعراض الرديئة منها الجماحنة ، ومن المختلف الشكل
المدور وهي المزنرة في وسطها شبه الطوق خارج عن سطح جسمها
واصغرها يكون ثمنه ما بين دينار الى اربعة دنانير ، واكثر ما يبلغ
أكبرها الف دينار وهو نصف عشر ثمن التي ليست بمزنرة اذا كانت
على قدر وزنها وكبرها ، واما المختلف اللون فمنه الاصفر
القطري المدحرج وهو نوعان احدهما المغربي يجلب به اهل المغرب ويشترونه .
ومنه الأصبهاني وهو أشد صفرة من المغربي يجلب به اهل اصبهان
ويجلب اليهم وكل واحد منهما بثلث قيمة المدحرج الجيد .
ومنه الاحمر الوردي وهو يقارب لون الورد يقع في حب
شرنديب وهو صغاره . واما اصناف الجماع (؟)
فمنها المشبه ، ومنها شديد السواد ، ومنها ما يقارب السواد
ومنها ما يكون الى الخضرة ، وجميعها فالج حتى تستوي
والجماع كثير ويكون الحسنة منه اقل قيمتها عشر ثمن المدحرجة ،
واكثر ثمنها خمس ثمن المدحرجة ، فان لم يكن حسنة فلا قيمة
لها ، ومنه الماحلال (؟) وهي سودا فليقطعها الجازة السودا

الجماع

الغليظة عنها بالمبرد، فإذا لم يبق عليها من السواد شيء لحقت

بالجيد البالغ، ومنها ما يعالج سواده بالطبخ فربما

ذهب كله أو نقص كثيرا، ومنها الطينية،

وهي خمانجة داخلها جيد وظاهرها قشر طينية

فإذا قشرت وعولجت خرجت الجيدة، ومنها

الشارب وهي التي كلما أتت عليها سنة يبست وجفت

حتى تتصدع، فإذا سقيت في الماء يوما أو يومين رجعت إلى ما كانت

عليه، ومنها الكروش لها جلد واحد وداخلها ماء وقشور

رقاق سود فتثقب فيخرج ما فيها من الماء والقشور الداخلة

وربما كان الذي فيها مثل الزيبق ثم تعالج وتحشى بالمصطكي

المدقوق، ومنها النفخة وهي التي أحد جانبيها أجوف

تمت النسخة المباركة بحمد الله ومنه

بتقابلها بأصلها وصلى الله على سيدنا محمد وآله

كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها

المذكورة في الأخبار والأشعار لنصر بن عبدالرحمن الإسكندري(*)

أصدر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالتعاون مع دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، كتاب «الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها المذكورة في الأخبار والأشعار»، تأليف أبي الفتح نصر بن عبدالرحمن الإسكندري، من علماء القرن السادس الهجري. ويقع الكتاب في مجلدين، يضم أولهما ٥٥٤ صفحة، وثانيهما ٦١٤ صفحة من القطع الكبير.

وقد نُشر الكتاب عام ٢٠٠٤م بتحقيق الشيخ حمد الجاسر. ويُعدّ الكتاب إضافة مهمة للمكتبة العربية، فهو أول كتاب في التراث العربي يعنى بمسألة التصحيف في أسماء المواضع والأماكن. ولا يوجد من هذا الكتاب سوى نسخة واحدة فريدة محفوظة في المكتبة البريطانية تحت رقم (ADD. 23603) تقع في ١٥٥ ورقة من القطع المتوسط، يدل خطها على أنها منسوخة في القرن السابع الهجري.

ولقد أحسن الناشران إحسانًا كبيرًا، وذلك بإخراج الكتاب في حلة قشيبة زانها قلة الأخطاء والضبط الدقيق الذي يثري هذا العمل، ويليق بمقام

(*) نشر أصل هذا البحث في مجلة «العربي» الكويتية، العدد ٥٦١ أغسطس ٢٠٠٥م، ص ١٨٤ وما بعدها.

مؤلفه ، وبمقام محققه علامة الجزيرة العربية المغفور له بإذن الله الشيخ حمد الجاسر .

وتعود معرفتي بهذا الكتاب إلى عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٧م) حينما نشر الشيخ حمد الجاسر في الجزء الرابع من السنة الأولى من مجلة العرب بحثه في «المؤتلف والمختلف في أسماء المواضع بين الإسكندري والحازمي» . وحينما علم الشيخ حمد باهتمامي بأبي عبيد البكري الذي كان موضوع رسالتي في الماجستير عنه ، وبكتابيه معجم ما استعجم ، والمسالك والممالك ، تكرم فأرسل لي نسخة من كتاب نصر ، وحثني على دراسة الكتاب والاستفادة منه . وتابعت بعد ذلك بإعجاب دراسات المغفور له الشيخ حمد عن هذا الكتاب وكتاب الأماكن للحازمي ، والمشتغل بهذا المجال يدرك المعاناة التي عاشها الشيخ حمد رحمه الله في تحقيق هذا العمل العلمي الذي نحن اليوم بصدد التعريف به وإلقاء الضوء عليه . وسوف يتركز حديثي إليكم في ثلاثة محاور هي : المؤلف ، والكتاب ، والمحقق .

أولاً - المؤلف:

قدم أستاذنا الشيخ حمد الجاسر ترجمة تفصيلية لشخصية نصر بن عبدالرحمن الإسكندري في مقدمته لكتاب الأمكنة ، معتمداً على القفطي في إنباه الرواة ، والصفدي في الوافي بالوفيات ، والسيوطي في بغية الوعاة ، وابن الدُّبيثي وابن النجار في ذيليهما على تاريخ بغداد والعماد الأصفهاني في الخريدة - قسم شعراء مصر . وتتفق كل تلك المصادر على عدم ذكر تاريخ ولادته وعلى عدم الدقة في تاريخ وفاته . ويجمع مترجموه على أنه من

الإسكندرية ، وأنه قدم دمشق ثم ذهب إلى بغداد ، ويذكر العماد الأصفهاني في الخريدة أنه اجتمع به في بغداد في ذي الحجة سنة ٥٦٠هـ ، ونقل عنه تراجم بعض شعراء الإسكندرية ، ويصفه بقوله : (قد رأيته شابًا متوقداً بالذكاء والفطنة عارفًا بالأدب) ، وفي نفس تلك السنة التي التقاه فيها الأصفهاني غادر الإسكندري بغداد ، واختلفت المصادر في وجهته ، فيرى القفطي في إنباه الرواة أنه خرج إلى خراسان وأقام بنيسابور ، وقيل إنه توفي هناك ، وهكذا ذكر ابن الدُّبيثي . غير أن السيوطي في بغية الوعاة ينص على أن الإسكندري قد قدم بغداد بعد الستين وخمسمائة ، وسمع بها وجالس العلماء وحدَّث باليسير عن ابن عساكر ودخل أصبهان ، قال ابن النجار : «وأظن أنه مات بها سنة إحدى وستين وخمسمائة» . ولعل هذا هو الأقرب إلى الصواب ، فقد يكون ذلك بترغيب من العماد الأصفهاني الذي أثنى عليه وعلى علمه - كما قدمنا - كما أن الأصبهانيين كانوا أكثر عناية به ، فقد قام عالم أصبهان أبو موسى محمد بن عمر الأصبهاني المديني (المتوفى عام ٥٨١هـ) باختصار كتابه . واتخذ محمد بن موسى الحازمي (المتوفى عام ٥٨٤هـ) من كتابه أصلاً لكتابه الذي دعاه «الأماكن» .

ويختم الشيخ حمد كلامه عن شخصية نصر الإسكندري بقوله : إنَّ تحديد سنة وفاته يبقى مجهولاً . ومن قال بأنه مات سنة إحدى وستين وخمسمائة ، فهو مبني على أنه كان في بغداد سنة ٥٦٠هـ ، وبعد سفره منها جُهل أمره . وأنا أتفق مع شيخنا في شكه ، خاصة مع وصف العماد الأصبهاني له حينما التقاه في عام ٥٦٠هـ بأنه كان شابًا ولم يكن شيخًا

كبيراً . ولابد أنه قد بقي في أصبهان فترة تمكن العلماء في أثنائها من الأخذ عنه والاستفادة من علمه .

ثانياً - الكتاب:

يدخل الكتاب في باب المؤتلف والمختلف في أسماء المواضع . وهو نمط من التأليف الجغرافي نشأ نتيجة شيوع التصحيف في أسماء المواضع بين الناس . وقد كان أبو عبيد البكري هو الأسبق بين العلماء العرب الذين اهتموا بمشكلة التصحيف في أسماء المواضع ، فوضع كتابه معجم ما استعجم في القرن الخامس الهجري ، وأورد البكري في مقدمته أسماء المواضع التي يحدث فيها التصحيف عادةً مثل ناعجة وباعجة ، نبتل وثيتل ، نخلة ونحلة ، وما إلى ذلك . وضرب الأمثلة على تصحيف علماء اللغة كالأصمعي وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، وذكر من علماء الحديث يزيد بن هارون ، وأنه على إمامته في الحديث وتقدمه في العلم يصحف «جُمدان» وهو جبل بالحجاز بين قديد وعسفان ، فيقول : «جُندان» بالنون ، وهو من المواضع الواردة في الحديث .

غير أن البكري لم يَبْنِ كتابه على نظام المؤتلف والمختلف كما أوحت مقدمته ، بل استخدم الترتيب الألف بائي المعجمي ، فذكر كل موضع مبيّن البناء مُعجَم الحروف حتى لا يُدرك فيه لبس أو تحريف .

وبعد نحو قرن من الزمان جاء نصر بن عبدالرحمن الإسكندري ليضع كتاب «الأمكنة» وفقًا لنظام خاص يقوم على رصد الكلمات المتشابهة الرسم

والمختلفة في النطق والإعجام ، ويرتب تلك الكلمات المتشابهة بحسب حروف المعجم فيبدأ بالهمزة (باب أَبَا وأُنَّا وأُنَا وآيَاء) وينتهي بالياء (باب يَبْعُث ويَثْقَب) .

وهذا الترتيب الذي انتهجه الإسكندري هو أكثر عملية في بيان مواضع التصحيف والتحريف التي تقع في الأماكن ، خلافًا لكتاب معجم ما استعجم للبكري ، الذي كان يورد كل اسم في مكانه من المعجم ، فيتطلب ذلك من الباحث جهدًا للوصول إلى الكلمة المطلوب التأكد من صحتها .

والدليل على أهمية كتاب نصر وريادته في مجال الكتابة في المؤتلف والمختلف من أسماء الأماكن والبقاع ، أنه ما إن عرف الكتاب في بغداد وأصبهان حتى سارع العلماء إلى الإفادة منه ؛ إما باختصاره لتيسير قراءته كما فعل عالم أصبهان محمد بن عمر الأصبهاني (٥٠١ - ٥٨١هـ) ، أو باعتماد منهجه والإفادة من مادته مع الإضافة والشرح والتفصيل كما فعل محمد بن موسى الحازمي (٥٤٨ - ٥٨٤هـ) الذي عاصر الإسكندري ، وربما التقاه في أصبهان أو في بغداد التي وردها الحازمي في مقتبل حياته .

وقد أدى التشابه الكبير بين كتابي نصر بن عبدالرحمن الإسكندري ومحمد بن موسى الحازمي إلى أن يتهم ياقوت الحموي الأخير بأنه قد «اختلسه وادعاه واستجهل الرواة فرواه» . يقول ياقوت الحموي في مقدمته لمعجم البلدان : «وأبو بكر محمد بن موسى الحازمي له كتاب ما ائتلف واختلف من أسمائها ثم وقفني صديقنا الحافظ الإمام أبو عبدالله محمد بن محمود بن النجار على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر

الأصبهاني ، من كتاب ألفه أبو الفتح نصر بن عبدالرحمن الإسكندري ، فيما ائتلف واختلف من أسماء البقاع ، فوجدته تأليف رجل ضابط ، قد أنفد في تحصيله عمراً ، وأحسن فيه عيناً وأثراً ، فوجدتُ الحازمي - رحمه الله - قد اختلسه وادعاه ، واستجهل الرواة فرواه ، ولقد كنت عند وقوفي على كتابه أرفع قدره من علمه ، وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه ، إلى أن كشف الله عن خبيَّته ، وتمخض المخض عن زُبْدته ، فأما أنا فكل ما نقلته من كتاب نصر فقد نسبته إليه ، وأحلته عليه ، ولم أُضِعْ نصَبه ، ولا أخملت ذكره وتعبه ، والله يثيبه ويرحمه» .

وقد درس الشيخ حمد الجاسر كلام ياقوت الحموي ، ولاحظ أن الأخير كثير التجني على الحازمي ، وذكر أمثلة عديدة دالة على ذلك ، منها قوله بعد كلامه عن (ذات القنّ) : «وذاتُ القنّ أكمةٌ على القلب ، جبل من جبال أجا عند ذي الجليل - واد - كذا قال الحازمي وفيه نظر ، لأنّ ذا الجليل عند مكة ، وقال : إنه أكمة بأجأ ، وبين أجأ وبينه أيام ، ولعل أجأ غلط وسهو . . .» ، وقد رد الشيخ حمد على كلام ياقوت مبيناً أن ما نقده ياقوت هو نص كلام نصر في كتابه ، وأنه لا يمنع أن يكون عند مكة واد باسم ذي الجليل وعند أجأ واد آخر بهذا الاسم . وأن الاسم الواحد قد يُطلق على عدة أمكنة في الجزيرة العربية . ويقول ياقوت عند كلامه عن (أرار) : «إنه من نواحي حلب عن الحازمي ، ولست منه على ثقة» ، وعلَّق أيضاً على نص الحازمي عن (السرير) بقوله : «وهذا خطأ من الحازمي» ، وغير ذلك من الملاحظات التي ذكرها الشيخ حمد الجاسر في مقدمته لكتاب «الأماكن» للحازمي (ص : ١٦-١٩) .

ويذكر الشيخ حمد أن ياقوت الحموي أهمل نصوصًا قيِّمة من كتاب نصر ، كما أنه قد ينسب إلى نصر ما هو من كتاب الحازمي ، ومع ذلك يؤكد الشيخ حمد أن الحازمي قد اتخذ من كتاب نصر أصلاً ، وأنه لم يطلع على نسخة أكمل من النسخة التي وصلت إلينا (مقدمة كتاب الأمكنة ص ٣٩) .

وخلاصة الرأي عند الشيخ حمد أن «الحازمي - رحمه الله - يتفق في كتابه مع نصر اتفاقًا يكاد يكون حرفيًا ، مما يحمل على الجزم بأنه اطلع على كتاب نصر ، غير أنه يمتاز عليه بأن قسمًا كبيرًا من المواضع أورد تحديدها نقلاً عن علماء ذكر أسماءهم واستشهد بأشعار كثيرة واطّلع على كتب كثيرة لا نجد لها في كتاب نصر رحمه الله ذكرًا» .

ويرى الشيخ حمد أن الحازمي ربما أخذ كتاب نصر ، فأراد أن ينسب ما فيه من أقوال إلى أصحابها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك إلا في معظم الكتاب لأن آخره قد جاء خاليًا من الشواهد ومن نسبة الأقوال إلا ما ندر (مجلة العرب ، مجلد ١ ص ٧٢٥) .

وذكر الشيخ حمد في خاتمة تقديمه لكتاب الأمكنة (ص ٤٨) أن أحد الكتابين يعد مكملاً للآخر .

وفي تقديري أن الشيخ حمد الذي اجتهد كثيرًا في بيان الفروق بين الكتابين قد ترك جوانب لها اعتبارها عند مقارنة الكتابين وبيان فضل أحدها على الآخر . وقد قمت بمقارنة كتاب الهمزة بين الكتابين فوجدت نحو ٦٣ موضعًا أوردها نصر في كتاب الهمزة ، ولم يذكرها الحازمي وهي : (أبلاء ، أبرم ، أثوا ، الأبترة ، آبَة وآيَةَ ، أَبْنْد وأُثَيْداء ، أُثْنَان وأَبْيَار ، أُثَال ، الأَجْوَل

والأجْـزَل ، الأحْـزَابَة ، أُرمَّ وأَرَمَ ، أَرْنُم وأزيمَ ، أُديَّات وآذنَات ، أُرَاظ وأُرَاط ، آزَاب وإرَاب ، أَرْوَل وأَوْرَل ، أُسُـر وأُسُن ، أَشْـرَاع وشُـرَاع ، آشَب وإثْبِـيت ، أَقْساسَ وقُسَاس ، أَلْعَس وأَلْعُش ، أُلَيفه وأَلْبَقَّة ، أَلَيه وأَلَيَّه وليَّة ، أَلْيان والبْارَ والنَّار ، آلاب وآلات وألآت ، أُلاَلَه ، الأمْـهَـاد والأمْـهَـار ، أَمْن ، الأنْعَم ، والأنْعُم ، أَنْخُل وأَنْجَل وأنْحِل ، أُوْر ، أَيْن وأَيَر وإيْر ، الأَيسُن والأَيسَـــر والأَنسُر) .

وتمثل هذه الأسماء نحو ٣٤٪ من مجموع أسماء المواضع المذكورة في كتاب الهمزة التي يبلغ عددها ١٨٧ موضعًا . وقد أحصيت في كتاب الباء نحو ٦٣ موضعًا أيضًا وردت عند نصر ولم ترد عند الحازمي ، وهو ما يمثل ٥٠٪ من مجموع أسماء المواضع التي أوردها نصر في كتاب الباء . ونجد مثل هذه الاختلافات في بقية الحروف . ويضاف إلى ذلك أن كتاب نصر يتميز عن كتاب الحازمي بأنه في آخر كل حرف يورد مجموعة من أسماء المواضع تحت باب باسم المفردات ، وهي إضافة قيِّمة لا نجدها عند الحازمي ، وكل ذلك يقدم دليلاً ماديًا على وجود اختلاف واضح بين الكتابين وأن نشر كتاب الحازمي لا يغني عن نشر كتاب نصر الإسكندري ، بل يضيف إليه ويكمله كما ذكر الشيخ حمد .

وقد تؤدي دراسة إحصائية مقارنة بين أسماء الأماكن والمواضع في الكتابين مع بيان مستوى الشرح والتوثيق إلى تفصيلات أخرى تؤكد ما ذهب إليه الشيخ حمد الجاسر رحمه الله من أهمية كتاب نصر .

ثالثاً - المحقق:

لا أظننا بحاجة إلى الحديث عن شخصية المحقق ، فهو عَلَمٌ كبير من أعلام البحث العلمي والتحقيق ، وله مكانته المرموقة في المحافل العلمية العربية ، وإليه يرجع الفضل الأكبر في العناية بأسماء المواضع في شبه الجزيرة العربية من خلال مجلة العرب أو من خلال البحوث والدراسات التي أصدرتها دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر .

وعملُ الشيخ حمد رحمه الله في هذا الكتاب عملٌ مميزٌ ، فقد أدرك - منذ أن اطلع عليه وقرأه - أهمية الكتاب لتقدمه على غيره من كتب المواضع ومعاجم البلدان ، ولما يحتويه من علم غزير يحتاج إلى عناية واجتهاد قبل خروجه إلى القراء ، وربما كان هذا هو السبب في تأخر نشره ، فقد ذكرنا أن أول تعريف له بالكتاب كان عام ١٣٨٦هـ الموافق ١٩٦٧م ، ولم يطبع في صورة كتاب إلا بعد نحو ٣٥ عامًا نشر خلالها عشرات الكتب والمقالات وحقق فيها الآلاف من أسماء المواضع المتعلقة بشبه الجزيرة العربية .

والقارئ المتفحص لهوامش الكتاب يدرك ذلك الجهد الكبير الذي بذله الشيخ حمد في تحقيق الكتاب وإعداده للنشر ، فهو أولاً قد عارض الكتاب على ما جاء في كتاب الحازمي ، ونص على ما ورد عنده من أسماء المواضع وما لم يرد عنده ، وعارضه أيضًا بأقوال ياقوت الحموي في معجم البلدان على وجه الخصوص وبما جاء عند البكري في معجم ما استعجم ، والأصفهاني في بلاد العرب ، والهمداني في صفة جزيرة العرب ، وبغيرها من كتب البلدان وكتب الأدب والأشعار مستفيداً في

كل ذلك من رحلاته الميدانية ، وما دونه من مشاهدات مسجلة في كتبه المختلفة في هذا المجال .

وجميعنا يعلم أن تحقيق ما يقرب من ألفي موضع من المواضع التي أصبح الكثير منها الآن في حكم المواضع الدارسة ، من الأمور الشاقة التي تواجه كل محقق ، ولا نريد أن نقول في هذا المقام إن الشيخ حمد الجاسر قد قال كلمة الفصل فيما ورد في تحقيقاته في هذا الكتاب وفي غيره ، فهو نفسه لا يقبل أن يقال ذلك عنه ، فقد يأتي من يستدرك عليه بعض ما فاته أو استعصى عليه ، وهذه طبيعة البحث العلمي .

وقد بيَّن الشيخ حمد الجاسر - في مقدمته - عَملَه في نشر كتاب الأمكنة ، فقد حرص على أن يقدم صورة مطابقة للأصل المخطوط بقدر الإمكان مع التنبيه على ما فيه من أخطاء . وفي سبيل التعرّف على المواقع الصحيحة للأمكنة بذل الشيخ حمد جهداً كبيراً في تحديد الأمكنة تحديداً دقيقًا وحاول بقدر الإمكان أن يوضح مواقعها بالنسبة لخطوط الطول والعرض ، معولاً في أغلب ذلك - كما ذكر - على كتاب معجم الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية للأستاذ الدكتور أسعد سليمان عبده ، الذي اعتبره من أوثق المصادر في تحديد الأمكنة المرسومة في المصورات الجغرافية .

ونظراً لعدم وجود نسخة مخطوطة أخرى من الكتاب ، فقد حرص الشيخ حمد في تحقيقه على أن يقابل نصوص كتاب الأمكنة مع نقول الحازمي في كتاب الأماكن ، ونقول ياقوت الحموي في معجم البلدان ،

ونقول الزبيدي في تاج العروس ، وتشمل تلك الكتب نصوصًا مأخوذة عن نصر ، إما بدون إشارة أو هي منسوبة بشكل مباشر إليه ، وأضاف إلى ذلك - كما قلنا قبل قليل - مطالعاته في كتب البلدان الأخرى ، وغيرها من الكتب ذات العلاقة ، وتضمنت ملاحظاته - كما ذكرنا كذلك - الكثير من المعلومات التي استقاها من رحلاته ومشاهداته وتحقيقاته الميدانية . وتُعدُّ تعليقات الشيخ حمد وهوامشه الجزء الأثمن من هذه الطبعة القيمة من كتاب الأمكنة ، ويعد تحقيقه درسًا في بيان المؤتلف والمختلف من أسماء المواضع ، ومنهجًا رائدًا في تحقيقها .

ويبدو أن الشيخ حمد كان يريد إعداد فهرس شامل وتفصيلي للكتاب ، غير أنه لم يتمكن من ذلك ، ففي ص ٤٢ من المقدمة ذكر الشيخ حمد : «فأما من ذكرهم من الشعراء فسيرد ذكرهم في الفهرس» . وأشار أيضًا في ص : ٤٨ إلى أنه حاول أن يضع فهارس عامة للكتاب تيسر للباحث العثور على بغيته بسهولة .

ومن ثَمَّ نرجو أن ينهض مركز الملك فيصل بنشر جزء مستقل يتضمن تلك الفهارس إن وجدت ، أو يكلف بها أحد المختصين ، وذلك لقيمة الكتاب وما يتضمنه من موضوعات مهمة ذات اتصال بجميع ما كتب عن شبه الجزيرة العربية جغرافيًا وأدبيًا . فضلاً عن تحقيق الهدف الأساسي لهذا الكتاب وهو المحافظة على أسماء الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها ، تلك المذكورة في الأخبار والأشعار .

ولا بأس من تكليف أحد الباحثين أيضًا بإعداد ثبت بالأخطاء المطبعية

التي لا يخلو منها كتاب مطبوع ، إضافة إلى بعض الأخطاء الأخرى التي فاتت على الشيخ حمد رحمه الله .

ومثال لهذه الأخطاء :

- قوله في (ص ٤٦) : إن النسخة من مخطوطات ما قبل القرن السادس الهجري ، والصواب أنها من مخطوطات القرن السادس الهجري .

- يقول الشيخ حمد (ص ٢٠٢) : إن باب (بَيَان وبَنَان وبُتَّان وبُتَان وتيَان ونَيَّان وثبار ونَيار) لم يرد في كتاب الحازمي ، والصواب أن خمسةً من تلك الأَسماء قَد وردت في كتاب الحازمي (ص ١٠٠) وهي (بُتَان وبَتَّان وبيَان وبَنَان وبُنان) ، والأخيرة لم يذكرها نصر في المادة المشار إليها .

- كما أن ما ذُكر عند الحازمي يُفَصِّل ويصحح ويضيف على ما جاء عند نصر . ومثال ذلك قوله (ص ٢٠٢) عن بُتَان : أنها «بضم الباء وتخفيف التاء ، قرية من أعمال طريثيث» ، في حين يُفَصِّل الحازمي (ص ١٠٠) الحديث عنها فيقول : «بُتان بعد الباء المضمومة تاءٌ مخففةٌ فوقها نقطتان : قريةٌ من نواحي نيسابور ، من أعمال طريثيث ، منها أبو الفضل البُتاني ساكن طريثيث ، أحد الزهاد الفضلاء ، من أصحاب الشافعي رضي الله عنه» . وورد كذلك عند نصر بُتَّان بضم أوله وتاء مشددة عليها نقطتان : «ناحيةٌ من بقعة حَرَّان يُنسب إليها محمد بن جابر البُتَّاني صاحب الزيج» ، في حين أن هذا الاسم ورد عند الحازمي بفتح أوله وتشديد ثانيه ، وبعد أن ذكر نص نصر قال : «وذكره ابن الأكفاني بكسر الباء» .

وهذا السهو من الشيخ حمد رحمه الله ناشيء عن كثرة أسماء الأماكن

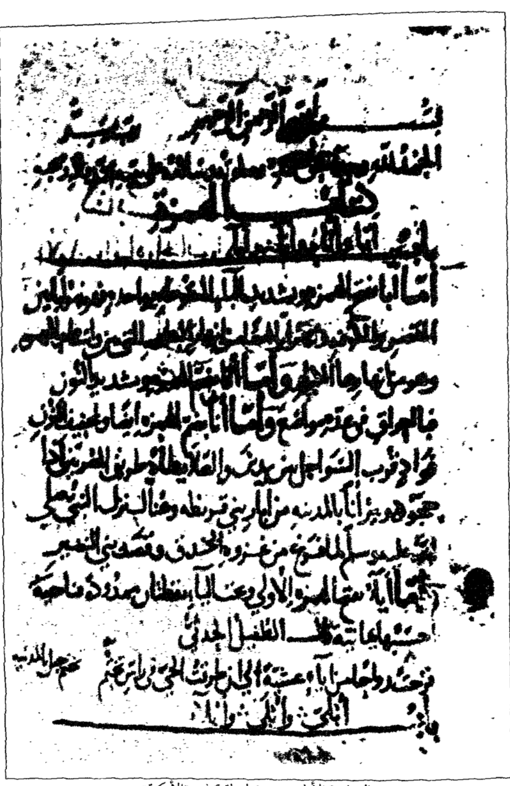
وتداخلها بين كتابي نصر والحازمي ، وربما وجدت ملاحظات أخرى خلاف ذلك ، وعلى الباحث المتتبع الذي نرجو أن يكلف بوضع استدراك شامل يكون ضمن مجلد الفهارس الذي اقترحته آنفا أن يتابع ذلك . كما أرجو أن يشمل ذلك أيضًا الأخطاء المطبعية الواردة في الكتاب ، ومن أمثلتها :

- ص ٣٨ ، كراتشوفسكي = كراتشكوفسكي
- ص ٤٧ دون زيارة = دون زيادة .
- ص ١١٨ عنج = أنج .
- ص ١١٨ الزوزان = الذوذان .
- ص ٤٨٠ يفيص = يفيض .
- ص ٥٠٠ ثلاية = ثلاثة .

وكل ذلك هنات بسيطة بالنسبة للجهد الكبير الذي بذله الشيخ حمد - يرحمه الله - في تحقيق الكتاب ومقابلته بالكتب المناظرة وتحديد المواقع الواردة فيه ، وليس هذا الجهد بغريب على علاَّمة الجزيرة العربية الذي كان لعطائه المذكور في مجال خدمة أسماء المواضع في شبه الجزيرة العربية أطيب الأثر في التعريف بالمواضع القديمة الواردة في كتب التراث العربي ، ولولاه لخفي علينا الكثير من المعلومات في هذا الميدان نتيجة اختلاف الظروف الحضارية وتبدل الأحوال في البوادي العربية .



غلاف مخطوطة كتاب «الأمكنة» للإسكندري وهي نسخة فريدة محفوظة في المكتبة البريطانية



الصفحة الأولى من مخطوطة كتاب «الأمكنة»

آخر الكتاب

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله

الصفحة الأخيرة من مخطوطة كتاب «الأمكنة»

العراق والفتن.. قراءات عامة(*)

«بعيدا عن التحليلات الكثيرة والمتناقضة التي ازدحم بها الشارع العربي حول الشأن العراقي . . نحاول في هذه الفقرات أن نسترشد بكتب التاريخ والاجتماع والجغرافيا لنستطلع جانبا من جذور المشكلات التي يعاني منها العراقي والتي تلقي تداعياتها بظلالها عليه اليوم» .

وقبل أن ندخل في مفردات هذا الموضوع لابد من الإشارة إلى أن هناك بعض الدراسات التي تؤكد بعض ما ذهبنا إليه ، فقد نشر الدكتور علي الوردي أستاذ الاجتماع بجامعة بغداد كتابين مهمين ، أولهما بعنوان «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» في سبعة مجلدات (قم ١٩٦٩م) والثاني بعنوان «دراسة في طبيعة المجتمع العراقي» (قم ١٩٦٩م) . وقد ربط في الكتاب الأول بين الأحداث التاريخية التي مر بها العراق وسلوكيات الفرد العراقي ، فهو يرى أن الأحداث المذكورة قد خلقت عقدة كالعقدة النفسية حيث أصبح الناس «يندفعون ببعض العادات والأفكار الموروثة اندفاعا لا شعوريا ، وقد يؤدي ذلك بهم إلى المهالك بينما هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» . وأورد المؤلف طائفة من النماذج الواقعية من هذا الطراز .

أما الكتاب الثاني فهو لا يختلف من حيث الهدف العام عن سابقه ، إلا

(*) نشر أصل هذا البحث في جريدة «الأنباء» الكويتية، بتاريخ ٢٣ مايو ٢٠٠٣م.

أنه يؤكد أثر الأحداث التاريخية والطبيعة الجغرافية لأرض العراق في تكوين شخصية الفرد العراقي وسلوكياته في علاقاته مع الآخرين ، وبعد أن يذكر الدكتور علي الوردي مجموعة من الأمثلة عبر التاريخ يقول عن ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨م التي أدت بالإطاحة بالنظام الملكي في العراق إنها (هزة) نبشت من المجتمع العراقي ما كان مدفونا ، وأوضحت ما كان غامضا ، وأنها أعطتنا من الدروس بمقدار ما أخذت من الضحايا ، وكان التنازع الجديد مصبوغًا بطلاء من الشعارات والمبادئ الحديثة . بل إن بعض المتعلمين كانوا يشجعون العوام في اندفاعاتهم ويؤيدونهم بالبراهين «العقلية» ، فأصبح كل من يخالفهم في الرأي لابد أن يكون خائنا أو عميلا للاستعمار ، فانتشر الغوغاء يبحثون عن «الخونة» ليعتدوا عليهم كما كان الحال في سالف الدهر (ص ٣٧٩ ، ٣٨٠) .

ومن أهم الدراسات الحديثة المنشورة أيضا في هذا المجال كتاب في مجلدين بعنوان «العراق في أحاديث وآثار الفتن» لأبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، نشرته مكتبة الفرقان في دبي عام ٢٠٠٤م ، ويستهل المؤلف كتابه بقوله : «أما بعد . . فإن أمواج (فتن العصر) الذي نعيش عالية ظاهرة ، متوالية ، ومركزها -فيما أخبر عنه النبي ﷺ- جهة المشرق بعامة و(العراق) بخاصة ، ومنها : «تهيج الفتن» إلى سائر الجهات والبلدان ، ولا يسلم منها إلا من عصمه الله تعالى . (ص ٥) . وتكفي هذه المقدمة على مضمون الكتاب ، على أننا نرى أن ما جاء في هذا الكتاب ، رغم أن بعضه يتفق في اتجاهه العام مع ما سنذكره في هذا البحث ، لابد أن تؤخذ معلوماته بشيء من الحذر وعدم التسليم كاملا بما توصل إليه من استنتاجات .

وفيما يلي مجموعة من القراءات التي سجلتها بالرجوع إلى عدد من كتب التاريخ والجغرافيا القديمة لعل فيها ما يثري هذا الموضوع القديم الجديد :

(١) طبيعة العراق:

تعود بي الذاكرة إلى عام ١٩٦٥م حينما كنت طالبًا في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، حينها كنا ندرس مقررا في حضارات الشرق القديم يدرّسه لنا الأستاذ الدكتور عبدالحميد زايد ، وهو من خيرة المختصين في هذا المجال . ولاتزال عالقة بذهني تلك المقارنة التحليلية التي كان يعقدها الدكتور زايد في الفرق بين حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل ، وأثر ذلك على طبيعة النتاج الحضاري والسكاني في هاتين المنطقتين من مناطق الشرق القديم .

ومضمون تلك المقارنة يذهب إلى أن النيل نهر عظيم منتظم الفيضان يحمل معه في كل عام كميات كبيرة من الطمي الذي يشتمل على عناصر الخصب والنماء ، فكان مجرى النيل شريان الحياة النابضة ، وقد صوّرت مصر في كتب الأوائل وسائر المدن مادة أيديها إليها تستطعمها ، وذلك لكثرة خيرها وعمار ديارها . وعليه فقد امتازت حضارة وادي النيل بالثقة والاطمئنان والتواصل في شكل أسرات متعاقبة ، وظهرت الدولة الواحدة القوية التي امتدت مع امتداد نهر النيل .

أما حضارة وادي الرافدين فقد تأثرت بسلوك النهرين الكبيرين دجلة والفرات ، فهما يفيضان في غير وقت الحاجة إليهما وبصورة غير منتظمة لا يتمكن السكان معها من وضع التدابير اللازمة للوقاية من أخطار الفيضان ، الذي يقع عادة في وقت يتهيأ فيه الزرع للحصاد ، ومن ثم عُرفت حضارة وادي الرافدين بالعنف والمفاجآت والنوازل والمحن ، وكانت هذه البلاد مهددة على

الدوام من جيرانها ، ولم يكن تاريخ هذه المنطقة إلا حروبا متواصلة ، كما أنها كانت وحدات سياسية تسودها الفرقة والانقسام .

وقد أورد الدكتور عبدالحميد زايد تفصيلات أخرى قرأتها -فيما بعد- في كتابه «الشرق الخالد» تؤكد جميعها أثر البيئة الطبيعية في حياة الناس ، ذلك الأثر الذي يعتبر مفتاحا لفهم ما يحدث في العراق في الوقت الحاضر وتفسيرا للأوضاع السياسية والاجتماعية والطبقية التي سادت البلاد في فترات مختلفة من تاريخها .

طبيعة المجتمع العراقي:

الأستاذ الدكتور علي الوردي كان أستاذا لعلم الاجتماع في جامعة بغداد ، وأحد أبرز المختصين في دراسة المجتمع العراقي ، أصدر عام ١٩٥١م كتابا بعنوان «شخصية الفرد العراقي» وكتابا بعنوان «دراسة في طبيعة المجتمع العراقي» نشره عام ١٩٩٦م إضافة إلى كتابه الكبير «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» الذي صدر في ستة مجلدات كبيرة .

يوضح الدكتور الوردي ما جاء على لسان الدكتور عبدالحميد زايد حول أثر البيئة الطبيعية في الإنسان العراقي ، ومن بين الأدلة المتعددة التي أوردها الدكتور الوردي نقف عند استشهاده برأي وليم ويلكوكس [١] الذي أتيح له أن يعيش في مصر ،

(١) مهندس دعته الحكومة العثمانية عام ١٩٠٨م لكي يدرس مشروعات الري في العراق. وقد انتهز الفرصة فأخذ يبحث عن مواقع الأنهار الأربع، التي كانت تسقي أرض الجنة حسبما ورد ذكرها في التوراة. ووضع كتابا بعنوان «من جنة عدن إلى عبور نهر الأردن» ترجمه إلى العربية محمد الهاشمي.

ويدرس أرضها وأنهارها قبل أن يأتي إلى العراق . وبهذا استطاع أن يعقد مقارنة بين طبيعة هذين القطرين اللذين ظهرت فيهما أول حضارة في تاريخ العالم .

يقول ويلكوكس ما نصه :

«إن النيل أكثر أنهار العالم اتزانا ، فإنه ينذر بارتفاعه وانخفاضه قبل مدة مناسبة . ولا يسلك سلوكا مفاجئا ، ويحمل من الغرين في فيضانه ما يكفي لتطييب الأرض دون أن يؤدي ذلك إلى طمر القنوات ، كما أنه بحد ذاته خال من الأملاح ، ويفيض عادة في أشهر آب وأيلول وتشرين الأول من كل سنة مؤمنا بذلك إرواء المزارع الشتوية والصيفية على السواء ، ويجري بين رواب من الحجارة الرملية والكلسية التي تجهز منها المواد الإنشائية بكثرة . أما دجلة والفرات فإنهما يرتفعان دون إنذار سابق وسلوكهما على الدوام مفاجئ ، ويحملان خمسة أضعاف ما يحمله النيل من غرين ، ويحدث فيضانهما في آذار ونيسان وأيار ، وهذا موسم متأخر جدا بالنسبة للزروع الشتوية ومبكر جدا بالنسبة للنباتات الصيفية ، ويحتويان على كمية جسيمة من الأملاح المحلولة ، ويجريان بين صحار جبسية وأراض مالحة» .

ويضيف ويلكوكس إلى ذلك قائلا : إن أرض العراق أشد انحدارا من أرض مصر . ففي مصر يبلغ انحدار الأرض قدما واحدا في كل ميل ، بينما نراه في العراق يبلغ خمسة أقدام في الميل الواحد . إن شدة الانحدار في الأرض تؤدي طبعا إلى قوة جريان الأنهر فيها . وهذا معناه أن الأنهر ذات قدرة كبيرة على كسر السدود واجتياح الأراضي الزراعية المجاورة . وفي رأي ويلكوكس أن ذلك من شأنه زيادة النزاع بين الفلاحين والرعاة ، أو بين قابيل وهابيل . فالفلاحون

يحاولون إنشاء السدود على ضفاف الأنهر لكي يحموا بها حقولهم الزراعية من خطر الغرق . ولهذا فإن حدوث أية ثغرة في تلك السدود يسبب كارثة عظيمة لهم . أما الرعاة فمن مصلحتهم أن تحدث هذه الثغرة في السدود ، ولعلهم يجدون في أنفسهم إغراءً لإحداث مثل هذه الثغرة في سنوات الإمحال الشديدة ، لأنها تؤدي إلى إرواء المراعي التي تتغذى عليها أنعامهم»[1] .

ويضيف الدكتور الوردي إلى ما تقدم أثر التنشئة الاجتماعية في سلوك الفرد العراقي فيقول : إن المجتمع العراقي يعاني من ازدواج الشخصية ، فالفرد العراقي «من أكثر الناس هياما بالمثل العليا والدعوة إليها في خطاباته وكتاباته ومجادلاته ، ولكنه في الوقت نفسه من أكثر الناس انحرافا عن تلك المثل في واقع حياته» .

وذكر الوردي : «أن ازدواج الشخصية ظهر في العراق منذ زمان قديم ، وقد كان ظهوره واضحا في صدر الإسلام . وربما كان ذلك من الأسباب التي دعت الناس إلى وصف أهل العراق بأنهم أهل الشقاق والنفاق» .

ويضيف الدكتور الوردي أيضا «أن مما ساعد على استفحال ازدواج الشخصية في العراق هو ما اتصف به أهل العراق من ميل للجدل والولع به ، والنزعة الجدلية كانت ولا تزال قوية في العراق ولعلها أقوى فيه منها في أي بلد عربي أو إسلامي آخر . ومن عيوب هذه النزعة أنها تُعلِّم الفرد أن يطلب من غيره أعمالا لا يستطيع هو أن يحققها بنفسه لأن الفرد الجدلي يطالب بالحقوق أكثر مما يقوم بالواجبات وهو شديد النقد سليط اللسان يفترض فيمن ينتقدهم أن يكونوا معصومين من الخطأ» .

---

(١) علي الوردي: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص ٢٧، ٢٨.

ولم يقصد الدكتور الوردي التشهير بأبناء وطنه وتجريحهم ، وإنما أراد أن يشخص الأمراض حتى يأتي من يحدد لها الدواء الملائم . ولم نقصد نحن - أيضا - الإساءة ولكن المقصود هو أن يلتفت أبناء الشعب العراقي إلى هذا التشخيص العلمي والعمل على تأهيل أبنائهم تأهيلا تربويا سليما في ظل عراق حر جديد .

(٣) المأمون والجدل:

لبغداد في أعماق وجداننا صورة محوطة بالإعجاب والتقدير ، ولها في مخزون تراثنا الأدبي والفكري والسياسي ملامح لا تُنسىٰ . ويعد عصر المأمون الذي ولي الخلافة عام ١٩٨هـ من أزهى عصور الدولة العباسية . وقد نشطت حركة الترجمة في عهده نشاطا كبيرا ، فترجمت علوم الطب والهندسة والفلك والرياضيات من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية ، وأسس المأمون «بيت الحكمة» الذي أصبح أكبر مكتبة علمية في ذلك العصر . وكان من أبرز الأعمال المنسوبة إلى المأمون أيضا هو قياس الدرجة العرضية ومقدار محيط الأرض ، ورُسمت في عهده خريطة للمعمور من الأرض تفوقت على خرائط مارينوس وبطلميوس دقة وتفصيلا . وقد قرَّب المأمون إليه العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والشعراء ، وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة . وكان واسع العلم محبا للعفو ، ومن أقواله «لو عرف الناس حبِّي للعفو لتقربوا إليّ بالجرائم»[١] .

(١) الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م، الجزء العاشر، ص ٢٧٩.

وقد حكم المأمون العراق نحو عشرين سنة ، وفي آخر سنة من حياته أدركته فتنة الجدل وغلبت عليه طبيعة الأرض والشعب ، فقال بخلق القرآن وامتحن مخالفي هذا المذهب ، وكتب إلى نوابه وعماله في شتى الأنحاء بامتحان العلماء ونكل بكل من قال بأن القرآن كلام الله ، وكان ممن تعرضوا لهذه المحنة طائفة من أئمة الفقهاء مثل أحمد بن حنبل وبشر بن الوليد وابن معين وغيرهم ، الذين عانوا من التعذيب والسجن وخَيَّرهم بين السيف وبين موافقته على رأيه ، ولولا أن الله سبحانه قد عجل بوفاته لفقدت الأمة جمعا من خيرة العلماء . وكان من بين أولئك الذين امتحنهم في هذه المسألة إمام الدمشقيين عبد الأعلى بن مسهر المعروف بأبي مسهر ، وهو شيخ ابن حنبل وكان وعاء من أوعية العلم . وقد حبس المأمون أبا مسهر بعد أن وضعه في النِّطع (بساط من الجلد) للقتل فتلفظ مكرها بما لا يريد وقد أورد خبر محنته الإمام الذهبي في كتابه الكبير «سير أعلام النبلاء» .

(٤) محنة الإمام أبي مسهر

جاء في كتاب «سير أعلام النبلاء» للأمام الذهبي[١] : «قال علي ابن عثمان النفيلي : كنا على باب أبي مسهر جماعة من أصحاب الحديث ، فمرض ، فعدناه ، وقلنا كيف أصبحت؟ قال في عافية ، راضيا عن الله ، ساخطا على ذي القرنين : كيف لم يجعل سدًا بيننا وبين أهل العراق ، كما جعله بين أهل خراسان ويأجوج ومأجوج . فما كان بعد هذا إلا يسير حتى وافى المأمون دمشق ، ونزل بدير مُرَّان وبني القبة فوق الجبل ، فكان بالليل يأمر بجمر عظيم ،

(١) الذهبي: سير أعلام النبلا(١٠/ ٢٣٣).

فيوقد ، ويجعل في طسوت كبار تُدلىٰ من عند القبة بسلاسل وحبال ، فتضيء لها الغوطة ، فيبصرها بالليل .

وكان لأبي مسهر حلقة (درس) في الجامع بين العشائين عند الحائط الشرقي ، فبينما هو في ليلة ، إذ دخل الجامع ضوء عظيم ، فقال أبو مسهر : ما هذا؟ قالوا : النار التي تدلى من الجبل لأمير المؤمنين حتى تضيء له الغوطة فقال : «أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون» . وكان في الحلقة صاحب خبر للمأمون (رجل مباحث) ، فرفع ذلك إلى المأمون ، فحقدها عليه .

فلما رحل المأمون ، أمر بحمل أبي مسهر إليه فامتحنه بالرقة في القرآن» .

وتقول رواية الذهبي : إن أبا مسهر دخل على المأمون بالرقة ، وقد ضرب رقبة رجل وهو مطروح ، فأوقف أبا مسهر في الحال ، فامتحنه ، فلم يجبه ، فأمر به ، فوضع في النطع ليضرب عنقه ، فأجاب إلى خلق القرآن ، فأخرج من النطع ، فرجع عن قوله ، فأُعيد إلى النطع ، فأجاب ، فأمر به أن يوجه إلى العراق ، ولم يثق بقوله ، فما حذر ، وأقام عند إسحاق بن إبراهيم -يعني نائب بغداد- أياما لا تبلغ مئة يوم ، ومات رحمه الله .

ويعلق الذهبي على هذه الرواية بقوله : قد كان المأمون بأسا وبلاء على الإسلام .

(٥) وصف العراق للمقدسي:

وإذا تركنا كل ذلك واستمعنا إلى شهادة عالم وأديب وجغرافي من علماء

القرن الرابع الهجري مشهود له بالكفاية والاقتدار ، طاف معظم بلاد العالم ، وسجل عنها بقلم الأديب وريشة الفنان وعدسة المصور ما بها من معالم وآثار ، ونقل عنها الكثير من الأخبار ، وتعرض إلى أسباب نهضتها وارتقائها ، وعوامل انحطاطها وتحللها ، إنه الجغرافي الواسع الشهرة في العالمين العربي والإسلامي : محمد بن أحمد المقدسي لنقرأ له بعض سطور في كتابه المشهور «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» عن إقليم العراق ، يقول :

«هذا إقليم الظرفا ، ومنبع العلما ، لطيف الما ، عجيب الهوا ، ومختار الخلفا ، أخرج أبا حنيفة فقيه الفقها ، وسفيان سيد القُرَّا ، ومنه كان أبو عبيدة والفرا ، وأبو عمرو صاحب المقرا ، وحمزة والكسائي وكل فقيه ومقرئ وأديب ، وسريّ وحكيم وداه ، وزاهد ونجيب ، وظريف ولبيب ، به مولد إبراهيم الخليل ، وإليه رحل كل صحابي جليل ، أليس به البصرة التي قوبلت بالدنيا ، وبغداد الممدوحة في الورى ، والكوفة الجليلة وسامرا ، ونهره من الجنة بلا مرا ، وتمور البصرة فلا تنسى ، ومفاخره كثيرة لا تحصى ، وبحر الصين يمسُّ طرفه الأقصى ، والبادية إلى جانبه كما ترى ، والفرات بقربه من حيث جرى ، **غير أنه بيت الفتن والغلا ، وهو في كل يوم إلى ورا ، ومن الجور والضرائب في جهد بلا ، مع ثمار قليلة ، وفواحش كثيرة ومؤن ثقيلة ، وهذا شكله ومثاله والله أعلم وأحكم**»[١] .

ومن يقرأ هذه السطور يحس أن الرجل يعيش عصرنا ، ويرى ما نراه الآن رأي العين ، وهو على ما ذكر للعراق من فضائل يفخر بها كل عربي مسلم وتشرئب الهامات إلى مثيلاتها في العالمين العربي والإسلامي تجيء النهاية مريرة

(١) المقدسي، محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦م، ص ١١٣.

وقاسية ؛ أرض يجري فوقها نهران عظيمان عبر سهول واسعة عطاؤها موفور واستصلاحها ميسور . قال هارون الرشيد : «كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة» وتحت هذه الأرض بحيرات من الذهب الأسود ؛ البترول ثروة هذا العصر ومفتاح تقدمه ، ومع ذلك فإن الجدل والفتن والحروب قد بددت هذه الثروات وألحقت الدمار بمقدرات هذا القطر الشقيق . أما آن له أن يتأمل التاريخ ويرسم لنفسه طريقا جديدا يحقق الاستقرار والرفاه؟

(٦) المعارضة العراقية ودعوة إلى الوفاق

إن كل ما ذكرت قد يفسر لنا موقف المعارضة العراقية في داخل العراق وخارجه على مدى سنوات طوال قبل الغزو العراقي للكويت ، حيث لم تستطع فصائلها المتعددة أن تجتمع على موقف موحد ، أو تخطو خطوة إيجابية واحدة في مواجهة النظام الحاكم ، وهي الآن على الرغم من الفرصة المتاحة أمامها لم تتفق على شكل الحكومة العراقية الانتقالية ، أو حتى على الحد الأدنى من التضامن الوطني في هذا الاتجاه . .

إننا نسمع أصواتًا تنادي بالديمقراطية من الجميع وبالحرية للجميع ، وبأن حكم الشعب العراقي لا يكون إلا للشعب العراقي نفسه ، ولكن حقيقة الأمر أن لكل حزب أو طائفة أو فصيل من المعارضة تفسيره وتصوراته الخاصة به . . أما العراق فالله يرعاه . . !!

***

وبعد ، فهذه كلها قراءات في التاريخ والجغرافيا والاجتماع ليس لها في

النفس مدلول منحرف يعبر عن هوى أو سوء نية ، ولكن تصحبها تمنيات من الأعماق ، ودعوات خالصة لوجه الله تعالى أن يعين الشعب العراقي على نفسه ، وعلى ما يواجهه الآن من تحديات بعضها أصيل متوارث كما أسلفنا ، وآخر من صنع الأحداث والظروف والمتغيرات التي ألمت بهذا الشعب العريق ، داعين أهل العراق أنفسهم وكل ذي صلة الآن بالتخطيط لمستقبل هذا الشعب أن يأخذوا في الاعتبار ضرورة وضع استراتيجية تعين على تحقيق التوافق بين طوائف هذا الشعب ، والقضاء على مشكلاته المتوارثة ، وتنمية أنماط السلوك التي تركز على مزيد من السماحة في الخطاب وسعة الصدر في تقبل الآخرين ، فالعنف لا يتوافق اليوم مع متغيرات عصر الحوار ، أملا في مستقبل واعد للعراق بعد صبر طويل ، وطول معاناة .

وأخيرا نستذكر هنا فاتحة كتاب الأستاذ باقر ياسين «تاريخ العنف الدموي في العراق» حينما يقول : «تتوهج في أرض العراق منذ الأزل نار دائمة لا تنطفئ تسمى النار الأزلية . وإلى جانب هذه النار تشتعل نار ثانية هي نار العنف والتطرف وسفك الدماء . .

نتمنى بأعمق المشاعر الإنسانية أن يجد العراق طريقا لإطفاء تلك النار الثانية»[(١)] .

(١) باقر ياسين: تاريخ العنف الدموي في العراق، بيروت (د. ت) ص ٥.

المصادر والمراجع

- **باقر ياسين** : تاريخ العنف الدموي في العراق ، بيروت (د . ت)

- **الذهبي ، محمد بن أحمد** : سير أعلام النبلاء ، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٣م .

- **أبو عبيدة ، مشهور بن حسن آل سلمان** ، العراق في أحاديث وآثار الفتن ، مكتبة الفرقان ، دبي عام ٢٠٠٤م .

- **عبدالحميد زايد** ، الشرق الخالد ، القاهرة ١٩٦٥م .

- **علي الوردي** ، شخصية الفرد العراقي ، بغداد ١٩٥١م .

- **علي الوردي** ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، قم ١٩٦٩م .

- **علي الوردي** ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، ١٩٩٦م

- **المقدسي ، محمد بن أحمد** :أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦م .

الزلازل البحرية (التسونامي) في الوطن العربي
دراسة تاريخية(*)

تزامن نشر هذا المقال مع أحداث الزلزال المدمر الذي وقع في ٢٦ من ديسمبر ٢٠٠٤م، والذي بلغت شدّته ٨,٩ بمقياس ريختر. وكان مركز ذلك الزلزال في الجزء الشرقي من المحيط الهندي قريبا من جزيرة سومطرة، وقد أسفر عن موجات بحرية عاتية أدت إلى مصرع أو فقد أكثر من ٢٠٠ ألف شخص، وتشريد مئات الآلاف من المواطنين بعد أن دمرت الموجات البحرية مدنا وقرى كاملة. وكان أكثر المناطق تضررا إقليم إتشيه الإندونيسي الذي قتل فيه نحو ١٦٩ ألف شخص وتشرد نحو نصف مليون مواطن. كما أدى ذلك الزلزال إلى مصرع نحو ٤٠ ألف مواطن في سريلانكا وتشريد أكثر من ٨٠٠ ألف آخرين. بخلاف المناطق الأخرى المطلة على المحيط الهندي مثل ماليزيا والمالديف والهند وغيرها. وكل ذلك أدى إلى خسارة فادحة في الأموال والمنشآت.

والهدف من هذا المقال هو التذكير بأحداث يغفل عنها بعض المختصين من الباحثين أو المسؤولين، فقد ترددت تصريحات صحفية لبعضهم فيها تطمينات للناس بأن الخليج العربي والبحر الأحمر من البحار «المغلقة على المحيطات» وبالتالي فإن مثل هذه الزلزال لا تأثير لها عليها. غير أن هذا لا يمنع من حدوث

(*) نشر أصل هذا البحث في جريدة «القبس» الكويتية، بتاريخ ٣١ ديسمبر ٢٠٠٤م.

زلازل محلية أخرى في كل من الخليج العربي والبحر الأحمر ، ونضيف إلى ذلك البحر المتوسط والبحر الميت ، وكلها بحار مغلقة أو شبه مغلقة تقع داخل نطاق الوطن العربي . ويمكن القول إن سجلات الزلازل العالمية ذكرت نحو أربعين زلزالا حدثت في داخل تلك البحار في الفترة ما بين عام ٩٥ ق م إلى عام ١٨٩٧م ، وأكثر من ذلك بكثير في الفترة اللاحقة إلى وقتنا الحاضر عندما شاعت الأجهزة الحديثة التي أصبحت أكثر دقة وحساسية في تسجيلها للهزات الزلزالية (انظر الجدول) .

وقد سجلت المصادر التاريخية العربية مجموعة من أحداث الزلازل البحرية ، وعلامتها انسحاب المياه من الساحل إلى داخل البحر ، تعود المياه بعده إلى الساحل بسرعة كبيرة ، وفي شكل موجات مد عالية يتراوح ارتفاعها بين عشرة وعشرين مترا وأكثر من ذلك ، مما يؤدي إلى تحطيم المراكب الراسية في الموانى ، وإحداث الدمار في المنشآت العمرانية الواقعة على الساحل . ويطلق على هذه الموجات في الوقت الحاضر مصطلح ياباني هو «التسونامي Tsu-nami» . وهي كلمة مؤلفة من مقطعين (Tsu) وتعني ميناء و(Nami) وتعني موجة ، والمعنى موجة الميناء .

وواضح من وصف العرب لهذه الظاهرة أنهم كانوا مدركين تماما علاقتها بالزلازل ، فأخبار انحسار البحر وعودته مرة أخرى تأتي دائما مقترنة بأحداث زلزال معين . وقد تسببت الزلازل البحرية في عدد من الكوارث نورد أهمها فيما يلي :

* عام ٣٩٨هـ (١٠٠٨م) وقعت رجفة في سيراف غرقت بسببها مراكب كثيرة في البحر وكانت هذه الزلزلة عامة في بلاد فارس والعراق ، فقد مات فيها

جدول سنوات حدوث الزلازل في الخلجان والبحار العربية حتى عام ١٨٩٧م

السنة	المكان	السنة	المكان
٩٥ ق .م	خليج السويس	١٥٠٤م	البحر الأحمر
١١٢م	البحر الميت	١٥٣٧م	البحر المتوسط
٣٢٠م	البحر المتوسط	١٥٤٦م	البحر الميت
٥٥١م	البحر الميت	١٦١٣م	خليج عدن
٧٤٢م	البحر الميت	١٦٧٩م	البحر الأحمر
٨٧٩م	خليج عمان	١٦٩٨م	البحر المتوسط
٩٥٦م	البحر المتوسط	١٧٥٤م	خليج السويس
١٠٣٣م	البحر الميت	١٧٨٨م	البحر الأحمر
١١٢١م	البحر الأحمر	١٧٨٩م	البحر الأحمر
١٢٠٢م	البحر الميت	١٨١٤م	خليج السويس
١٢٢٢م	البحر المتوسط	١٨٢٤م	البحر الأحمر
١٢٩٣م	البحر الميت	١٨٣٢م	البحر الأحمر
١٤٢٥م	خليج السويس	١٨٤٥م	البحر الأحمر
١٤٢٦م	الخليج العربي	١٨٤٦م	البحر الأحمر
١٤٣٢م	البحر الأحمر	١٨٥٨م	الخليج العربي
١٤٣٣م	البحر الأحمر	١٨٦٨م	البحر المتوسط
١٤٣٤م	البحر الأحمر	١٨٧٠م	البحر المتوسط
١٤٤٤م	البحر الأحمر	١٨٧٢م	البحر المتوسط
١٤٥٨م	البحر الميت	١٨٧٩م	خليج السويس
١٤٨١م	البحر المتوسط	١٨٨٤م	الخليج العربي
١٤٩١م	البحر المتوسط	١٨٩٧م	البحر الأحمر

أكثر من ستة عشر ألف إنسان في مدينة الدينور غير أولئك الذين ابتلعتهم الأرض فماتوا تحت الردم[١] .

* وفي عام ٤٦٠هـ (١٠٦٨م) انحسر البحر عن الساحل في بلاد الشام مسافة يوم ، فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون منه فرجع إليهم فأهلك خلقا عظيما منهم . وفي هذا الزلزال خسفت بلدة الرملة بفلسطين جميعها حتى لم يسلم منها إلا دربان فقط ، وهلك منها خمسة عشر ألف نسمة ، وهلكت أيلة (العقبة وإيلات) ومن فيها ووصلت آثار الزلزلة إلى المدينة المنورة حيث هدمت شرافتان من مسجد رسول الله ﷺ وبلغت وادي الصفراء وخيبر ، كما أحس بها أهل الكوفة بالعراق[٢] .

* وفي شهر شعبان من عام ٥٩٧هـ (مايو ١٢٠١م) كانت الزلزلة العظيمة ، أتت من نحو الصعيد ، فعمت الدنيا في ساعة واحدة ، وهدمت بنيان مصر ، حتى عدم تحت الهدم عالم عظيم . ثم وصلت بالشام والساحل ، وهدمت نابلس ، حتى لم يبق بها جدار قائم إلا حارة السامرة . وهلك تحت الردم ثلاثون ألف إنسان . وكذلك هدمت عكا وصور ، مع قلاع الساحل ، وامتدت إلى دمشق ، فهدمت بعض المنارة بجامع بني أمية ، وأكثر الكلاسة ، والبيمارستان النوري . وهرب الناس إلى الميادين . وسقط من الجامع ست عشرة شرافة . وانشقت قبة النسر ، وامتدت إلى بانياس وهونين . وخرج قوم من أهل بعلبك سائرين في طريقهم ، فسقط عليهم جبل ، فهلكوا تحته ، وهدمت أكثر

---

(١) السيوطي ٣١، جلال الدين عبدالرحمن: كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق عبداللطيف السعداني، الرباط ١٩٧١م، ص ٣١.

(٢) ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، الهند ١٣٥٨هـ (٨/ ٢٤٨).

قلعة بعلبك مع عظيم بنائها . وامتدت إلى حمص وحماة وحلب . وقطعت البحر إلى قبرص ، وانفرق البحر فصار أطوادا ، وقذف بالمراكب إلى الساحل ، وتكسرت منه عدة مراكب . ثم وصلت إلى أخلاط وأرمينية وأذربيجان والجزيرة . ووصلت إلى العجم ، فأحصى من هلك في بلادها تحت الردم ، فقيل كان ألف ألف ومائة ألف . وكان قوة الزلزلة في مبتدأ أمرها أقامت بقدر ما يقرأ الإنسان سورة الكهف ، ثم عاودت بعد ذلك أياما[١] .

* وفي شهر شعبان من عام ٥٩٨هـ (مايو ١٢٠٢م) حدثت زلزلة عظيمة حركت في ساعة واحدة طايفة من الأرض من قوص إلى دمياط والإسكندرية ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولا وعرضا ، وتعفَّت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها أثر ، وهلك من الناس خلق عظيم وأمم لا تحصى . ولا أعرف في الشام بلدا أحسن سلامة من القدس فإنها لم تنكأ فيه إلا ما لابال به . وكانت نكاية الزلزلة ببلاد الإفرنج أكثر منها في بلاد الإسلام كثيرا ، وسمعنا أن الزلزلة وصلت إلى أخلاط وتخومها وإلى جزيرة قبرص وأن البحر ارتطم وتَموَّج وتشوهت مناظره فانفرق في مواضع وصارت فرَقُه كالأطواد وعادت المراكب على الأرض وقذف سمكا كثيرا على ساحله[٢] .

* وفي الزلزال الكبير الذي عم بلاد مصر وسواحل البحر المتوسط وجزره عام ٧٠٢هـ (١٣٠٣م) انحسر البحر من جهة عكا قدر فرسخين ، وانتقل عن

(١) (الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، القاهرة ١٩٧٢م (٧/١٤٩، ١٥٠).

(٢) البغدادي، عبداللطيف: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، باريس ١٨١٠م، (ص ١٤٥ ـ ١٥٠).

موضعه إلى البر ، وأدت الأمواج الناتجة عن هذا الزلزال إلى هيجان البحر على سواحل الإسكندرية ، مما أدى إلى تهدم أبراجها وغرق قماش القصارين وغلال كثيرة على ساحل البحر . وقد كان هذا الزلزال يوم الخميس الثامن من شهر أغسطس ١٣٠٣م عند صلاة الفجر حيث اهتزت الأرض كلها . وسمع للحيطان قعقعة وللسقوف أصوات شديدة ، وصار الماشي يميل والراكب يسقط ، حتى تخيل الناس أن السماء انطبقت على الأرض ، فخرجوا في الطرقات رجالا ونساء ، قد أعجلهم الخوف والفزع عن ستر النساء وجوههن ، واشتد الصراخ وعظم الضجيج والعويل ، وتساقطت الدور وتشققت الجدران وتهدمت مآذن الجوامع والمدارس ، ووضع كثير من النساء الحوامل ما في بطونهن ، وخرجت رياح عاصفة ، ففاض ماء النيل حتى ألقى المراكب التي كانت بالشاطئ قدر رمية سهم ، وعاد الماء عنها فصارت على اليبس وتقطعت مراسيها ، واقتلع الريح المراكب السائرة في وسط الماء ، وحذفها إلى الشاطئ ، وفقد للناس من الأموال شيء كثير : فإنهم لما خرجوا من دورهم فزعين تركوها من غير أن يعوا شيئا مما فيها ، فدخلها اللصوص وأخذوا ما أحبوا . وصار الناس إلى خارج القاهرة ، وبات أكثرهم خارج باب البحر ، ونصبوا الخيام من بولاق إلى الروضة . ولم تكد دار بالقاهرة ومصر تسلم من الهدم أو تشعث بعضها . وسقطت المزاريب التي بأعلى الدور ، ولم تبق دار إلا وعلى بابها التراب والطوب ونحوه . وبات الناس ليلة الجمعة بالجوامع والمساجد ، يدعون الله إلى وقت صلاة الجمعة .

وتواترت الأخبار من الغربية بسقوط جميع دور مدينة سخا ، حتى لم يبق بها جدار قائم وصارت كوما ، وأن ضيعتين بالشرقية خربتا حتى صارتا كوما .

وقدم الخبر من الإسكندرية بأن المنار انشق وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة ، وأن البحر هاج وألقى الريح العاصف موجه حتى وصل إلى باب البحر وصعد بالمراكب الإفرنجية على البر ، وسقط جانب كبير من السور ، وهلك خلق كثير . وقدم البريد من صفد أنه في يوم الزلزلة سقط جانب كبير من قلعة صفد ، وأن البحر من جهة عكا انحسر قدر فرسخين وانتقل عن موضعه إلى البر ، فظهرت في موضع الماء أشياء كثيرة في قعر البحر من أصناف التجارة ، وتشققت جدر جامع بني أمية بدمشق .

واستمرت الزلزلة خمس درج ، وأقامت الأرض عشرين يوما ترجف ، وهلك تحت الردم خلائق لا تحصى . وكان الزمان صيفا ، فتوالى بعد ذلك سموم شديدة الحر عدة أيام . واشتغل الناس بالقاهرة ومصر مدة في رم ما تشعث وبناء ما هدم .

وفاض البحر المالح وطمى ، وأغرق الماء قماش القصارين ، وكسر قوارب البحارين ، وقطع مراسي المراكب الفرنجية وطرح أكثرها إلى الأسوار والشعاب .

ولما عاين أهل الثغر هيجان البحر ، وانهدام المنار ، وتساقط المآذن والأسوار وتناثر الأحجار من الجدران ، وتداعي الأركان المشيدة البنيان ، بادروا مسرعين وخرجوا من باب السدرة هاربين ، ولما سكّن الله حركتها ، وأذهب رجفتها ، تراجعوا إلى أماكنهم ، وعادوا إلى مساكنهم .

وتواترت الأخبار ، بأن الزلزلة المذكورة كانت قوية الأثر في البلاد الغربية والجزائر البحرية ، والجهات الفرنجية ، وأنها أيضا حدثت في تلك الساعة وذلك النهار ببلاد الكرك والشوبك والسواد وتلك الأقطار .

* وقال بيبرس في تاريخه : وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي الحجة (٨ أغسطس) : حدثت زلزلة عظيمة بكرة النهار بالقاهرة ومصر وسائر أعمال الديار المصرية ، وخاصة في ثغر الإسكندرية ، وكانت عظيمة حتى أن الجدُر تساقطت ، والجبال تشققت ، والمباني تهدمت ، والصخور تقطعت ، والمياه من خلال الأرضين تفجرت ، ومادت الأرض بمن عليها ، وماجت المساكن بساكنيها ، وتشعثت الأسوار والأركان ، وثار الصراخ بكل مكان ، وخرجت النساء حاسرات إلى الطرقات ، وظن الناس أنها إماتة الأحياء وقيامة الأموات ، وابتهلوا إلى رب السموات لما عراهم من المخافات ، فأدركتهم رأفته ، وأنقذتهم رحمته بأن سكن زلزالها ، وخفف أهوالها ، ولو دامت ثلث ساعة من النهار لم يبق على الأرض دار ولا ثبت بها جدار ، فكان تقصير مسافتها وتخفيف آفتها لطفا من الله بعباده ، ومنّة على ساكني بلاده ، وأثرت في البحرين العذب والأجاج ، وأثارت فيهما الأمواج ، وارتج كل منهما غاية الارتجاج ، وكان تأثيرها قويا جدا بالإسكندرية والنواحي الغربية ، وهدمت بالثغر أكثر الأبراج والأسوار ، ورمت جانبا وافرا من المنار .

وقال النويري : وجزرَ البحر بالإسكندرية ، ثم رجع فأتلف أموالا عظيمة للتجار ، وغرق جماعة كثيرة ، وانكشف البحر بساحل عكا ، فظهر في قاعه شيء كثير مما ألقاه أهل عكا في مدة حصارها ، فتبادر الناس لأخذه ، فرجع البحر عليهم فغرّقهم عن آخرهم[1] .

---

(١) كتب عن هذه الزلزلة العظيمة عدد كبير من المؤرخين منهم:
- المقريزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٧٢م (١/ ٩٤٢-٩٤٣).
- المنصوري، بيبرس: التحفة الملوكية في الدولة التركية، القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٧٣.
- الدواداري، مصدر سابق (٩/ ١٠٠ _ ١٠٢).

* وفي عام ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) هبت ريح شديدة وحدثت زلزلة عظيمة ، وامتد البحر من المينة (ميناء فاما جوسطة بقبرص) نحو مائة قصبة (ثلاثمائة متر) فغرق كثير من مراكبهم وتكسرت ، فظن أهل قبرص أن الساعة قامت ، فخرجوا حيارى لا يدرون ما يصنعون . ثم عادوا إلى منازلهم وإذا أهاليهم قد ماتوا وهلك لهم ثلاثة ملوك[١] .

* وفي عام ٨١١هـ (٢٩ ديسمبر ١٤٠٨م) حدثت زلزلة عظيمة في نواحي بلاد حلب وطرابلس ، فخرب من اللاذقية وجبلة وثغر بكاس التي مات معظم أهلها ، وبلغت هذه الزلزلة قبرص فخربت منها أماكن كثيرة ، وكانت بالساحل والجبال ، وأخبر البحرية أن المراكب بالبحر جلست على الأرض بما فيها من انحسار البحر ، ثم إن الماء عاد كما كان[٢] .

* ومن أهم الزلازل البحرية أيضا ما حدث في مدينة سلا بالمغرب عام ١١٦٩هـ (١٧٥٥م) إذ طغى البحر على المدينة وخربها وأغرق الكثير من الناس والدواب وتكسرت المراكب ودفعت الأمواج بعضها إلى داخل اليابسة .

ففي يوم السبت الموافق الأول من نوفمبر عام ١٧٥٥م كانت الزلزلة العظيمة بالمغرب التي هدمت جل مكناسة وزرهون ومات فيها خلق كثير بحيث أحصى من العبيد وحدهم نحو خمسة آلاف وتكلم لويز مارية عن هذه الزلزلة فقال : إنها مكثت ربع ساعة وتشققت الأرض منها واضطرب البحر وفاض حتى ارتفع ماؤه على سور الجديدة وفرغ فيها ، ولما رجع البحر إلى مقره ترك عددا كثيرا من السمك بالبلد ، وفاض على مسارحهم ومزارعهم وأشباراتهم فنسف ذلك كله

(١) المقريزي: مصدر سابق (٢/ ٧٤١).
(٢) المصدر السابق (٤/ ٨٠).

نسفا واضطربت المراكب والفلك بالمرسى فتكسرت كلها وفَرَّ نصارى البلد إلى الكنيسة وتركوا ديارهم منفتحة ، ومع ذلك لم يفقد منها شيء لاشتغال الناس بأنفسهم . وتكلم صاحب نشر المثاني عن هذه الزلزلة فقال : وفي ضحوة يوم السبت السادس والعشرين من المحرم سنة تسع وستين ومائة وألف زلزلت الأرض زلزالها ، ومادت شرقا وغربا ، واستمرت كذلك نحو درجة زمانية ، وفاض ماء البرك والصهاريج على البيوت وتكدرت العيون ووقف ماء الأودية عن الجري وسقطت الدور وتصدعت الحيطان وأخذ الناس في هدم ما تصدع خوف سقوطه ، وفزع الناس وتركوا حوانيتهم وأمتعتهم ، ووقع بمدينة سلا أن ماء البحر انحصر عنها فجاء الناس ينظرون إليه فرجع الماء إلى جهة البر وتجاوز حده المعتاد بمسافة كبيرة ، فأغرق جميع من كان خارج المدينة في تلك الجهة وصادف قافلة ذاهبة إلى مراكش فيها من الدواب والناس عدد كبير فأتلف الجميع ، ورمى بالقوارب والزوارق التي في الوادي إلى مسافة بعيدة جدا ، ثم بعد هذه بنحو ستة وعشرين يوما عادت زلزلة أخرى أشد من الأولى بعد صلاة العشاء هي التي أثرت في مكناسة غاية التأثير ، وهلك تحت الهدم بها نحو عشرة آلاف نفس ، وفعلت بفاس أيضا فعلا شنيعا[١] .

* وفي هذه السنة حدث الزلزال الشهير في مدينة لشبونة حيث دفن تحت أنقاض المدينة نحو ١٠ آلاف إنسان ، والأحياء الذين بقوا بعد الهزة الأولى التجأوا إلى رصيف الميناء فباغتتهم الهزة الثانية ورفعت مياه البحر إلى علو ٥٠ قدما ، ثم جرفت الرصيف وكل ما كان عليه إلى أعماق البحر ، ثم انشقت

(١) الناصري، أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٦٥م، (٨/ ٨٤، ٨٥).

الأرض تحت البحر وابتلعت جميع السفن التي كانت في الميناء ثم أطبقت عليها ولم يظهر منها فيما بعد أثر على وجه الماء(١) .

وعند الرجوع إلى سجلات الزلازل العالمية التاريخية منها والمعاصرة نجد أن هناك العديد من الأحداث الزلزالية التي تعرضت لها البحار ذات الصلة بالوطن العربي مثل الخليج العربي وبحر عمان والبحر العربي والبحر الأحمر وخليجي السويس والعقبة والبحر الميت والبحر المتوسط ، وكثير من تلك الزلازل لم ترد عنها معلومات وافية فبعضها كانت زلازل خفيفة غير مؤثرة والبعض الآخر كان تأثيرها في مناطق غير آهلة بالسكان ، ومن ثم فلم يتم الاهتمام بها في المصادر ، على نحو ما أصاب الموانى والمدن المهمة التي أشرنا إليها في الأمثلة السابقة .

ولابد أن الدراسات التفصيلية لأحداث الزلازل في البلاد العربية وبحارها وبخاصة ما يتعلق بالزلازل البحرية سوف تقودنا إلى معلومات أوفر مما ذكرناه ، فقد صدر في عام ٢٠٠٠م لسيرجي سولوفيف وآخرين سجل الزلازل البحرية في منطقة البحر المتوسط يتضمن وصفا لنحو ثلثمائة زلزال بحري وما يتصل بها من ظواهر طبيعية ، وحدد الكتاب (١٨) منطقة لنشأة الزلازل في البحر المتوسط مصنفة إلى أربع مجموعات وفقا لقوتها وطبيعتها .

(Sergey L. Soloviev and Others: Tsunamis in The Mediterranean Sea, London 2000)

وهناك توثيق دقيق وتفصيلات أخرى لكاتب هذه السطور في كتابه «سجل الزلازل العربي» الصادر عن الجمعية الجغرافية الكويتية عام ٢٠٠٢م .

---

(١) الغزي الحلبي، كامل بن حسين بن محمد: نهر الذهب في تاريخ حلب، حلب ١٩٢٦م، (٣/ ٥١٥).

ونستنتج من كل ذلك أن هذه الظاهرة التي نأخذ أمثلتها دائما من سواحل المحيط الهادي ، وبخاصة عند الجزر اليابانية وجزر هاواي ثم امتداد تلك السواحل في المحيط الهندي وبحر العرب -كما حدث في الزلزال الأخير- لها حدوث في منطقتنا العربية ، وهو أمر أغفلته معظم المراجع العربية الحديثة التي عالجت موضوع الزلازل .

وتنجم الزلازل البحرية إذا ما كانت بؤرة الزلازل في مكان ما من البحر ، حيث تنشأ نتيجة لحركة القاع الناجمة عن الزلزلة موجة تنتشر وتمتد إلى أعلى مكونة تيارا قويا يسير في جميع الاتجاهات ، ويرافق هذه الحركة هدير مائي عميق ، وتتحول هذه الموجة عند وصولها إلى سطح البحر إلى موجة مائية عظيمة هي التي يطلق عليها التسونامي ، حيث تتحرك في المحيط المفتوح بسرعة قد تصل إلى أكثر من ٩٠٠ كيلو متر في الساعة ، وعادةما يحدث انحسار للبحر في البداية ثم تهجم الأمواج بعلو كبير حيث تتوغل داخل اليابسة فتخرب الموانى والمنشآت الساحلية .

***

وختاما فإن ما ذكرناه من أمثلة وإيضاحات حول موضوع الزلازل في المنطقة العربية تجعل الحاجة ماسة إلى أن نولي جميع المؤسسات المعنية بدراسات الزلازل وتتبعها أولوية قصوى . وأن تنال في ميزانيات الدول العربية التي سبق وتعرضت لأحداث زلزالية ما يعينها على أن تواكب أحدث التجهيزات العالمية في هذا المجال . كما أن من واجب الأقسام المعنية في الجامعات العربية توجيه البحوث والدراسات التي تعين على رسم الخطط المناسبة لمواجهة أخطار

الزلازل ، والنهوض بمستوى المعلومات الخاصة بسلوك المنشآت والمباني عند حدوثها ، ومراجعة نظم البناء والمواد المستخدمة في تشييد المباني ، بل والنظر في تقوية المباني القائمة حاليا ، بحيث يمكن تجنب أكبر قدر من الأضرار عند حدوث الزلازل .

وأدعو الله أن يبعد عنا خطر الزلازل وأن يلهم المتضررين منها في الزلزال الأخير الصبر والسلوان .

المصادر والمراجع

- **البغدادي ، عبداللطيف** : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، باريس ١٨١٠م .

- **ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي** : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد ، الهند ١٣٥٨هـ .

- **الدواداري ، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك** : كنز الدرر وجامع الغرر ، القاهرة ١٩٧٢م .

- **السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن** : كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة ، تحقيق عبداللطيف السعداني ، الرباط ١٩٧١م .

- **الغزي الحلبي ، كامل بن حسين بن محمد** : نهر الذهب في تاريخ حلب ، حلب ١٩٢٦م .

- **المقريزي ، أحمد بن علي** : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٧٢م .

- **المنصوري ، بيبرس** : التحفة الملوكية في الدولة التركية ، القاهرة ١٩٨٧م .

- **الناصري ، أحمد بن خالد** : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٦٥م .

الجغرافية التاريخية لإفريقية

فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات

(تأليف د. محمد حسن، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس، ليبيا، يناير ٢٠٠٤م، ٣١٢ صفحة)

يتناول هذا الكتاب الجغرافية التاريخية لإفريقية في الفترة الممتدة من القرن الأول إلى القرن التاسع الهجري (السابع - الخامس عشر الميلادي) . ويرتكز مبحث الجغرافية التاريخية أساسًا على العلوم الجغرافية التي تقدم صورة المكان خلال فترة زمنية محددة أو عبر فترة تاريخية معينة مع الاستفادة من معطيات علم التاريخ والمسوح الأثرية وأعمال التنقيب ، ومن خلال ذلك كله أمكن رصد مواقع العمران القديم ، وأماكن المعارك ، وحدود المقاطعات الإدارية ، وبيان صورة المنشآت المائية ، ورسم خطوط المسالك والطرقات بما يؤدي إلى رسم خريطة متكاملة للمنطقة محل البحث .

ويقسم المؤلف كتابه إلى أربعة فصول :

- الأول : في مفاهيم الجغرافية التاريخية .
- الثاني : في المواقع والمسالك القيروانية .

(*) نشر هذا الموضوع في مجلة العلوم الإنسانية التي تصدر عن جامعة الكويت، العدد ٨٧ صيف ٢٠٠٤م.

- الثالث : جغرافية التوطين ببلاد الساحل .

- الرابع : في المجالات الزراعية والماء .

ومع أن هذا التقسيم لا يقدم جميع عناصر الجغرافية التاريخية فإن المؤلف حاول أن يلقي الضوء على بعض الجوانب الأساسية في هذا المجال .

١- الفصل الأول : في مفاهيم الجغرافية التاريخية

وهو مدخل عام في المصطلحات ذات العلاقة بالعمران القديم في إفريقية ، وليس في «مفاهيم الجغرافية التاريخية» كما ينص عنوان الفصل ، فقد جاء هذا الفصل في صورة دراسة لأسماء المواقع المغربية ، حلل فيها وفقًا لمنهج علم الأسماء الجغرافية أصول تلك الأسماء وجذورها القديمة ، وخلص إلى أن أسماء المواقع ببلاد المغرب مشتقة من عدة مصادر ، ويمكن ربط الأسماء بالتأثيرات الفينيقية والإغريقية والبربرية والعربية ، فأنطابلس (برقة) معناها بالإغريقية المدن الخمس ، و«تيطاون» المدينة الواقعة بجبل دمر جنوب شرقي إفريقية معناها بالأمازيغية «العينان» .

وكان للتوطن العربي في بلاد إفريقية أثره أيضًا في ظهور مجموعة من الأسماء العربية للمواقع ، فقد ظلت أسماء قرى ومواقع تذكرنا بالقبائل اليمانية والمصرية المستقرة حول مصر القيروان ، منها «همدان» شمال سبخة سيدي الهاني ، و«صدف» جنوب وادي الشريطة ، و«جهينة» جنوب القيروان . كما يمكن ربط أسماء المواقع أيضًا بحركة السكان القبائل وتغير مواقعها ، فظهرت مجموعة من الأسماء لمواقع مشتركة ، ومثال ذلك «جندوبة» قرية بجبل

نفوسة ، واسم لمدينة تونسية ، و«طبرقة» و«درنة» مدينتان ساحليتان بالشمال التونسي ، و«طبرق» و«درنة» على الساحل الليبي .

ويرى المؤلف أنه من العسير رصد هذه الظواهر بكامل جزئياتها في إطار إفريقية وبلاد المغرب ، ولهذا فضل الانطلاق من عينات محددة للإبانة عن أهمية تلك الأسماء في دراسة الجغرافية التاريخية المغربية .

وقد انتقل المؤلف من دراسة أسماء المواقع إلى مفاهيم العمارة الريفية ، فناقش تحديد مفهوم القرية وتباين القرى الإفريقية في طبيعة عمرانها وبنيتها ووظيفتها ومعالمها المختلفة . ثم ذكر أصناف القرى كالمنزل والحصن والطرش والبرج .

وأفرد المؤلف القسم الثالث والأخير من هذا الفصل للحديث عن عمارة القصور بجنوب إفريقية ، استعرض فيه تسمياتها وموقعها الجغرافي وارتباطه بمسالك التجارة والنشاط السياسي ثم القبائل المؤسسة ، وقد استطرد المؤلف في الحديث عن مستلزمات إنشاء القصور وعناصرها التخطيطية والمعمارية ووظائفها المختلفة (دفاعية ، سكنية) ، وأشار المؤلف إلى تأثر تلك القصور بالسمات المعمارية السائدة في العصرين الروماني والبيزنطي إضافة إلى السمات العربية الإسلامية ومثلت النواة التي نمت حولها المدن والقرى في العصر الوسيط .

٢- الفصل الثاني : المواقع والمسالك القيروانية

اتخذ المؤلف من القيروان والمناطق المجاورة لها مثل «القرن وطنبياس

والأصنام» مثالاً على العمران القديم في صحراء إفريقية معتبراً أن القيروان كانت المعسكر الذي وحد كامل الغرب الإسلامي (بما فيها الأندلس) في عهد الولاة ، ثم تحولت إلى قطب اقتصادي وثقافي له وزنه ومكانته الإقليمية .

وتقع «القرن» شمال غربي القيروان بنحو ١٢ كيلومتراً ، وتسمى حاليًا عقبة الشرفاء ، وهي عبارة عن جبل صغير يمثل ملتقى لمسالك متعددة بين الشمال والشرق والغرب ، وقد كانت في البداية قاعدة للجيش العربي ، وقد خرجت منها منذ عام ٤١هـ (٦٦١ – ٦٦٢م) حملات متتالية لإخضاع البلاد المجاورة . ثم تم تمصيرها على يد معاوية بن حديج ، وتحولت إلى مدينة . غير أن «القرن» لم تعمر طويلاً كقاعدة للحكم ، بعد أن فضل عقبة بن نافع موضعًا جديداً بعيداً عن مخاطر الغارات المباغتة للسكان ، وتحاشيًا للاختلاط بهم في المرحلة التأسيسية ، وفي إثر تمصير القيروان تحولت «القرن» إلى قلعة مهمة تستعمل لحماية المدينة الجديدة ، واستمرت كذلك طيلة عهد الولاة وبداية الفترة الأغلبية .

وقد استطرد المؤلف في تتبع الأحداث والمعارك المتعلقة بالقرن للوصول إلى بيان الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة بالنسبة لمدينة القيروان .

أما «طنباس» أو«طنبياس» فهي بوابة القيروان الشمالية الشرقية ، وقد بحث المؤلف أولاً في إشكالية الاسم وتصحيفاته المختلفة ، ثم انتقل إلى محاولة تحديد الموقع بناء على المعطيات التاريخية والآثارية . وانتهى إلى أن «طنباس» تقع في ملتقى الطريق الرابطة بين مدينة القيروان وكل من بلاد الساحل ومدينة تونس ، وهي على مقربة من واد كبير ، وسط منظومة مائية

قادرة على ريّ جيوش كبيرة ، وتحتوي على سدود ترابية ومنشآت مائية تتحكم في مياه الأمطار لسقي المزارع الواسعة بها .

أما الموضع الرابع وهو «الأصنام» ، فقد حاول المؤلف أن يحدد هذا الموضع الذي درس مكانه في الوقت الحاضر من واقع الوثائق النصية والحبيسة والمعطيات الميدانية ، وانتهى من بحثه إلى أن «الأصنام» غير بعيدة عن القيروان ، في الشمال الشرقي منها ، وغير بعيدة عن الخزازية وموقع المصلّى . ولا يستبعد أن يكون الموضع اليوم قد غطاه طمي الأودية .

٣- الفصل الثالث : جغرافية التوطين ببلاد الساحل

يشكل الساحل في بلاد إفريقية (تونس) وحدة جغرافية واقتصادية وإدارية متميزة ، فهي قرى متصلة بعضها ببعض تمتد من شمال سوسة إلى ناحية صفاقس ، لا تفصل بين الواحدة والأخرى سوى غابة الزيتون . وقد اقترن مفهوم الساحل في العصر الوسيط بمدى امتداد غابة الزيتون . وأبرز ما يميز هذا النطاق هو :

- وجوده على ساحل البحر .
- زراعة الزيتون كغلة رئيسية .
- القرى والمدن .

وقد تناول المؤلف تحديد المجال الجغرافي لبلاد الساحل ، وتطور المواقع الواقعة في هذا الإقليم ، والتحولات التي طرأت عليها عبر القرون ضعفًا واضمحلالاً أو قوة واتساعًا ، إضافة إلى المواقع الجديدة التي تظهر بين حين

وآخر . فتناول أولاً المواقع الواقعة على طريق القيروان - الساحل ثم رباطات بلاد الساحل ، وهي حصون عسكرية لها صفات معمارية خاصة مثل السور والباب الوحيد وأبراج الزوايا والمنارة المستعملة للمراقبة والكوى والشرفات المستديرة . وتتراوح المسافة الفاصلة بين هذه الحصون والرباطات ما بين ٦ - ٧ كيلومترات بطريقة تجعل الاتصال سهلاً بين حصن وآخر ، وقد تستغل الجزر الساحلية أيضًا مكانًا لإقامة مثل هذه الحصون والرباطات . وكان لهذه الحصون دورها العسكري في صد غارات الروم والبيزنطيين كما كانت مكانًا لاعتكاف الزهاد والمتصوفين ، وبعض هذه الرباطات كان لها دور اقتصادي .

ويستعرض المؤلف قائمة من الرباطات والحصون التي عرف منها ١٨ رباطًا من مجموع ٢٦ رباطًا ، ويتضح من الدراسة الأثرية والتاريخية أن بعض هذه الرباطات قد أسسه البيزنطيون ثم تم إحياؤه في العصر الإسلامي ، وتدل أسماء الحصون على الفترة التي أنشئت فيها الحصون ، أو الدول والقبائل والأشخاص الذين كان لهم الدور الأساسي في ذلك .

ويرتبط بالحصون والرباطات الأحمية والحُبُوس ، وهي الأرض المخصصة لمراعي الخيل والإبل المحبوسة للجهاد ، وقد تتبع المؤلف مراحل تفكك تلك الأحمية وظهور الملكية الخاصة والأحباس .

ويخصص المؤلف الثلث الأخير من هذا الفصل للحديث عن حركة الهجرة بين ساحل إفريقية وجزيرة صقلية خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، فيتكلم عن الهجرة من إفريقية إلى صقلية المتمثلة في مرحلة الاستيطان الأولى بعد أن تم فتحها عام ٢١٢هـ/ ٨٢٧م ، ثم تتالت

الهجرات البشرية ، بعضها سلمي كان من دوافعه التجارة وتبادل المنافع ، والبعض الآخر قسري نتيجة الاضطرابات السياسية ، أو نتيجة الغلاء والمجاعات والأوبئة التي داهمت إفريقية في بعض الفترات التاريخية .

وظلت الاتصالات بين سكان بلاد الساحل وصقلية حتى بعد أن غلب النورمان على الجزيرة ، لكن مع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بدأت الهجرة العائدة إلى الساحل الإفريقي ، وقد كانت بطيئة في البداية ، ثم زادت مع تزايد التضييق على المسلمين ، ومع أواخر القرن السادس الهجري بدأ الجلاء الجماعي من صقلية إثر الاضطهاد الذي تعرض له مسلمو صقلية ، وأثمرت تلك الهجرات انتشار مجموعات صقلية مهمة في المدن الساحلية الإفريقية كان لها آثارها الحضارية في المناطق التي سكنتها .

ويختتم المؤلف هذا الفصل بقوله : إن هذه الفترات الحرجة من تاريخ المتوسط لم تمنع من تواصل العلاقات البشرية والتجارية بين ضفتي الحوض الأوسط من المتوسط ، وقد كانت الجزر (صقلية ، وقوصرة وجربة وغيرها) حلقة الوصل الأساسية في ذلك الاتصال .

٤- الفصل الرابع : في المجالات الزراعية والماء

تناول المؤلف في هذا الفصل أربعة موضوعات : أولها الزراعة والماء في الوثائق الإفريقية ، استعرض فيه المصنفات الفلاحية والمائية في المكتبة التونسية ، ثم ضرب مثالين للملكية الزراعية والعمران باعتبار أن هذين المثالين

لا يخرجان عن دائرة المجالات الزراعية المحيطة بالمدن الكبرى ، المثال الأول فحص «مرناق» وهو سهل يقع جنوب مدينة تونس ، والثاني ناحية «الأربس» الواقعة في شمال غربي البلاد التونسية .

وفي كلامه عن فحص مرناق تتبع المؤلف الحدود الجغرافية واختلافها من حقبة إلى أخرى ، وتطور وضعية الفحص العقارية منذ حلول العرب به في نهاية القرن الأول الهجري ، واستعرض القرى والمواضع المختلفة المنسوبة إليه ، مع نبذة بسيطة عن كل منها . وعزا تغيّر المشهد الريفي في هذا الفحص إلى تطور المزروعات وطرق الري والمعطيات المناخية والسكانية ، مما أثر في تشكل نظام الملكية العقارية بصفة عامة وملكية الدولة خاصة .

أما المثال الثاني وهو ناحية «الأربس» فكان مصدر اهتمام المؤلف بها كونها تقع على مفصل مهم في شبكات الطرق منذ العهد القديم ، وظلت كذلك خلال الحقبة العربية ، إذ أصبحت على نقطة تقاطع طريقين رئيسيين هما قرطاج - تبسة ، وسوسة - بونة . وفي العصر الوسيط المبكر كانت الأولوية لطريق القيروان - طبنة ، المسمى طريق الجبال ، ثم تحولت ابتداء من القرن السادس الهجري إلى الطريق تونس - بلاد الزاب . وقد اهتم المؤلف بالاستيطان البدوي والقبائل التي لعبت أدوارًا في حقب متتالية في عملية التعمير في هذه الجهة .

وخصص المؤلف الجزء الأخير من هذا الفصل للحديث عن التهيئة المائية بجنوب إفريقية ، فذكر أن الإنسان المغربي في العصور الغابرة جابه نزوات الطبيعة ، وخصوصًا الجفاف والعطش صيفًا والأمطار الغزيرة والفيضانات

شتاء ، وحاول ترويض هذه الظاهرات لصالحه ، فقام بخزن المياه وابتكار الطرق المختلفة للمحافظة عليها والاستفادة منها ، واستعرض المؤلف ما جاء في كتب النوازل عن النزاعات حول قسمة المياه . وتحدث عن قوانين المياه بالأندلس والمغرب ، وأحكام المصارف والمقاسم والجسور وغير ذلك من المنشآت المائية السطحية التي ارتبطت بها قوانين دقيقة لتوزيع المياه مبنية على تقاليد عريقة اتخذت شكلاً مكتوبًا في القرن الخامس الهجري .

وقفة نقدية :

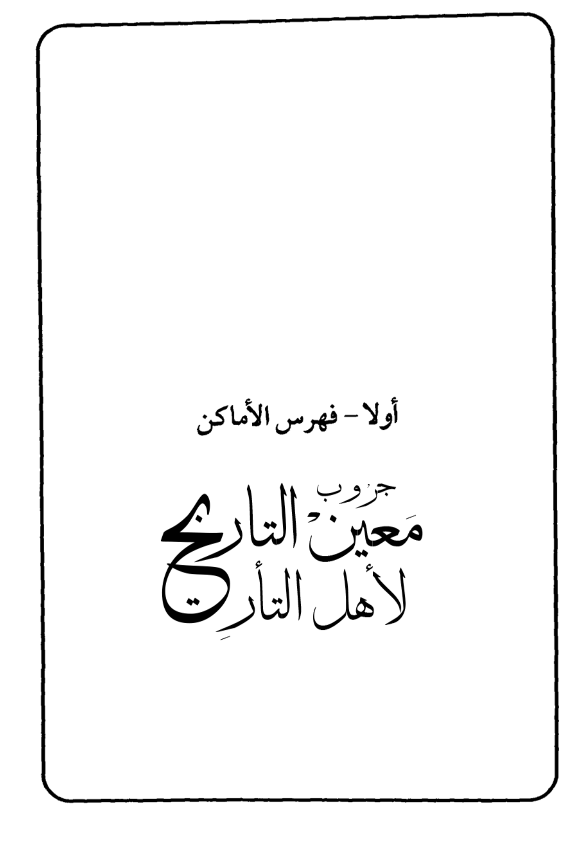
- الكتاب في مجمله بحث جاد ومفيد ، ويعبر عن رغبة أكيدة في التعرف على الجغرافية التاريخية لإفريقية ، واستطاع من خلال الفصول الأربعة التي قدم بها الكتاب أن يقدم عملاً نافعًا . غير أن خلفية الكاتب باعتباره مختصًا في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، لم تتح له إعطاء البحث حقه بوصفه بحثًا في مجال الجغرافية التاريخية الذي يعالج عناصر متعددة كان ما ذكره جزءًا من تلك العناصر ، فجاء غير مكتمل الصورة لجغرافية المكان في الفترة التاريخية التي تحدث عنها ، فلم يقدم المؤلف - على سبيل المثال - الصورة الاقتصادية العامة للمنطقة محل البحث وما تمتاز به من متاجر وغلات ، كما أنه لم يقدم صورة للوضع الطبيعي العام للمنطقة . فالجغرافية التاريخية هي دراسة جغرافية شاملة (طبيعية وبشرية) لعصور أو لفترات ماضية تدرس الوضع الجغرافي لمنطقة ما والتغيرات التي طرأت عليه ، وتستفيد - ما أمكن - من معطيات التاريخ ومصادره .

- كان من أول الواجبات التي على المؤلف أن يوليها عنايته توضيح

حدود المنطقة الجغرافية التي يطلق عليها العرب لفظ «إفريقية» ؛ هل هي البلاد التونسية فقط أم أن ذلك الاسم يتضمن مساحات أوسع من ذلك شرقًا وغربًا وجنوبًا ، وفي هذا السياق لم يبين المؤلف الفرق في الاصطلاح القديم بين بلاد المغرب وبلاد إفريقية .

– على الرغم من اهتمام المؤلف بالمصادر القديمة ، فإنه قد أهمل الرجوع إلى أعمال كثير من الرحالين المغاربة الذين مروا بالمنطقة التي تكلم عنها مثل العبدري وابن رشيد ، وابن بطوطة ، وغيرها من كتب الرحلة التي تقدم صوراً زمنية ممتازة للمنطقة محل البحث ، ويمكن من خلالها معرفة التغيرات التي طرأت على الوضع الجغرافي للمنطقة .

– إن حديث المؤلف عن الموقعية (الطبونوميا) أو أسماء المواقع الجغرافية ، من حيث أصولها واشتقاقها وصلتها بالتغيرات السياسية والسكانية ، وارتباطاتها بالبيئة الجغرافية لبلاد إفريقية والمغرب هو موضوع مهم ويحتاج إلى تطوير ، بل يحتاج إلى مؤلَّف قائم بذاته يقوم على المناهج الخاصة بعلم الأسماء الجغرافية ، على أن يشمل ذلك الأمر بلاد المغرب بالمفهوم الواسع ، إضافة إلى بلاد الأندلس التي كانت ترتبط به إلى حد كبير خلال حقبة طويلة من الزمن . وذلك أسوة بالجهود الجيدة التي تمت بخصوص شبه الجزيرة العربية ، ففي ذلك فائدة كبيرة للباحثين في مجال الجغرافية التاريخية لبلاد إفريقية والمغرب ، وللباحثين في تاريخ هذه المنطقة وآدابها بشكل عام . ومن خلال مثل ذلك البحث يمكن تحقيق وتثبيت المسميات الجغرافية ، وتصحيح الخرائط الطبوغرافية والأثرية للبلاد المغربية التي رسمها جنرالات الاحتلال الفرنسي التي انتقدها المؤلف .


أولا - فهرس الأماكن
جروب
معين التاريخ
لأهل التارِ

فهرس الأماكن

أ

ب

ح

خ

د

ذ

ر

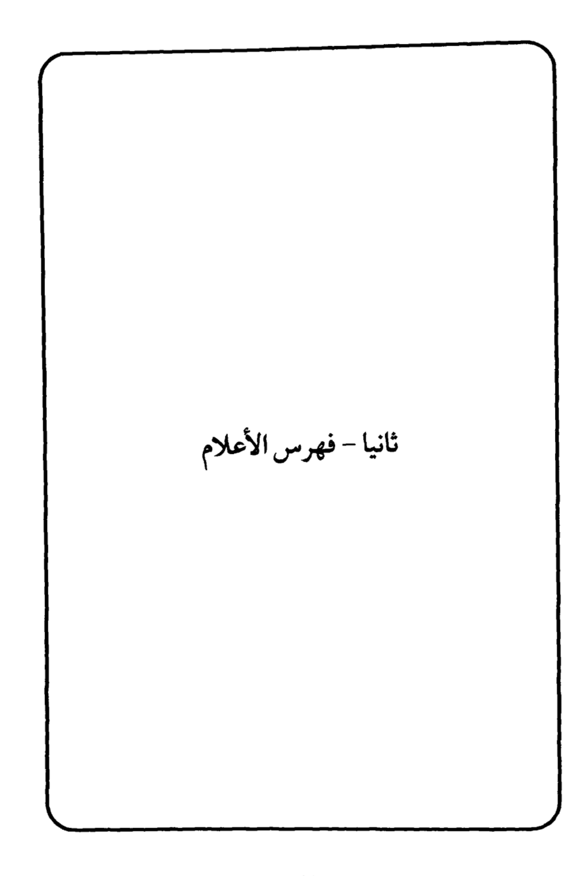
ز

س

ش

ص

ن



ثانيا - فهرس الأعلام

فهرس الأعـلام

أ

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ن

ثالثاً - فهرس الكتب والمخطوطات

فهرس الكتب والمخطوطات

ج

ح

خ

ن

هـ

و

رابعًا - فهرس المصطلحات

فهرس المصطلحات

أ

ب

ت

ج

ح

خ

المحتويات

أ.د. عبدالله يوسف الغنيم:

❖ محاضر وأستاذ مساعد وأستاذ بقسم الجغرافية بجامعة الكويت، وقد قام بالتدريس في مجال الفكر الجغرافي العربي وجيمورفولوجية شبه الجزيرة العربية منذ عام ١٩٧٦م إلى الوقت الحاضر.

- رئيس قسم الجغرافيا ثم عميد كلية الآداب بجامعة الكويت (١٩٧٦ - ١٩٨٥م).
- رئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية التي تصدرها جامعة الكويت من ١٩٨٠ - ١٩٨٥م.
- مدير معهد المخطوطات العربية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (١٩٨٩- ١٩٩٠م).
- وزير التربية بدولة الكويت (١٩٩٠-١٩٩١م).
- رئيس مركز البحوث والدراسات الكويتية من ١٩٩٢م حتى الآن.
- وزير التربية ووزير التعليم العالي (١٩٩٦-١٩٩٨م).
- عضو مجمع اللغة العربية (مراسل)، سوريا ١٩٩٢م.
- عضو مجمع اللغة العربية (مراسل)، مصر ١٩٩٤م.
- عضو المجمع العلمي المصري، ١٩٩٥م.
- عضو المجلس الأكاديمي الدولي لمركز الدراسات الإسلامية (جامعة أكسفورد) منذ عام ٢٠٠٣م.
- عضو في عدد من المراكز والمجالس العلمية، العربية والعالمية.

من مؤلفاته:

- كتاب النبات للأصمعي (تحقيق)، القاهرة ١٩٧١م.
- المخطوطات الجغرافية العربية في المتحف البريطاني، القاهرة ١٩٧٣م، الكويت عام ١٩٨٠م، ١٩٩٩م.
- مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، القاهرة ١٩٧٤م، الكويت ١٩٩٧م.
- جزيرة العرب في كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري، الكويت ١٩٧٦م.
- جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري، الكويت ١٩٨٠م.
- منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض، الكويت ١٩٨٣م.
- كتاب اللؤلؤ الكويت ١٩٨٨م.
- المخطوطات الجغرافية العربية في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج ١٩٩٩م.
- سجل الزلازل العربي: أحداث الزلازل وآثارها في المصادر العربية، الكويت ٢٠٠٢م.
- أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية في المصادر العربية القديمة، الكويت ٢٠٠٥م.

بحوث ومطالعات
في التراث الجغرافي العربي

جروب

معين التاريخ لأهل التاريخ

ردمك :٤-٢٣-٨٧-٩٩٩٠٦
رقم الإيداع : ١٨٥ / ٢٠٠٦